هذا هو الإسلام

سماته وحاجة الإنسانية إليه

الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح





هذا هو الإسلام

سماته وحاجة الإنسانية إليه

قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسولـه بالهـدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

سورة التوبة: الآية رقم ٣٣

وقال تعالى: ﴿هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾

سورة الفتح: الآية رقم ٢٨



المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـدلله رب العالمين. والصـلاة والسـلام على محمـد رسـول الله، المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين.

أما بعد

فإن الباحث والـدارس لظهـور الاسلام وانتشـاره، من خلال الأحـداث الأولى، والمتأمل في تلك الأحـداث، التي سبقت الاسلام، وواكبت ظهـور الاسلام. يجد أن العناية الإلهية، واضحة كل الوضوح، في اختيار الـرسول صلى الله عليه وسلم، ليكون رسول الاسلام، ومبلغه إلى الناس.

وواضحة كذلك. في اختيار الأمة الأولى، لحمل رسالة الاسلام، وأمانة الدعوة، ونشر الاسلام في مشـارق الأرض ومغاربهـا. وواضحة كـذلك. في اختيار أرض الجزيرة العربية مكاناً لظهور الاسلام فيها، لتكون منطلقاً للاسلام في كل الاتجاهات.

وواضحة كذلك. في اختيار القرن السابـع الميلادي، أو الـزمن الذي كان لظهور الاسلام فيه.

وواضحة كذلك، في حاجة الانسانية، لدين يعرفها، بمكانها ومكانتها.

وواضحة كذلك. في أثر هذه الاختيارات والعوامل في انتشـار الاسلام ولقد أظهر الواقع الذي مضى، والواقع القائم قيمة هذه الاختيارات والحاجـة لظهور الاسلام وانتشاره. .

وقد اتسم الاسلام بسمات، كانت ولا زالت، عوامل تجذب، إلى الاسلام، كل من اقترب منها، أو بحث فيها، أو تعرف عليها. . .

فلم تعرف البشرية ولن تعرف ديناً جمع بين دفتيه حقائق الحق، وأطراف الخير، وألوان الفضيلة، كما عرفت ذلك عن الاسلام.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا فدرجوا في مسالك الكمال، وصعدوا في مراقي العلا. يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمهم الحب والتفاهم في تلاقيهم.

والقارىء للاسلام في منابعه الأصيلة، ومصادره الحقيقية، وسماته البارزة. يجده بمنأىً عن كل ما من شأنه إعنات الانسان وإرهاقه، ويجده انه يسعى للأخذ بيد الانسان في هذه الحياة.

واذا كان العصر الذي نعيش فيه، هو عصر العلاقات العالمية، الذي لا يتطلب مواطنا أصح وأصلح من الانسان، الذي يوقن بالاسرة الانسانية. فان الذي لا شك فيه. أن هذا العصر لا تسعده عقيدة أخرى أصح له، وأصلح من عقيدة الاسلام. . .

وما أحرانا أن نتعرف على سمات الاسلام، ونعرف الناس على هذه السمات، وتلك العناية التي اختارت الاسلام، ليكون دين الانسانية.

وسوف يحظى المستجيبون لدين الله، بكل أبعاده، وآفاقه، من حيث العقيدة، والشريعة، والأصول، والفروع، والخلق، والسلوك، وشتى صور التعايش الانساني، والعلاقة الاجتماعية.

والاستجابة للاسلام، تضع أصحابها على الطريق الحق، الذي لا يضل من سلكه. وليس هناك من شيء هو أبر بالانسان في حاضره، وفي مستقبله. من أن يعيش الانسان مع الاسلام، وللاسلام.

د. احمد عبد الرحيم السايح

القسم الأول

حاجة الانسانية الى ظهور الاسلام

ويشمل :

- اختيار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبلغ الاسلام.
- اختيار الأمة الأولى للاسلام.
- عناية الله في اختيار المكان لظهور الاسلام.
- عناية الله في اختيار الوطن لظهور الاسلام.
- حاجة الانسانية الى الاسلام.
- أثر العوامل والاختيارات السابقة في ظهور الاسلام.

* * *



اختيار الرسول |ص| ليبلغ الاسلام



اختيار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبلغ الاسلام

اختار الله - سبحانه وتعالى - لرسالة الاسلام، من تأهل ليكون خير من يتلقى الوحي، ويبلغه للناس، وتلك سنة الله، مع رسالاته ورسله قال تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾[1].

فالله يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء، ويختار رسله من البشر الى الناس، وذلك عن علم وخبرة وقدرة[2].

ويذكر الطبري: أن الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل، وميكائيل، اللذين كان يرسلهما، إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده. ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده، من بني آدم[3].

يقول الله تعالى: ﴿وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾[4]، أي: هؤلاء الذين ذكرنا: من الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة. الأخيار الذين اخترناهم لطاعتنا، ورسالتنا الى خلقنا[5].

واصطفاء الله للرسل -عليهم السلام- يتم على مرحلتين: مرحلة تهيئة وتأهيل، ومرحلة تكليف وابلاغ[6].

---

(١) صورة الحج الآية رقم ٧٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٥، ص: ٢٥١، ط: كتاب الشعب بالقاهرة.
سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٤، ص: ٢٤٤٤، ط: دار الشروق سنة: ١٤٠٢ هـ.
(٣) الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن، جـ: ١٧، ص: ١٤٢، ط: الأميرية ببولاق.
(٤) سورة (ص) الآية رقم ٤٧.
(٥) الطبري: جامع البيان، جـ: ٢٣، ص: ١١١.
(٦) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١١٤، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت.

وكتب السيرة والسنة، تروي كثيراً، من الآثار، تشير إلى تشريف الله ـ تعالى ـ باصطفاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكونه أول الأنبياء خلقاً[1].

فقد روى ابن اسحاق عن قتادة مرسلاً، قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «كنت أول الناس في الخلق، وآخرهم في البعث»[2] وقد يكون المراد بالخلق هنا: التقدير دون الايجاد، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير، لاحقة في الوجود[3].

وجاء عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينته»[4].

ويقول الطيبي: والمعني: كتبت خاتم الأنبياء في الحال الذي آدم مطروح على الأرض، حاصل في أثناء تخلقه، لما يفرغ من تصويره واجراء الروح[5].

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ: «والمقصود من هذا الحديث: أن نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ـ تعالى ـ، ويخرجه إلى دار الدنيا حياً، وأن ذلك كان مكتوباً في أم

---

(١) الصالحي الشامي، سهل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، جـ: ١، ص: ٨٩. تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، ط: المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية، بالقاهرة، سنة ١٦٩٢ هـ.
(٢) الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، جـ: ٣، ص: ٢٨٢، رقم الحديث: ٤٨٥٠، ط: الأولى، سنة: ١٤٠٦ هـ، نشر: دار الكتب العلمية ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ: ١، ص: ٤١٩، ط: البابي الحلبي، بالقاهرة.
(٣) الصالحي الشامي، سهل الهدى والرشاد، جـ:١، ص: ٩١.
(٤) رواد الأمام أحمد، في مسنده، جـ:٥، ص: ١٢٧ ـ ١٢٨، جـ: ٥ ص: ٣٧٩، ط: دار صادر، بيروت.
(٥) الصالحي الشامي، سهل الهدى والرشاد، جـ: ١ ص: ٩٦.

الكتاب، من قبل نفخ الروح في آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ»[1] وفسر أم الكتاب: باللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[2] ولا ريب أن علم الله قديم، لم يزل عالماً بما يحدثه من خلقه، ثم إن الله ـ تعالى ـ كتب ذلك في كتاب عنده، قبل أن يخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير﴾[3].

ويروي الامام أحمد عن ميسرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[4].

ويقول الامام احمد في رواية منها: وبعضهم يرويه: متى كتبت من الكتابة؟ قال: كتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد. فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وثبوتها وظهورها في الخارج، فإن الكتاب، إنما يستعمل فيما هو واجب، اما تشريعاً كقوله تعالى: ﴿... كتب عليكم الصيام...﴾[5] أو قدراً، كقوله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي...﴾[6].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قالوا يا رسول الله: متى وجبت لك

(١) ابن رجب، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص: ٧٩، ط: مكتبة الرياض الحديثة، بالرياض.
وانظر: الصالحي الشامي، سهل الهدى والرشاد، جـ: ١، ص: ٩٧.
(٢) الرعد الآية رقم ٣٩.
(٣) سورة الحديد الآية رقم ٢٢.
وانظر: ابن رجب، لطائف المعارف، ص: ٧٩، بتصرف.
(٤) رواه احمد، في السند. جـ: ٥، ص: ٥٩.
ورواه الترمذي، في صحيحه، جـ: ٢، ص: ٤٢٥. ط: شركة الحلبي بمصر، ط: الثانية، سنة ١٣٩٥ هـ.
(٥) سورة البقرة الآية رقم ١٨٢.
(٦) سورة المجادلة اقية رقم ٢١.

النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[1].

وروى ابن سعد عن الشعبي قال: قال رجل: يا رسول الله: متى استنبئت؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق»[2].

وسئل أبو جعفر محمد بن علي: كيف صار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتقدم الانبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم[3] كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من قال: بلى. ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث[4].

ومنذ استودع الخليل ابراهيم قلب الصحراء ولده اسماعيل ـ عليهما السلام ـ فإن عناية الله ترعى الذين يحملون امانة الرسالة الخاتمة على يد النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتترجم فطرة ابراهيم ـ عليه السلام ـ هذه المعاني، في صورة الدعاء، والاماني، يسأل بها ربه. قال الله تعالى: ﴿ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[5] وما كاد يشتد ساعد اسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد فترة وجيزة، حتى يقف الى جوار ابيه، يؤكدان معاً هذا الامل الجاد في خاتم الأنبياء، وفي أمة الاسلام، قال تعالى: ﴿واذ يرفع

---

(١) رواه الترمذي، في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ـ صلى الله عليه وسلم، جـ: ٥، ص: ٥٨٥.
ورواه الحاكم، في المستدرك، كتاب التاريخ، باب ذكر مواكبة ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ: ٢، ص: ٦٠٩. وقال حديث صحيح ووافقه الذهبي. ورواه احمد، في السند، جـ: ٥، ص: ٥٩.

(٢) رواه الدرامي في سننه، المقدمة، ص: ٣، ط: دار الدعوة في استانبول، سنة: ١٩٨١ م. ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٩٥.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾ سورة الأعراف الآية رقم ١٧٢.

(٤) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ: ١، ص: ١٠١.

(٥) سورة ابراهيم الآية رقم ٣٧.

ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك انت العزيز الحكيم﴾.

وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[2].

فالعناية الآلهية قد هيأت سلسلة طيبة من الآباء الأخيار، والأجداد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ليأخذ منها عن طريق الوراثة[3] كثيراً من الخلق والطباع، ذلك لأن الوراثة عامل هام في تكوين الشخصية فهي تعمل في أصل النمو، وتدخل من داخل الكائن الحي، وما جاء في الوراثة، ما رواه البخاري بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها مسروراً، تبرق أسارير وجهه فقال: ألم تسمعي ما قال المدلجي لزيد وأسامه ـ ورأى أقدامهما ـ فقال: إن بعض هذه الاقدام من بعض»[4].

وحينما قذف هلال بن امية زوجته في شريك بن سحماء ـ وهي حامل ـ قال ـ: «أبصروها فان جاءت به أبيض، سبطاً مضيء العينين. فهو لهلال بن أمينة، وان جاءت به أكحل، جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، قال: فأنبئت

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٢٧ ـ ١٢٩،

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٨.

(٣) حتى لا يكون هناك مجال للتقول على نسبة ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثر هذا النسب، وقلك لما ألف الناس من التواصل بين الآباء والأبناء، وأثر الوراثة في الذرية.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتى الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ج: ٦، ص: ٥٦٥، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

ورواه مسلم، في صحيحه، كتاب الرضاع، باب العمل بالحاق القائف الولد جـ: ١٠، ص: ٤١، ط: الثالثة، دار الفكر، بيروت، سنة: ١٣٨٩ هـ.

انها جاءت به أكحل جعدا، حمش الساقين»[1]، وهذا دليل واضح، يشير الى توارث الصفات والوراثة تنقل الصفات الجسمية والعقلية.

ويرى علماء النفس: أن الذكاء، والطبع يخضعان لقوانين الوراثة[2]، وان الدراسات الحديثة، في الوراثة والاستراتيجية، تضع معياراً لقياس السلوك المنتظر للزعماء والقادة، الذين يقودون زمام الامور في دول العالم الحديث[3].

وبمقدار ما يتحمله الزعيم من خصائص في الوراثة والأخلاق، بمقدار ما يتكهن له الدارسون من سلوك وممارسات[4].

واصبح من المعروف في معاهد الدراسات الاستراتيجية: ان علم الوراثة، وعلم الأخلاق، من الأصول التي ترتكز عليها الدراسات الاستراتيجية المتعلقة بالتنبؤ لممارسات الزعماء والذين يتولون جديداً مقاليد الامور في بلد ما[5].

ونبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان كان باصطفاء الله له رسولاً خاتماً، فهو أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء الاستراتيجية الحديثة، غير أنه قد يكون من المقبول علمياً: أن ننشر على الناس خصائص نسبه، الذي اختصه الله به، ليكون ذلك نبراساً في تفهم القيم الحضارية، التي ارساها رسول الله ـ صلى

---

(١) رواه البخاري، في مواضع من حديثه مع فتح الباري، منها: كتاب الطلاق. باب قول الأمام اللهم بين، جـ: ٩، ص: ٤٦١.
ورواه الترمذي في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النور، جـ: ٥، ص: (٣٣١ ـ ٣٣٢)، رقم الحديث: ٣١٧٩، وقال: حسن غريب. ورواه احمد، في مسنده، جـ: ١، ص: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ـ ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٥٧، ٣٦٥.
(٢) د. عبد العزيز القوص، اسس الصحة النفسية، ص: ٣٧، ط: الخامسة القاهرة.
(٣) د. رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٠، من كتاب السيرة والسنة النبوية، صفر، سنة: ١٤٠٦ هـ: ط: الأزهر.
(٤) راجع المصدر السابق.
(٥) راجع المصدر السابق.

الله عليه وسلم ـ في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، لأنه أسوة وقدوة[1].

فيكون نسبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما قرره من قواعد القيم الحضارية المنزلة، الأصل الذي ترتكز عليه الحياة الاسلامية في دنيا المسلمين قاطبة.

ويختص نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدة خصائص في مقدمتها:

١ ـ البقاء إلى جوار البيت الحرام، والتمسك بملة ابراهيم ـ عليه السلام.
٢ ـ الفروسية.
٣ ـ شرف النفس.
٤ ـ حفظ الاسرار.
٥ ـ العناية والاهتمام بمكارم الأخلاق.
٦ ـ الرحمة بالضعفاء[2].

وبيان ذلك:

١ ـ البقاء الى جوار البيت الحرام:

إن عدنان هو: الجد الذي يثبت إليه نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علمياً وتاريخياً[3].

لقد ولد لعدنان ولدان:

ـ عك بن عدنان. ـ ومعد بن عدنان.

أما عك. فقد نزح إلى اليمن، وتزوج من الأشعريين[4].

وأما معد: فقد أستقر بمكة، مجاوراً بيت الله الحرام. الذي رفع قواعده

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) راجع المصدر السابق.

(٣) ابن قدامة، النبيين في أنساب القرشيين، ص: ٣٦.

(٤) هم: من قبائل كهلان، من القحطانية، وهم: بنو الأشعر بن أدد ابن زيد من يشجب من غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ: ١، ص: ٣٠.

ابراهيم - عليه السلام - أصل هذه الدوحة الشريفة.

ثم ولد له: نزار، وقضاعة، وقنص.

أما نزار: فقد استقر بمكة.

وأما قضاعة: فقد انتقل الى حمير في بلاد سبأ.

وأما قنص: فقد هلك.

ثم كان من نزار اولاده: ربيعة، وانمار، وإياد، ومضر، لم يستقر واحد منهم إلى جوار البيت الحرام، سوى: مضر، ومن خصائص مضر أنه ما رآه أحد الا قدره وأحبه، فهو صاحب كنف موطأ[1].

فسلسلة النسب الزكي مستقرة حول البيت العتيق، فهو جوار طاهر في كنف بيت عتيق.

ثم كان من مضر ولداه: غيلان، والياس.

أما غيلان: فقد أفسد الدين.

وأما الياس: فقد صان ملة ابراهيم، وحافظ على الشرائع التي ورثها البيت الاسماعيلي من جدهم ابراهيم، واسماعيل - عليهما السلام [2].

تقول مصادر السيرة النبوية: إن الياس أول من أهدى إلى البيت الحرام، وكان في العرب مثل: لقمان الحكيم في قومه[3].

الفروسية:

ومن الياس - كبير قومه - كان ثلاثة نفر: عامر، ولقبه: مدركة، وطابخة، وقسعة.

---

(١) د. رؤوف شبلي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦١ - ٣٦٢ من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

(٢) رؤوف سلبي بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٢، من كتاب السيرة والسنة النبوية.

(٣) المصدر السابق.

كان عامر (مدركة) هو: الفارس المقدام الشجاع، وهو الجد في السلسلة الشريفة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستحق هذا اللقب لأنه أدرك كل عز وفخر.

أما الآخران: فقد كانا كسولين[1].

٣ ـ حفظ الأسرار:

ثم ولد له: خزيمة، وهذيل.

وكان خزيمة: أشرف الناس نفساً، فأنجب أربعة: كنانة، وهي التي اصطفاها الله من ولد اسماعيل، وكان أسد، وأسدة، والهون.

وكان كنانة هو جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد اختص بأنه يكنُّ ويحفظ، أسرار الخلق، وهي صفة أمانة الأسرار للمجتمع[2].

تقول المصادر: قيل له: كنانة، لانه لم يزل في كن قومه بستره عليهم، وحفظه لأسرارهم، وكان شيخاً حسناً، عظيم القدر، تحج إليه العرب، لعلمه وفضله وكان يأنف أن يأكل وحده.

ثم كان منه: النضر، وملك، وعبد مناة، وملكان.

وسمى: النضر، لنضارته، وحسن طلعته، وبهائه[3].

٤ ـ البحث والعناية والاهتمام بمكارم الأخلاق:

ثم كان من النضر: سالك، ويخلد.

يقولون: سمى سالكاً، لأنه سلك أمر العرب.

ومنه: كان فهر، وفهر هذا هو: (قريش)، وسمى بذلك لأنه كان يقرش،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٢، من كتاب السنة والسيرة النبوية.

يعني: يفتش عن حاجة المحتاج، ليسدها، ويقبل عشرته وكان أبناؤه من بعده يقرشون أهل الموسم، بمعنى: أنهم يقضون لهم حوائجهم[1].

ومن فهر كان أبناؤه: غالب، ومحارب، والحارث، وأسد، وكان غالب هو: جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لانه كان يغلب على الحق.

ومن غالب كان: لؤي، وتميم.

وكان لؤي هو: جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومنه كان كعب، ومنه كان مرة، ثم كان كلاب، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة وهو يوم الجمعة، أو يوم الرحمة، ويقال: أنه أول من سمي يوم الجمعة بذلك لاجتماع قريش فيه إليه[2].

وكلاب اكتسبها من كثرة استخدامه لكلاب الصيد، واسمه: (حكيم) وكلاب: مجمع جدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابيه وأمه، لأنه أنجب قصياً جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبيه، وزهرة جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمه[3].

ومن خصائص قصي:

الحجابة: وهي حراسة الكعبة.

الرفادة: أطعام أهل المواسم في الحج.

اللواء: حق اعلان الحرب وعقد الجيوش.

السقاية: سقاية الحجيج الماء بلا مقابل.

الندوة: الشورى.

---

(١) أبو الفضل العراقي، القرب في محبة العرب، ص: ١٤٨، تحقيق ابراهيم حلمي القادري.

(٢) د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٣، من كتاب السنة والسيرة النبوية.

(٣) د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٣، من كتاب السيرة والسنة النبوية.

ومن قصي كان أولاده: عبد مناف، وهو جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبد الدار، وعبد العزي، وعبد بن قصي.

أما عبد مناف: فقد امتاز في ظل والده بالوقار والاحترام لذاته وكان عبد الدار: هزيل المقام، فرأى قصي أن يعطيه شيئاً من الشرف ووزع على أولاده، فأعطى عبد مناف: السقاية، والرفادة، وهي صفات الكرم والجود والسخاء المتكرر الدائم، وأعطى عبد الدار: اللواء، ليرفع من ضعفه[1].

الرحمة والضعفاء:

ثم كان من عبد مناف رجال هم: هاشم والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

وكان هاشم كريماً يحفظ له التاريخ: أن قريشاً أصابتها مخمصة وهو في بلاد الشام، فاشترى دقيقاً وكعكاً، وقدم مكة، فهشم الخبز والكعك، ونحر الجزور، وجعله ثريدا، وأطعم الناس، حتى أشبعهم فسمي لذلك: هاشماً.

يقول الكاتبون: كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، ثم ورث هاشم خصائصه في العدل الاجتماعي الى المطلب اخيه، ثم ورثها عبد المطلب بن هاشم من عمه المطلب.

وعبد المطلب له خصائص أضفت عليه ألقاباً، فهو: مطعم طير السماء وهو: شبيه الحرث، وهو رجل مجاب الدعوة، كانت قريش تستقي به المطر[2].

ومن عبد المطلب كان عبد الله، الذي جعل الله منه المصطفى الخاتم نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي حمل من أرومته هذه الخصائص العليا:

ـ الجوار إلى بيت الله العتيق، والبقاء على ملة ابراهيم الحنيف.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ، جـ: ٢، ص: ١٦ ـ ١٧.
د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٤، من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

- الفروسية والاقدام والشجاعة.
- شرف النفس، وعلو الهمة.
- حفظ الاسرار، والأمانة.
- مكارم الاخلاق، وفضائلها.
- رعاية الضعفاء، وحماية المحاويج.

وبهذه الخصائص الوراثية التي تعد قاصدة في الدراسات الاستراتيجية يكون نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على السنام، من ذروة المجد والشرف المؤثل، لجميع زعماء العالم قديماً وحديثاً، واذا فما هَـرْطَقَ به قليلو الثقافة، وضعفاء التفكير، من المستشرقين، وكتاب الغرب الحاقدين على الاسلام والمسلمين، من امثال: «لاسانس»، و «مستر موير»، إنما هو محض افتراء مزيف، لا يعتمد على توثيق من مصدر أمين، ولا مصدر من عقل محترم لنفسه، يعرف أصول النتائج من مقدماتها.

ونحن العرب المسلمين بما لنا من أمجاد في الفتح الاسلامي والحضارة العالمية، واسعاد الانسانية، نثق كل الثقة في أصول البيت النبوي الكريم الشريف، وفي القيم الحضارية المنزلة، التي تدثرت به والتي انبثقت عنه[1].

ولذلك كان من عناية الله بمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن وضعه في نهاية سلسلة فاضلة من الناس أتته من قبل والديه، فأبوه عبد الله وجده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. وأمه آمنة[2] بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. فهما يلتقيان معاً في الجد الخامس كلاب بن مرة[2].

وعبد المطلب هو جد النبي - صلى الله عليه وسلم - وابن هاشم من زوجته سلمى بنت عمرو. وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، إذ أحبه قومه،

---

(١) د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمة الحضارية، ص: ٣٦٤، من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

(٢) محمد عفيف الزغبي، مختصر السيرة النبوية، ص: ١٣ - ٢٤، ط: دار المطبوعات، بجدة.

وعظم خطره فيهم، وهو شيخ مكة يوم قدوم أبرهة، وهو الذي حفر بئر زمزم، بعد أن هُدِيَ اليها، وهو الذي قدَّم أحد أبنائه العشرة، للذبح عند الكعبة، وفاء لنذره بأن يقوم بذبح أحد أولاده، إن رزق عشرة ذكور، فلما رُزِقَهم أقرع على الذبيح، فجاء على عبد الله، وكاد يذبحه، لولا نصح القرشيين له، لكنه استبدل بالـذبح الغذاء، بناء على نصيحة عرافة خيبر[1].

والذبيح الذي أُفدى هو: عبد الله ـ أصغر أبناء عبد المطلب ووالـد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد اشتهر بالعفة والطهر.

ومما روى في هذا الباب: أنه مر ذات يوم بعد فدائه على فاطمة بنت مر الخثعمية فقالت له: هل لك أن تغشاني وتأخذ مائة من الابل؟ فرد عليها بقوله:

أمـا الحـرام فـالممـات دونــه   والحــل لا حــل فـأستبينــه
فكيف بـالامـر الـذي تبغينـه   يحمي الكـريم عرضـه ودينه[2]

قـال ذلك ولم يلتفت اليها، ثم تزوج من آمنة، نزولاً على مشورة والده ـ ثم ترك آمنة بعد الزواج بقليل للتجارة، لكنه مات وهو عائد من هذه الرحلة.

وما يجدر أن يذكر: أن نسب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهة أمه عـالٍ هو الآخر، إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله: «ان آباءها من فضلاء قريش، وسادة بني زهرة»[3].

فـالنبي محمد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ نخبة بني هـاشم، وسلالـة قريش وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله تعالى على الله وعباده.

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١١٧.
(٢) الصالحي الشامي، سهد الهدى والرشاد، جـ: ١، ص: ٣٩٢، عباس محمود العقاد، مطلع النور، أو طوالع البعثة المحمـدية ص: ١٣٨، طبـع ونشر: المكتبـة العصريـة، صيدا، بيروت.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ، ص ١٢١.

وأعداؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يشهدون له بذلك ولهذا شهد له به عدوه اذ ذاك: أبو سفيـان بن حرب، بين يـدي ملك الروم، «قـال مـلك الروم لترجمانه: سله. كيف حسبه فيكم؟ يقول أبو سفيان، قلت: هو فينا ذو حسب»[1]. فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله تعالى: ﴿... الله أعلم حيث يجعل رسالته...﴾[2]. وما قاله الله ـ تعالى ـ يختص به من يشاء من خلقه، لا ينالها أحد بكسب، ولا يتوصل إليها بسبب ولا نسب، وعلى أنـه تعالى لا يختص بهـذه الرحمـة العظيمـة، والمنقبة الكريمة، الا من كان أهلاً له، مما أهله هو من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاء النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق، وكان أذكياء العرب في الجاهلية على شركهم بالله ـ تعالى ـ يعلمون: أن الصـادقين محبي الحق، وفاعلي الخيـر، من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى، وعنايته»[3].

لقد كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبيه، وبيت وهب بن عبد مناف: جد النبي ـ عليه السلام ـ لأمه، من أعلى البيوت في قريش، إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بني هاشم، وكان وهب بن عبد مناف، سيد بني زهرة، وكان كلا البيتين موسوماً بالشرف، والكرامة، والطهر، والعفاف، ورعاية الدين، والفضيلة.

فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب زواجاً موفقاً ميموناً، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصهر

---

(١) رواه البخاري، في مواضع من صحيحة مع فتح الباري، في كتب بدء الوحي، والجهاد، والأحكام، والأيمان، والشهادات، وفي بدء الوحي، وغيرها، جـ: ١ ص: ٣١ ـ ٤٥.
ورواه مسلم، في صحيحه في كتاب الجهاد، باب كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هرقل، جـ: ٣، ص: ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧، ١٧٧٣.

(٢) سورة الأنعام، جزء من آية: ١٢٤.

(٣) محمد رشيد رضا تفسير المنار، جـ: ٢، ص: ٣٥، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٣ م.

بيت عريق في شرف الأباء، وطهر الأمهات إلى بيت يكافئه بالشرف، والطهارة، فكان من الطبيعي أن تكون ثمرة هذه المصاهرة ثمرة طيبة مباركة، وان يكون نسل هذا الزواج، نسلاً طاهراً كريماً[1].

وما أجمل قول العقاد: كان بنو هاشم أصحاب عقيدة، وأريحية، ووسامة، وجمال. عرفوا بالنبل، والكرم، والعفة، والهمة، والوفاء، ولم تكن اخلاقهم هذه من مناقب الأماديح التي يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التي ترسل إرسالاً على الألسنة، ولا يراد بها معناها.

وابن هاشم عبد المطلب: سيد قريش غير مدافع، وكان عبد المطلب متديناً، صادق اليقين، مؤمناً بمبادىء دينه في الجاهلية، لأن ثقة الايمان طبيعية في وجدانه، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله وكان في الحق نمطاً فريداً بين أصحاب الطبائع التي فطرت على الاعتقاد، ومناقب النبل والايثار.

ان أسرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرة عزيزة الاباء والاجداد، فخرها بالنسب، اعظم من كل فخر، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة، ثم ينشأ لها من بنيها نبي ينعي على الأباء والاجداد، ما كانوا عليه من ضلالة.

لقد نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الاسرة، التي تعطيه خير ما تعطي الاسرة بنيها، ولكنه جاء بالنبوة التي لا يعطيها غير الله، فكانت الأسرة، تمهيداً له فيما ورث منها[2].

ويروى: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ان الله اصطفى كنانة

---

(١) أمين دويدار، صور من حياة الرسول، ص: ٣٧، ط: الأولى القاهرة.
عبد الله بن حمد الشبانة، يا أهل الكتاب تعالوا.. الى كلمة سواء.. ص: ١٣٧ ـ ١٤٠، بتصرف واختصار، ط: الأولى دار الهدى للنشر والتوزيع، بالرياض، سنة: ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

(٢) العقاد، الأسلاميات، المجلد السابع، ص: ٣٢٣ ـ ٣٥٤، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة: ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هـاشم، واصطفاني من بني هاشم[1].

ويقول العباس: بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر، فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[2].

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن قريشاً أفضل العرب وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً[3].

وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[4] قال: «من صلب نبي الى صلب نبي حتى صرت نبياً»[5].

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين: أن أصول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يدخلهم الشرك، ما دام النور المحمدي في الذكر والانثى، فإذا انتقل منه الى من بعده، امكن أن يعبد غير الله[6].

وجاء فيه ـ أيضاً ـ: أي: يراك متقلباً في أصلاب وأرحام المؤمنين، من لدن

---

(١) رواه مسلم، في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم ـ، جـ: ٤، ص: ١٧٨٢، ٢٢٧٦.

(٢) رواه الترمذي، في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، جـ: ٥، ص: ٥٨٤، رقم الحديث: ٣٦٠٧ ـ ٣٦٠٧ وقال: حديث حسن.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة اصحاب الجحيم، المجلد الأول، ص: ٣٧٠، تحقيق وتعليق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل ط: الأولى، سنة: ١٤٠٤ هـ.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢١٩.

(٥) رواه البزار، في مسنده (كشف الأستار عن زوائد البزار ـ للهيثمي: جـ: ٣، ص: ٦٢، ط الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

(٦) الجمل، الفتوحات اآلهية، جـ: ٣، ص: ٢٩٦، ط: عيسى البابي الحلبي.

آدم وحواء الى عبد الله وآمنة، فجميع أصوله رجالاً ونساء مؤمنون[1].

وهناك اجماع على: أن نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتهي إلى اسماعيل بن ابراهيم أبي العرب المستعربة.

نسب شريف وآباء طاهرون، وأمهات طاهرات، لم يزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء، حتى اختاره الله هادياً مهدياً، من اوسط العرب نسباً، فهو من صميم قريش، التي لها القدم الأولى في الشرف، وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه، الا كرماء، كلهم سادة وقادة، وكذلك أمهات آبائه، من أرفع قبائلهن شأناً، ولا شك أن شرف النسب، وطهارة المولد، من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته، كان شرعياً حسب الأصول العربية[2].

ومما يحسن أن نشير اليه: أن هناك مزيتين، في آباء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأجداده، علينا أن نعرض لهما:

المزية الأولى:

أن الآباء المباشرين من والد وجد، وهكذا الى النهاية لم ينغمسوا في الشرك، والوثنية على غير عادة معاصريهم، وتلك إرادة الله في آبائه ـ عليه السلام ـ، إذ بقي فيهم هذا الفهم الديني، قال تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾[3] ويذكر العلماء: أن الكلمة الواردة هي قوله تعالى: ﴿لا إله إلا الله﴾ وبذلك فسرها مجاهد وقتادة، وغيرهما وقد بقيت هذه الكلمة، فلا يزال في ذريته، من يقولها[4]، ويوحد الله، ويدعو الى توحده[5].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) محمد الخضري، نور اليقين، ص: ١٢، ط: دار القلم، بيروت تحقيق: عبد العزيز سيروان.
(٣) سورة الزخرف، أية: ٢٨.
(٤) ابن كثير، تفسير القآن العظيم، جـ: ٧، ص: ٢١٢.
(٥) الزمخشري، الكشاف، جـ: ٣، ص: ٤٧٤، ط: دار المعرفة بيروت.

وقد ذكر السيوطي: «أن أجداد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آدم الى ابراهيم، كانوا مؤمنين بيقين»[1]. فلما أتى ابراهيم بولده اسماعيل، قال قبل أن يتركه، داعياً له: «رب أجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الاصنام»[2] ويقول الطبري في روايته عن مجاهد: «استجاب الله لابراهيم، دعوته في ولده، فلم يعبد أحد، من ولده صنماً بعد موته»[3].

المزية الثانية:

وأما عن المزية الثانية، فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتسب الى بطن بني هاشم، وبنو هاشم بطن يبطن مكة، ويرتبط مع سائر بطون قريش في قرابة[4] وتلك سيرة لداعية يظهر بين الناس، اذ يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون. وأخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن بطنٌ من قريش الا وله قرابة فيه»[5].

وهكذا كانت تهيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ميلاده، فجعل آباءه من خير الخلق خلقاً، وديناً ومسلكاً، وجعل آباءه من بطن، يتصل بكل بطون قريش، اتصالاً قائماً على النسب والقربى.

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثال الصدق والأمانة في سلوكه، حتى اشتهر بهاتين الصفتين، وسماه الناس: بالصادق الأمين، وتجلت عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ به في هذه المرحلة، فلم يسجد لصنم قط، وكان يلتمس الهدى، متبعاً ما بقي من دين ابراهيم ـ عليه السلام ـ.

---

(١) السيوطي: الحاوي للفتاوي، جـ: ٢، ص: ١٢٦، ط: دار الفكر بيروت.

(٢) سورة ابراهيم، آية: ٣٥.

(٣) الطبري، جامع البيان في تفسير أي القرآن: جـ: ١٣، ص: ٢٢٨.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٢١.

(٥) رواه البخاري، في صحيحه كتاب المناقب، جـ: ٤، ص: ٢١٧، ورواه البزار، في كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب علامات النبوة باب قدم نبوتـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ج: ٣، ص: ١١٢. ورباه الطبراني في الأوسط.

اختيار الأمة الأولى للاسلام



يذكر العلماء: أن كمال كل نوع إنما هو محصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة به، وبحسب زيادة ذلك ونقصانه، يفضل بعض أفراده بعضاً، إلى أن بعد أحدهما سماء، والآخر أرضاً.

والانسان ارك لسائر الأجسام في الحصول في الحيز والفضاء والنباتات في الاغتذاء والنشوء سماء، وللحيوانات في حيويته بأنفاسه وحركته بإرادته واحساسه، وانما يتميز بما أعطى من القوة النطقية وما يتبعها من العقل، والعلوم الضرورية، والأعمال الصالحة المرضية وأهليته للنظر والاستدلال، وترقيه بذلك في مدارج الكمال، وعلمه بما أمكن واستحال، فإذا كماله انما هو بتعقل المعقولات، واكتساب المجهولات، وبالاخلاق الحسنة النابعة للاعمال الصالحات، فللانسان فضل على سائر الحيوانات كلها في نفسه وجسمه[1].

ولقد كان لظهور الاسلام في الأمة العربية، دليل على مميزات وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في العرب، واختارهم من أجلها ليكونوا أمة ببعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها وبلسانها، وينزل القرآن الكريم بلغتها، مراعياً جانب التفوق العربي، في اعجازه ودقته. ولا بد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها، واتجاهه إليها عند كل صلاة وحج، وعلى قدرة تحمل مسؤولية إبلاغ الدعوة الى كل الآفاق[2].

---

(١) الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، جـ: ١ ص: ١٨، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٩٩.

فأي امة لها كل هذا في تاريخ الانسانية؟

أنهـا أولاً: الأمة التي يتحقق لنـا من استقراء التـاريخ: أنهـا نطفـة البشـر الأولى[1]، وأنها بدء حياة الانسان، فإن سلامة الفطرة في البشرية لا تكون على أتم ظهورها بالبداهة، إلا في هذه الأمة، التي تنطوي فيهـا الامم، والتي تنفجر من صخريتها ينابيع الخصائص الأولى، نقية قبل أن تتدنس بصراعات الحياة، وتسقط في أخاديد القهر، وتدور في منعرجاتـه ومآزقـه، وهذه الأمـة التي يقرر التـاريخ الصحيح ابتداء البشر بها هي: الأمة العربية لا جدال. ضاربين صفحاً من القول الشائع: يقدم التاريخ المصري، أو البابلي، فكلاهما ليس إلا أثراً متأخراً من آثار الهجـرات العربيـة القديمـة، التي فاض بهـا قلب الجزيـرة على أطراف الـوطن العربي[2].

وهي ثانياً: الأمة التي يقوم الدليل على أن الله ـ عز وجل ـ خاطبها بالفعل، وجعل لسان الحق لسانها، ودعوة الخير في الناس دعوتها، وكتاب العدل في البشر كتابها، ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هي: الأمة العربية، أمة القرآن، وأمة الاسلام، وأمة البيان[3].

وهي ثالثاً: الأمة التي يثبت بالدليل: أن لها من عناصر البيئة التي تحيا فيها ما يحفظ عليها كمال الفـطرة الانسانيـة التي نشأت عليهـا في قوام البـدن، وتقويم النفس، ذلك أن النفس والبدن في اتحادهما على كمال الفطرة، يؤلفان اتجاه العقل السليم[4].

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص العرب، أهلتهم لحمل أكبر رسـالة وأبقاها، قال تعالى: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا

---

(١) أي: أنهم كانوا أكثر الناس حفاظاً على الأنساب، حتى لا تختلط. أحمد موسى سالم، لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب؟ المقدمة ط: دار الجيل، بيروت.

(٢) احمد موسى سالم، لماذا ظهر الأسلام في جزيرة العرب. ص: ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) المصدر السابق. ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق ص: ١٤٨.

مناسكنا وتب علينا إنك انت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

جاء في تفسير الفخر الرازي: ووصفه لذريته بذلك، لا يليق إلا بأمة ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ، فعطف عليه بقوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم...﴾[3] وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين:

أحدهما: أن يكون فيهم رسول، يكمل لهم الدين والشرع، ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الاسلام.

وثانيهما: أن يكون ذلك المبعوث منهم، لا من غيرهم[2].

وقال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: «ليس في العرب قبيلة إلا قد ولدت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مضريها وربيعيها ويمانيها»[3].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ تخير العرب من خلقه، وتخير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم[4].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم، روميهم وفرسيهم، وغيرهم.

وان قريشاً أفضل العرب، وان بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أفضل بني هاشم، فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، لمجرد كون النبي ـ صلى الله

(١) سورة البقرة. آية: ١٣٠.
(٢) الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، جـ: ٢، ص: ٧١ ـ ٧٢. ط: دار الفكر، بيروت.
(٣) ابن الجوزي، الوفاء بحوال المصطفى، جـ: ١، ص: ٧٩، ط: بيروت.
(٤) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ١، ص: ٢٦٩.

عليه وسلم ـ منهم، وان كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه أفضل نفساً ونسباً[1].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «خلق الله الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار».

وعن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى كنانة من بني اسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

ويذكر ابن خلدون فضل العرب، فيقول: «وهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن اعوجاج الكلمات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة، المتهيء لقول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس، من قبيح العوائد، وسوء الملكات»[2].

وأهم ما حفظ ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم في غابر الدهر: «كون العرب أهل شدة وبأس، وأباة ضيم، لا ينامون إلا على الثأر، ويصبرون على شظف العيش، ويتبلغون بميسوره، وليست الرفاهية من شأن اكثر المعمور من أرضهم، ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا ان يستولوا على اليمن والحجاز، وما إليهما، مقدرين ان جزيرة العرب، لا تساوي اكتساحها، وأن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها، لبعد المسافات في فلوات، لا أول لها

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، جـ: ١، ص: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص: ١٣٢، ط: كتاب التحرير، سنة: ١٣٨٦ هـ بالقاهرة.

ولا آخر»[1].

لقد أفادت البحوث: أن لبيئة العرب ـ عند ظهور الاسلام ـ مقومات لم تكن متوفرة في غيرها، من بيئات العالم القديم، لقد كانت مبرأة من القهر السياسي، والترف الحضاري[2].

وأهم عوامل المدنية في جزيرة العرب، كون أهلها عرفوا في كل العصور معاناة التجارة، ينقلون مع حاصلاتهم حاصلات الشرق إلى الغرب، وحاصلات الغرب إلى الشرق، واشتهروا بذلك. وكانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لا غبار عليها، وكثيراً ما كانوا ينزلون الولايات المجاورة، يساكنون أهلها، كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم، على اختلاف بينهم، وبين ساكنيها في الطبائع والألسن[3].

وان البحث يقف بنا على صفات انسانية عديدة، أهلت العرب لتحمل مسؤولية الدعوة الاسلامية، ومن تلك الصفات:

أولاً: إن الأمة العربية جمعت بين صفات البدو والحضر، ومن هنا: كانت عصبيتهم الحادة، التي جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً لا يخضع لغير قبيلته، ولم تقم لهم بذلك دولة واحدة، وكان الرئيس فيهم كواحد منهم، بل كان يتقرب اليهم بالحيل وتحسين المعاملة، كسباً لودهم، وفوزاً برضاهم عنه[4].

وهذه العصبية فاقت حدها، فانقلبت الى ضد المطلوب منها. لكن ما فيهم من سلامة الطبع وبعدهم قليلاً من البداوة، جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية «على أساس أن الوازع في هذا الخضوع، لم ينشأ بسبب قهري بشرى، أو استذلال

---

(١) محمد كرد علي، الأسلام والحضارة العربية، جـ: ١، ص: ١٢٠، ط: الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة: ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.
(٢) د. عبد العزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ: ١، ص: ٦٣٣، من كتاب: البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة، ط: قطر سنة: ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠.
(٣) محمد كرد علي، الأسلام والحضارة العربية، جـ: ١، ص: ١٢٠.
(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٠٦.

سلطان، وانما سببه من داخل أنفسهم كما أنه ليس خضوعاً لفرد أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله، الذي يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء[1].

وقد لاحظ ابن خلدون طبيعة العرب في الاباء والشمم فذكر: «أنهم لا يجتمعون إلا بعقيدة دينية، فإذا كان الوازع لهم من أنفسهم ذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المهذب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذموم الاخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم، لإظهار الحق، ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك»[2].

وهكذا ظهرت الدعوة الاسلامية في أمة جمعت بين البدو والحضر هي: أمة العرب، فحملتها بكفاءة، وبلغتها إلى الناس أجمعين.

ثانياً: عرف العرب بدواً وحضراً بالشجاعة والجرأة، والكبرياء العنيد، كبرياء الرجل الحر، حتى صار العرب أشجع الناس[3]، وأما كون العرب أشجع من غيرهم، «فلأن الشجاعة من الصفات الغريزية، والسجايا الطبيعية، وقوة للنفس معنوية، لا تدرك الا بآثارهما وغاياتها ولا تعلم إلا بمقتضياتها، وهي: الاقدام في مواضع الاحجام، وعدم المبالاة بالحياة، وكلما كانت هذه الآثار أعظم، كان مبدؤها أقوى وأتم، والعرب لم تزل رماحهم متشابكة، وأعمارهم في الحروب متهالكة، وسيوفهم متقارعة، وأبطالهم في ميادين القتال متنازعة، قد رغبوا عن

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص: ١٣٢.

(٣) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: ٧٣، ط: الاولى، دار المعارف، بمصر.

د. على عبد الحليم محمود، عالمية الدعوة الأسلامية، جـ: ٢ ص ٥٠٦ ط: الثانية، سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م الناشر: دار عكاظ للطباعة والنشر.

الحياة، وطيب اللذات»[1].

ويكفي أن نعرف: أن العربي لم يسمح بمرور قوافل أجنبية للتجارة في أرضه، إلا تحت أسرته، وبعد موافقته، ولقد كان لأيام العرب التي نشبت قبيل ظهور الدعوة، واستمرت طويلاً، في أماكن متعددة، أثر في تكوين العرب على الشجاعة والتحمل، وقبول المخاطر.

وان الجيل الذي عاصر ظهور الدعوة، هو: الجيل الذي ولد ونشأ، بين حديث الدم، وصوت الرياح، ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحة في تخريج رجال الدعوة الاقوياء[2].

ثالثاً: وما تمتع به العرب من صفات أهلتهم لأن يكونوا الأمة الأولى للدعوة الأسلامية: ما تمتعوا به من ملامح العلم في القول والعمل فقد العرب أقرب للعلم من غيرهم، «لأن الحلم امساك النفس عن هيجان الغضب، كما آن التحلم: إمساكها عن قضاء الوطر، والحلم من آثار العقل، وغير منفك عنه»[3].

وما الكناية في كلام العرب، ولغتهم، إلا حساسية مرهفة، وصيانة للسان من القول البذيء، يستعان بها في الأسلوب، عوضاً عن التصريح بالقبح وما يستكره[4] وقد كان عندهم كلمة يقولونها في مواطن الثورة والغضب، فيسكن الغضب، وتهدأ الثورة، هذه الكلمة هي: (إذا ملكت فاسجع)[5] ومن حلمهم العملي: ما روى أن قيس بن عاصم المنقري كان يحدث أصحابه يوماً. وهو جالس حبواً، فجاؤوا بابن

---

(١) الألوسي البغدادى، بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب، ص: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٠٧.
(٣) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص: ٩٩.
(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٠٧.
(٥) أي: اذا ظفرت فأحسن، وإذا قدرت فسهل واحسن العفو. الالوسي، بلوغ الأرب، ص: ١٠١.
ابن منظور، لسان العرب، جـ: ١، ص: ١٠٢.

له قتيل، وابن عم له كتيف، فقالوا: «ان هذا قتل ابنك هذا». فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته. ولما فرغ من حديثه التفت إليهم، وقال: أين ابني فلان فجاء. فقال: يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، والى أم القتيل فاعطها مائة ناقة، فإنها غريبة. لعلها تسلو عنه[1].

رابعاً: ومما اتصف به العرب وتمتعوا به: الوفاء، وهو يعد دليلاً على سمو نفسياتهم، واستقامة شجاعتهم، واعتدال حياتهم، فما نقضوا عهداً، أو خالفوا وعداً، وكانوا يرون: أن الغدر من كبائر الذنوب، فحكموا بذلك قوتهم وسيطرتهم على أنفسهم[2]، فمع الشجاعة في العرب كان الحلم الواسع، والوفاء الرائع. وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل في موضعها، وتظهر حين يستدعيها المقام، ولا تبدو في تهور أو طغيان، وانما تكون حماية للشرف، وصيانة للمنزلة والعز والسلام[3].

وان اجتماع الشجاعة، والحلم، والوفاء في أمة، يجعلها بعيدة عن الاستذلال، وعن الاعتداء، وعن الضرر، واذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة، ونالوا التقدير، واستحقوا التصديق في كل ما يقولون[4].

وهكذا كان العرب الأمة التي ظهرت فيها الدعوة، فحملتها الى الناس في كل أرجاء الأرض، تصحبهم ثقة الناس فيهم، ومعهم في كل مكان التقدير والتصديق والآمان.

خامساً: لقد كان العرب أكمل الناس في الفهم، وكانوا لا يبارون قوة ذكاء، واصابة حدس، وحدة ألمعية، وصدق فراسة، يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم، كأن قد شاهدوه، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يروه[5].

---

(١) الألوسي، بلوغ الأرب، جـ: ١، ص: ١٠٢.
(٢) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٠٨.
(٣) د. احمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص: ١٠٧.
(٤) السابق، ص: ١٠٨.
(٥) الالوسي، بلوغ الأرب، جـ: ١، ص: ١٩.

سادساً: كذلك قد تمتع العرب بفكر عقلي متقدم، جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب، فجميعهم أقر بالإله الأعظم، الذي يعلو كافة الالهة التي هي وسطاؤهم عنده، وشفعاؤهم إليه (1).

وتعد ظاهرة الحنفاء: دليلاً على مستوى التقدم العقلي عند العرب، فقد خطب الحنفاء في المجتمعات بأفكارهم، ولم يقف في وجههم عربي، بل ان المشركين العرب، كانوا يعتزون ببقايا دين ابراهيم ـ عليه السلام ـ ويعدون خدمة البيت، وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم (2).

ويبدو سمو العرب جميعاً في فكرتهم عن الاله الأعظم، حين نقارنهم بسائر الامم في ايجاز، ذلك لأننا نرى الروم برغم أن المسيحية دين التوحيد، فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد، واشتغل مفكروها بفلسفات جوفاء عقدت الدين، وجردته من بساطته، وجعلت العامة في حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة لذات المسيح، أو الطبيعتين، وقدسية العذراء، وبشريتها، الى غير ذلك (3).

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة، لا يجمعها إلا الايمان بعنصرية جنس مقدس، هو العنصر اليهودي، ولا يوحدها إلا شعار الخداع لكل البشر، ما عدا اليهود (4).

والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة، على أساس أنهما رمزان للخير والشر، أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما إلهان اثنان ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية (5).

---

(1) د. محمد رشاد خليل، ملامح من دور الأسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية، ص: ٦٠٧، ط: الأولى، سنة: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

(2) د. احمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص: ١٠٨.

(3) المصدز السابق، ص: ١٠٩.

(4) المصدر السابق.

(5) المصدر السابق.

سابعاً: من الصفات التي تميز بها العرب: انهم أحفظ من غيرهم، فحفظوا على سبيل التفصيل أيام حروبهم ووقائعهم، وما قيل فيها من شعـر وخطب[1]. وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة، ومع مر الأيام، صار الحفظ ملكة لديهم، توارثوها جيلاً عن جيل[2].

فالدعوة الاسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية، اذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية اذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا، فنشطتها وسعت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجـد العرب أنفسهم بعـد الاسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الاسلامية، ويعطون شجاعتهم وامكاناتهم لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي خدمة دعوته، فتحركوا الى كل مكان من أجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم، وأصبح تعصبهم اندفاعاً لتنفيذ أوامر الدعوة الاسلامية وتعاليمها.

وهذه «الصفات التي أتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغيـر شك، على أن ينجحوا في نشر الدين، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله، ولكن بعد أن هذب الاسلام من أخلاقهم، وأصلح من عيوبهم، وحال بينهم، وبين كثير، من الشرور التي كانوا عليها... في جاهليتهم»[3].

وهكذا وضح السر في اختيار الأمة العربية، لتظهر الدعوة الاسلامية فيها أولاً. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب. جـ: ١، ص: ٣٨.

(٢) لمعرفة المزيد من خصائص وصفات العرب، انظر: عبد الرحمن الكـواكبي، أم القرى، وهو: ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية، ط: الثـانية، سنـة: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م، طبع ونشر: دار الرائد العربي، بيروت.

(٣) د. على عبد الحليم محمود، الدعوة الأسلامية، جـ :٢، ص: ٥٠٧.

عناية الله في اختيار المكان
لظهور الاسلام

عناية الله في اختيار المكان لظهور الإسلام

من دلائل الحكمة الآلهية العليا: أنه ـ سبحانه ـ لما اختار مكة لتكون أماً لبلاد العالم، واختار مسجدها ليكون أول بيت وضع للناس، فقد هيأ بيئتها، ومناخها وطبيعتها، لتكون أصلح مكان في الأرض، لبناء وثبات عقيدة الإسلام العالمية[1].

وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة، فأحاطوها بما يليق بها من حب وعناية وتقدير، فهي عندهم (أم القرى) وأصل المدائن، وبها الكعبة المشرفة، التي تحمل في ثناياها ذكرى ابراهيم ـ عليه السلام ـ وترمز إلى الخير المبارك من الله ـ تعالى ـ[2].

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة تتضمن: أن العرب بسبب الكعبة في أمن وشبع، لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببني إسرائيل، وجرهم وهم في مكة، تفسحوا في البلاد، وأخذوا معهم بعضاً من حجارة الحرم يعظمونه، ويلتمسون فيه الخير، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة[3].

وتذكر كتب السيرة: أن العرب كانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع في مكة، إلا وتنزل العقوبة بالظالم أياً كان[4]، وما أراد مكة أحد بسوء إلا أهلكه الله[5].

---

(١) عبد القادر احمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة، ص: ١٤، ط:دار العلوم للطباعة بالقاهرة، سنة: ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٧٦.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، جـ: ١، ص: ٤٦، ط: الثانية، ١٣٥٢ هـ الناشر: المطبعة الماجدية.

(٤) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٧٦.

(٥) فؤاد على رضا، أم القرى، مكة المكرمة، ص : ١١٧.

وكثيراً ما حذر العرب حكماؤهم، لهذا يقول أحدهم: «أياكم والالحاد فيه (الحرم) فانه بوار، وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط، فظلم فيه وألحد، الا قطع الله ـ عز وجل ـ دابرهم، واستأصل شأفتهم»[1].

وكان العرب جميعاً في الجزيرة العربية، يعرفون لمكة، وللكعبة هذه المكانة، فيحيطونها بالجلال والتقدير، ويذكرون دائماً ان أهل مكة أهل الله، ولم يندهشوا كثيراً يوم هلك (أبرهة) وجيشه في مكة بل قالوا: أهل الله دافع الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم[2].

كان هذا التقدير لمكة، أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة، كما أن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية على العموم، ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وابلاغها. . . ومما يجدر أن نتنبه له أن هناك بعض الخصائص التي يحسن عرضها، لنلتمس من معرفتها: الحكمة التي كانت من وراء اختيار المكان لظهور الدعوة. ويمكن عرض الخصائص على النحو الآتي:

أولاً: أن آخر ما وصل إليه العلم في الدراسات التي قامت بها أقسام المساحة التصويرية بمراكز البحوث، والتي استخدمت فيها الأجهزة الالكترونية، والآلات الإحصائية، والحسابات الرياضية، والمنحنيات الاعتبارية لخطوط الطول والعرض، والتي استهدفت تعيين مواقيت الصلاة في أي زمان وأي مكان، على سطح الأرض، لجميع أيام السنة، هو أن (أم القرى) هي وسط اليابسة في الكرة الأرضية تماماً، وأن الكعبة الشريفة لذلك هي المركز تحديداً، ولأن الأرض وهي تتحرك حول نفسها، وحول الشمس لا تنقلب على نفسها فإن هذا المركز لا يتغير،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ٤٨.
(٢) المصدر السابق.

وتستمر الكعبة المشرفة هي الوسط دائماً[1].

وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وهذا كتاب أَنْزَلْنَهُ مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها. . .﴾[2].

وقال تعالى: ﴿زكذلك أوحينا إليك قرءانا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾[3] وأم القرى: أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الأسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت، ومقام إبراهيم. والعرب تسمى أصل كل شيء: أم، ومن حولها من أهل البدو والحضر[4] ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم[5]. وسائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة (أم القرى)، لأنها أشرف من سائر البلاد[6]. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله الى الله﴾[7].

يقول السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفي التفسير أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما قال للسموات والأرض: ﴿. . . ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[8] لم يجبه بهذا إلا أرض الحرم﴾[9].

ويقال ـ استناداً إلى روايات ـ: ان موضع البيت أول بقعة وضعت من الأرض. فقد روى البيهقي في الشعب عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ،

---

(١) د. عبد الرزاق، أم القرى مركز الوسط الأمين. مقال بسجله: العرب المجلد: ٥١، العددان: رجب وشعبان، سنة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م ص: ٤١، الباكستان.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٢.

(٣) سورة الشورى، آية: ٧.

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير، المجلد: ١٤. ص: ١٤٨.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٢٩٤.

(٦) المصدر السابق جـ: ٧، ص: ١٧٩.

(٧) ـ رواه احمد في مسنده، جـ: ٤، ص: ٣٠٥.

ـ ورواه الترمذي، في صحيحه، كتاب/المناقب، باب فضل مكة، جـ: ٥، ص: ٧٢٢ وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٨) سورة فصلت، آية: ١١.

(٩) السهيلي، الروض الأنف، جـ: ١، ص: ١٢٨.

قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت، ثم مدت منها الارض، وان أول جبل وضعه الله ـ تعالى ـ على وجه الأرض أبو قبيس[1]، ثم مدت منه الجبال»[2].

وليس في الوجود كله مكان حظى بالشرف والطهر والمكانة في ضمير الانسانية عبر أجيالها وعصورها المتعاقبة كما حظي المسجد الحرام ومن ثم جمل التاريخ به، واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره في دنيا الناس.

قال تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً. . .)[3].

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت في تلك البقعة، التي سماها الله: المسجد الحرام، وسماها: البيت العتيق. فأي مسجد ذاك؟ وأي بيت هو؟

هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة والبيتية في قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت قول وجهك شطر المسجد الحرام. . .﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس. . .﴾[4] وقوله تعالى: ﴿. . . وليطوفوا بالبيت العتيق) [5].

وان في وصفه بالعتاقة لايذاناً بالأصالة في الشرف، وتأكيداً بأنه أول بيت وضع في الأرض للعبادة.

فالبيت الحرام: هو النقطة الوحيدة التي تميزت دون سائر بقاع الدنيا،

---

(١) أبو قيس، هو: الجبل الشرقي المشرف على الصفا.
الأزرقي: أخبار مكة، جـ: ٢، ص: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٢) رواه البيهقي، في شعب الإيمان، عن ابن عباس، ولم ينسبه للسيوطي في الدر المستور، جـ: ٢، ص: ٢٦٦ الا اليه.
(٣) سورة آل عمران، الإيتان: ٩٦ ـ ٩٧. (٤) سورة البقرة، آية ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٤) سورة المائدة، آية: ٩٧.
(٥) سورة الحج، آية: ٢٩.

وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق، وتغلغل في أعماقها جوهر التوحيد، وكأنها تفردت لتمثل بؤرة للضوء، صالحة لإشعاع الهداية في الضمير الانساني[1].

ثانياً: فإن البحث الموضوعي يبرز لهذه البيئة، مقومات لم تكن متوفرة في غيرها من بيئات العالم القديم، وان كانت لها ـ كأي بيئة أخرى ـ مشكلاتها التي ينبغي عليها أن تقابلها.

فلقد كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم القديم. كانت مفتوحة على إفريقيا من الجنوب الغربي، والشمال الغربي، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر، ومضيق باب المندب، وخليج عدن، وبحر العرب، وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ، وكانت على صلة بأرض الروم في ديار الشام وقتئذ، وما وراءها في الغرب والشمال الغربي، وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها براً وبحراً الى قلب آسيا، وأقطارها الموسمية في الجنوب والشرق[2].

ولهذا تعد الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي سرة العالم لانها تقع في وسطه، وتتصل بكل اجزائه واقاليمه. ففي شرقها: توجد الدولة الفارسية، وفي شمالها: توجد الدولة الرومانية، وفي غربها: توجد مصر والحبشة، وفي جنوبها: توجد الهند، وغيرها. وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار: أن العربي كان على خير كامل بشعابها، وطرق مواصلاتها[3].

---

(١) د. احمد عبد الرحيم السايح، مكانة الحرمين في الاسلام، بحث ألقى بمؤتمر قدسية الحرمين، الذي عقد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة، من: ٢٣ ـ ٢٥ ربيع الأول، سنة: ١٤٠٨ هـ الموافق: ١٥ ـ ١٧ نوفمبر سنة: ١٩٨٧ م وقد نشرته مجلة الجندي المسلم في العدد الرابع والخمسين، ص: ٢٤ ـ ٢٩، الصادرة في شهر ذي الحجة، سنة ١٤٠٩ هـ ـ الموافق: يوليو ١٩٨٩ م من السنة السادس عشر.

(٢) د. عبد العزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ:١، ص ٦٣٢، من البحوث والدراسات التي قدمت لمؤتمر السيرة والسنة الثالث الذي عقد بقطر.

(٣) عطية صقر، الدعوة الأسلامية دعوة عالمية، ص: ٩٨ ـ ٩٩، ط: الأولى مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، سنة: ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

وقد انعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها، فكـانت من أنسب الاماكن وقتئذ، ان لم تكن أنسبها جميعاً للقاء السلمي، والتعايش بين البشر، كانت ـ ايضاً ـ وسطاً من حيث المكان، ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية، كالشرق الأقصى، أو جنوب أفريقيا، أو غرب أوربا[٢].

ثالثاً: تقع مكة والحجاز بوجه عام في نطاق منطقة الحرارة القصوى ويرجع الجغرافيون ذلك إلى: أن قسماً كبيراً من الجزيرة العربية يقع في منـطقة الـزهو المدارية، ذات الضغط العالي، والمطر القليل، والقسم الآخر يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت الى الجنوب[٣].

ولقد أدى هذا الوضع: إلى حالة جدب شديدة، نشأت من قلة المطر، وندرة سقوطه، لدرجة أنه لا يسقط المطر في بعض اماكن الجزيرة الا كل ثلاث سنوات، أو أربع، وبجانب قلة المطر لا توجد انهار في الجزيرة تمد الأرض بالري، وتعطي للناس معاشهم وأسباب الحياة، هذا الجدب الصعب جعـل الناس يتجهـون إلى السماء، ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء[٤].

وقد ذكر الباحثون: أن العرب تأتيهم الأمطار في أوقات، وتنقطع عنهم في غيرها، فكانوا لذلك شديدي التعلق بهـا، وتراهم كثيـراً ما يقلبـون وجوههم في السماء، وذلك من أعظم المذكرات التي تذكرهم بالله وحاجاتهم إليه[٥].

رابعاً: فان حالة الجدب ـ المذكورة ـ جعلت الغالبية في العرب بعيدة عن الترف والنعيم، منغمسة في الفقر والحاجة، وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٨٢.
(٢) د. عبد العزيز كامل، الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ: ١، ص: ٦٣٢.
(٣) د. يوسف خلف، الشعراء الصعاليك... ص: ٦٢.
(٤) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٧٧٧.
(٥) علوى بن طاهر الحداد، القول الفصل فيما لبني هاشم وقريش والعرب من الفضل، جـ: ٢، ص: ١٤٦، ط: الأولى، الجزائر، سنة: ١٣٤٤ هـ.

قليلة العــدد، مشهـورة بـالاستعـلاء على النـاس، والاستغـلال لبقيـة الفقـراء والمحتاجين، وكان من مفاسدها: أن نشرت الربا الفاحش بمكة، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلي. وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ـ وهـو ينهي المؤمنين عنه ـ: ﴿يأيها الذين أمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[1].

يقول المفسرون: كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله، زاد في الأجـل، حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله[2] وأيضاً: فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشؤون الاقتصادية بها، فاشتروا الرقيق واستعبدوا الفقراء في توجيه قوافل التجارة الضخمة، وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائياً لدعوة عادلة، قائمة على المساواة، وتحريم الظلم واحساس الفرد أياً كان، ويندفعون الى مساعدة هذه الدعوة التي تمنوها لخلاصهم، واستشعروها من قبل، في أنفسهم وخيالاتهم.

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة، ويتدبرونها... أما المترفون الأثرياء، فهم أعداء كل إصلاح، وهم معارضون للرسالات دائماً، حفاظـاً على وضعيتهم واستغلالهم[3]. لكن سرعان ما انهارت الطبقة المترفة أمام الدعوة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح.

يقول ابن خلدون: «إن الترف يبدو في بدايته قوة، لكنه في النهاية ضعف يمضي ولا أثر له»[4].

والمعروف عند الناس: أن الترف مفسدة، وانه يميل بالقوى الى الدعوة، لما يتعود عليه أبناء الترف من حياة راغدة لينة[5].

---

(١) سورة آل عمران، إية رقم ١٣٠.
(٢) الزمخشري، الكشاف، جـ: ١ ص: ٤٦٣.
(٣) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٧٩.
(٤) ابن خلدون، المقدمة. ص: ٤٩٢.
(٥) فؤاد على رضا، أم القرى، مكة المكرمة، ص: ١١٥.

خامساً: لقد أدى هذا الجدب ـ الذي أشرنا اليه ـ بالعرب وأهل مكة، الى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش، فكانت التجارة، وقد نظموها في رحلتين:

إحداهما: إلى الشمال صيفاً.

وثانيهما: إلى الجنوب في اثناء الشتاء.

وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش، خلال جولات التجارة: أن أخذوا كثيراً من نظمهم، ونقلوها إلى الجزئرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد[1].

ويلاحظ أن مكة ضمت العدد العديد، من الملل والاعراف، بسبب وقوفها في مكان تلتقي فيه جميع الطرق الاتية من كل الجهات، فالطريق الغربي الذي يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهي عند تيماء، يمر بمكة. والطريق الشرقي الذي يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهي عند صور بلبنان يتصل بمكة بواسطة طريق عرضي يبدأ من مكة، وينتهي عند القطيف. وتتصل مكة ـ أيضاً ـ بالبحر الأحمر عن طريق مينائها جدة، وبذلك كانت مكة معبراً رئيساً للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فتأثرت بأوضاعهم[2].

وهذا الامر ساعد على وضع الأسس الاصلاحية التي لا تختلف من مكان الى مكان، وتناسب كل الأجناس، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها.

سادساً: ان البيئة المكية بيئة طاردة نافية لمن يقيم فيها، ويدل على هذا المعنى: تسمية مكة (بكة) في القرآن. وهو اسم مشتق من البك، وهو الطرد والنفي، سميت بذلك، لأنها تبك المقيمين فيها. وتدفعهم إلى غيرها من البلدان والأقطار[3].

---

(١) د. احمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص: ٨٠.

(٢) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك...، ص: ١٢٥.

(٣) عبد القادر احمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة، ص: ١٥.

وانما كانت مكة طاردة، لقسوة الحياة فيها، في الأحقاب البعيدة من التاريخ، فقد وصفها ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يودع ولده اسماعيل، وأمه هاجر عند البيت الحرام، قائلاً: (ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم...)[1] فهي بيئة مقفرة متحجرة الارض، كثيرة الجبال، ملتهبة الجو، منخفضة المكن، تحيط بها الجبال من كل جهاتها، فإذا تسعرت الشمس، كانت نيرانها مسلطة على مكة من كل أقطارها، فالصخور على ارضها، ومن حولها تلفح الاجساد، إلى جانب اللهب المسلط على أهلها، من أشعة الشمس المباشرة لرؤوسهم من فوق، فلا ماء، ولا زرع، ولا ثمر. ومن ثم فلم تكن مكة بلداً يهاجر إليها الغريب، إلا لأسباب مادية بحتة. أما قريش: فقد كان منصبها اللغوي والديني سبباً رئيسياً في بقائها في مكة[2]

فالمادة وحدها، أو الضرورة وحدها، هي التي كانت تتحكم في بقاء سكان مكة في مكة، في تلك الأيام البعيدة، أما أن تكون مكة أرضاً صالحة لنماء الافكار الانسانية، وتفاعلها مع غيرها من الأفكار الفلسفية التي كانت في تلك العصر، فهذا شيء أبعد ما يكون في التصور وفي الواقع، فالفكر ـ ولا سيما الفلسفة ـ لا يمكن ان ينمو الا في بيئة مستقرة ورفيقة بالانسان[3].

سابعاً: لقد فرضت الصحراء على العرب طباعاً وأخلاقاً خاصة تناسبهم، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة، وصارت لهم عنواناً بين الناس، وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحاً من الزمن، ونستطيع أن نزعم بأن تلك الحياة الجاهلية الضنكة، والحروب التي اشتعلت، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده... فنشأت وتكونت

---

(١) سورة ابراهيم، آية رقم ٣٧.

(٢) عبد القادر احمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة؟ ص: ١٥ ـ ١٦.

(٣) السابق، ص: ١٦، بتصرف.

مجموعة من القيم والمثل، تعارف عليها المجتمع، وآمن بها، واحترمها، والتزم بها[1].

ثامناً: فان التأخر الاقتصادي في الجزيرة تسبب في وجود طبقة عرفت بطبقة الصعاليك، وقد اتخذت هذه الطبقة لنفسها مراكز في الخلاء الواسع[2]. ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة حتى مع وجود موارد التجارة... ومن هنا: نستطيع فهم السبب في الهجرات[3] التي خرجت من الجزيرة العربية في أفواج متتابعة، الا أن ثقل القوة في العالم، وتمركزها آنذاك في دولتي الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية، حبست القبائل في مكانها، الأمر الذي أدى الى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة، فقامت المنازعات المتكررة بينهم، وقد استفادت الدعوة الاسلامية من هذا الوضع، فلم تصطدم بتكتل واحد، يطغى بقوته، بل كان هناك دائماً صوت مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القبائل اثناء ضعف المسلمين وقلتهم، واستفادت

---

(١) د. عفيف عبد الرحمن، المثل والقيم، ص: ١٢٧، من مجلة: مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد: ١٣ ـ ١٤، ذو الحجة، ط: الأردن.

(٢) د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: ١٣٤.

(٣) أما هجرات الفتوحات الاسلامية: فقد كانت اسبابها ودوافعها تنطلق من الإيمان بالأسلام، وتبليغ الرسالة، وحباً في أن يكون كل مهاجر ينطبق عليه قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم». فهجرة الفتوحات الإسلامية غير الهجرات التي حدثت في الجزيرة العربية قبل الاسلام إذ أن الدوافع مختلفة. واثبتت الدراسات: أن هجرة المسلمين لتبلغ الأسلام لم تكن اسبابها اقتصادية، بدليل، العربي الذي كان له ثراء عريض في مكة، وهو: (ضمرة بن جندب) جينما علم بهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة المنورة، قال: احملوني اليه، وكان مريضاً لا يستطيع المشي، وقد حملوه حتى مات في الطريق، واختلف اهل المدينة في شأنه، فنزل قوله تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الاض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾. سورة النساء، آية: ١٠٠، وبهذا لا تنسحب هذه الهجرات على هجرة المسلمين، لنشر الأسلام وتبليغه في كافة أصقاع المعمورة فيما بعد. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج: ٢، ص ٣٤٦ ـ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٦١.

الدعوة كذلك بأن صفت ما بين العرب من خلاف، وازالت الاضطرابات الموجودة فيهم، فتوحدوا.

تاسعاً: يرى كثير من أهل الدراسة: أن الجزيرة العربية أحيطت بحواجز طبيعية منيعة، اذ وجدت المياه في ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات وسهولاً في الشمال. وهي حواجز تحتاج في عبورها الى تدريس وتمرس شاق، ما يتعلمها العربي الا لحاجته، أما غيره: فليس له الى ذلك حاجة... وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوي أمام المجموعات الغازية، من الفرس أو الروم[1].

وقد ترتب على ذلك: ان الغزاة لم يستطيعوا الوصول الى سرة الجزيرة العربية، فاحتفظ العربي بسجيته وفطرته، ولم تداخله تناقضات الفكر، ولا متاهات الفلسفة والجدل.

ولو قارنا سائر الأماكن، بالمكان الذي اختير لظهور الدعوة الاسلامية، لوجدنا تلك الأماكن غير صالحة، لأن تظهر الدعوة فيها.. فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية، استعملت في العنف والقسوة، كما ان سائر الامم في هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها... ولم يحدث ان جمعت واحدة منها ما جمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد. كما أن كافة الهيئات حرمت أبناءها من النشاط الذي اكتسبه العربي، بسبب خصائص بيئته، وأيضاً: فان النزعة الدينية كانت راقية عند العرب، بسبب مكة (ام القرى)، والكعبة، كما أن الجزيرة العربية تقع في وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز[2].

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة الاسلامية، أحاطه الله بمجموعة من الظروف البيئية، جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الاسلامية[3].

---

(١) د. احمد غلوش، الدعوة اللاسلامية، ص: ٨٢.
(٢) محمد حسنين هيكل، حياة محمد، ص: ٧١، ط: السابعة، دار القلم، بيروت.
(٣) د. أحمد غلوش الدعوة الأسلامية، ص: ٨٥.

عناية الله في اختيار الزمان لظهور الاسلام



عناية الله في اختيار الزمان لظهور الاسلام

ان عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي تجلت في اختيار المكان الاول لظهور الدعوة، تدفع بالباحث والمفكر الى تلمس بعض مميزات الزمان، الذي ظهرت فيه الدعوة الاسلامية، للوقوف على بيان فضل الله وكمال عنايته ـ جل شأنه ـ.

ففي أوائل القرن السابع، وعلى حين فترة من الرسل، ظهرت الدعوة الاسلامية، هداية للناس أجمعين... وأول ما يطالع الباحث في الاشارة الى عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ: قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «بعثت من خير قرون بني آدم، قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»[1].

والمراد بالبعث ـ كما يقول العلماء ـ: «تقلبه في أصلب الآباء من الأبعد الى الأقرب فالأقرب[2].

ولا يخفى على أحد: أن العلم يتعلق بسائر الحيثيات التي تحتاجها الدعوة، لكي تصل الى هدفها، ومن بين هذه الحيثيات المختارة؛ الزمن الذي ظهرت فيه الدعوة، اذ لم يكن العالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء، ولا يقال فيها بالاجمال، الا أنها حالة فساد وانحلال. فلا حالة للعلم، ولا للسياسة، ولا

---

(١) رواه البخاري، في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، جـ: ٦، ص: ٥٦٦.
ورواه احمد، في المسند، جـ: ٢، ص: ٣٧٣ ـ ٤١٧.
ورواه ابن سعد، في الطبقات الكبرى ج: ١، ص: ٢٥.

(٢) أبو الطيب البخاري، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري جـ: ٥، ص: ٣٧، ط: مطابع قطر الوطنية، سنة: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

للاخلاق، ولا للمرافق العامة، لا توصف بتلك الصفة، الا وتغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات.

وإذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها، وجدنا أنها هي الأحوال التي تنادى في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية.

إن ظاهرة واحدة، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها وهي فقدان الثقة بكل شيء، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة، إلا أن الثقة هي المطلوبة، وأن الايمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان[1].

الحالة الدينية:

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد الى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة، من الكفر، والجهل، والفجور، وغير الناس، وبدلوا في الدين، وحرفوا كثيراً مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى. فالبوذيون كانوا يعبدون «بوذا» والهندوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار. وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وامم تعبد الصور والتماثيل، وأمم تعبد آثار الموتى، وأرواحهم. وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها، منهم: من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم: من يعبد الحجارة[2]، ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء.. الآية﴾[3]. ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله... الآية﴾[4] وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيعاً، واشتد بينهم الخلاف والجدل، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام، وشاعت الإباحية والفوضى،

---

(١) العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ: ٧، ص: ٢٣٦، ط: دار الكتاب اللبناني، سنة: ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م.

(٢) محمود الحسيني، الدين المقارن، ص: ١٤٣.

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١١٣.

(٤) سورة التوبة الآية رقم ٣٠.

وارتكبت الفواحش باسم الدين[1]. و﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾[2].

وكان العرب أسوأ الناس حالاً، وأشدهم إمعاناً في الجهالة والضلالة، فقد أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، وعبدوا العديد من الاصنام والاوثان والانصاب والتماثيل، والاشجار، وكثبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن، واعتقدوا ان الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف في أمورهم، وفي مستقبل حياتهم، وكان أيمانهم بالله إيماناً مشوشاً مضطرباً، يعتقدون أنه الإله الاكبر، الذي يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون﴾[3].

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى، تخلى لها سبحانه عن بعض التصرفات كشفاء المرضى، ومنح الذرية، وانزال الغيث، وتصريف الرياح وابعاد المجاعة، وكشف الضر، وجلب الخير. وان هؤلاء الالهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم اليه في طلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، ويستشفعون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم، والعفو عنهم[4].

حالة الامبراطورية الرومانية:

إذا ذهب الباحث الى البلاد المجاورة للبلاد العربية، ليتعرف على أحوالها قبل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فلا يجد الا اضطراباً سياسياً، شاملاً، وفوضى دينية عامة، وانحلالاً اجتماعياً فاشياً.

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي مفككة الأوصال،

---

(١) امين دويدار، صور من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص: ١٠٦، ط: الأولى، القاهرة.

(٢) سورة الروم الآية رقم ٤١.

(٣) العنكبوت آية: ٦١.

(٤) أمين دويدار: صور من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص: ١٠٧.

وكانت قد قسمت إلى امبراطوريتين: امبراطورية شرقية عاصمتها: القسطنطينية، وامبراطورية غربية، عاصمتها: رومية. وكانت علامات الضعف وامارات التفرق، بادية في كل من الامبراطوريتين. وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية، والفرق الدينية[1].

لقد حل الدمار بالامبراطورية الرومانية، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت حضارتها قائمة على اكتاف الفقراء، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء، فتاريخ هذه الدولة عبارة عن: اهمال وفساد، واختلال، وهرج، ومرج، وفوضى عمت جميع فروع الحكومة، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة، وفتكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر، وأخضعها محبو الظهور، من رجال الجندية، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية[2].

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية في جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية، فقد حال النظام القائم في تلك الجهات، دون حرية التفكير، وحرية الحكم على الأعمال، ولم يتورع أصحاب أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه، أن يشوهوا وجه العصر، ويجعلوه عصر اضطهاد وازهاق للارواح، وذبح كل ثائر او خارج على الكنيسة الرسمية[3].

يضاف الى ذلك: أنه لم تبق نحلة ـ في هذه الامبراطورية ـ من النحل الكثيرة، إلا حكمت على مناقضيها بالمروق، وتعددت هذه النحل بين «الأريوسية»، و«النسطورية»، و«اليعقوبية»، و«الملكائية». على تباعد الأقوال في الطبيعة الالهية، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها. ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية،

---

(١) حامد عبد القادر، الاسلام وظهوره، ص: ٧٥، ٧٦.
عمر رضا كحالة، العالم الأسلامي، جـ: ١، ص: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ)، ص: ٣٥، ط: وزارة الأوقاف المصرية، سلسلة مكتب الأمام رقم ٥٢، ربيع الأول، سنة ١٣٨٩ هـ.

(٣) حامد عبد القادر، الاسلام وظهورة، ص: ٨٠.

فيقضي على البقية من الثقة والطمأنينة، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بعيداً من الجدل والاتهام[1].

حالة الامبراطورية الفارسية:

لم تكن الامبراطورية الفارسية قبل ظهور الاسلام، بأوفر حظاً، ولا أحسن حالاً، من الامبراطورية الرومانية، فقد كانت في حروب دائمة داخلية وخارجية، وكانت تنافس الامبراطورية الرومانية، في امتلاك آسيا، وبسط النفوذ على سكانها، وكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون اموالهم، وأحياناً كانت تدور الدائرة على الفرس، فيغلبهم الروم، ويقتلون منهم، ويأسرون، ويخربون ديارهم، ويضمون أملاكهم الى املاكهم،وكذلك كان القياصرة والأكاسرة متنازعين، لا يكفون عن المقاتلة إلا قليلاً[2].

وفي أوائل القرن السابع الميلادي: اشتبكت الامبراطوريتان الفارسية والرومانية في حروب، كانت سبباً في ضعفهما معاً، وضعف فارس بوجه خاص[3].

وفي الفترة التالية، حدثت بفارس اضطرابات، وفتن داخلية، وتنافس على العرش عدد من الاكاسرة، فكان الواحد منهم يولى، ثم يعزل، بعد مدة قصيرة، ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قلائل. وذلك بتدخل الجنود، ورجال الحرس الامبراطوري، الذين أطلقوا أيديهم، وكانوا أصحاب التصرف المطلق، في شؤون الدولة، فكانوا هم الذين يولون الاكاسرة، ويعزلونهم كما يشاءون، وبذلك سقطت هيبة الملك، وقلت قيمة العرش، وعمت الفوضى، وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية، الى درجة لا تطاق[4].

---

(١) العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ:٧، ص: ٢٤١.
عمر رضا كحالة، العالم الاسلامي (العرب بل الأسلام ـ البعثة المحمدية) جـ: ١. ص: ٩٨.
(٢) عمر رضا كحالة، العالم الأسلامي، جـ: ١، ص/١٠١.
المكتب الفني الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص: ٣٦.
(٣) المكتب الفني بوزارة الأوقاف، جوانب من حياة الرسول)، ص: ٣٦.
(٤) حامد عبد القادر، الاسلام وظهوره، ص: ٨٨.

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ ابن كسرى أنوشروان الذي حضر بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ففي عهد قباذ ظهر (مزدك) داعية الاباحية والفوضى، في الاموال والاعراض، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية الى التوحيد، أو ما يشابه التوحيد، وقال كما قال (ماني) من قبله: «أن العالم كله في قبضة الله إله النور، واله الظلام» غير أنه زاد عليه: ان النور يفعل بالقصد والاختيار، وان النور عالم حساس، والظلمة جاهلة عنها»[1].

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية، والمراسم الهيكلية، لم تزل عقيدتهم جميعاً في الأرواح والشياطين حائلاً بينهم وبين التوحيد، فإن موالاة الأرواح، ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار، عدا الإلهين الأقدمين: اله النور واله الظلام[2].

حالة الهند:

وأما في الهند، فقد انتشر مذهب إباحة النساء، بواسطة دعاة أقوياء «وقد بلغ من الفحش: أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في اللقاء الأول، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة، وكانت الأناشيد التي تنوء بالمنكرات والفضائح، تلقى في الاحتفالات العامة، فتمد مستمعيها من الغواية بأسباب، وتفتح لهم من الآثام كل باب»[3].

حالة بلاد العرب:

كانت حالة العرب قبل الاسلام طوائف متنازعة، وقبائل متباغضة وديانات متنافرة، ونحلاً متحاسدة، ولم تستطع اليهودية، ولا النصرانية - بالرغم من نشاط

---

(١) العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ: ٧، ص: ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق، الجزء نفسه، ص: ٢٣٨.

(٣) محمد جاد المولى، محمد المثل الكامل، ص: ٦٤، ط دار احياء الكتاب العربي، بمصر.

دعاتهما ـ أن تجمع شملهم، وتؤثر في نفوسهم، وكانت أطراف الجزيرة العربية، لقمة سائغة في أفواه المغيرين من الأجانب، فقوى نفوذ الأكاسرة في الحيرة، وما حولها، وظهر سلطان الروم في الشام وبلاد الغساسنة، ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن، وكان هؤلاء الاجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم، ومن يناصرهم من العرب فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله، وبريق دمه، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب[1].

وقد ظلت بلاد اليمن محلًّا للنزاع، ومسرحاً للقتال، قروناً متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية، وغير دينية، بين يهود خيبر، ونصارى الأحباش، ومجوس فارس[2] والأمة العربية كانت قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات. فخر كل قبيلة في قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبي نسائها، وسلب أموالها. . . تسوقها المطامع الى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات»[3].

ويضاف الى ما سبق: أن نظام حياة العرب، كان قائماً على الظلم ظلم القوي للضعيف، وتحكم القادر في العاجز، وكان اعتمادهم على القوة وحدها، فكانت الاغارة، والسلب، والنهب، والأخذ بالثأر، وحب الانتقام، هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها وبعض، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم المعتادة، وكانت مناقشة تافهة، تكفي لإشعال حرب طاحنة، وثارات يتوارثها الخلف عن السلف، وكان القتال إذا اشتعلت ناره، دام عدة سنين، وقد يدوم عشرات السنين، حتى غدا تاريخهم في الجاهلية، سلسلة من الحروب الداخلية، لا تكاد تنتهي، ولم يكن لهم نظام جامع، ولا حكومة موحدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها، مستقلة في نظامها، وتقاليدها، وأحكامها[4].

---

(١) حامد عبد القادر، الأسلام وظهوره، ص: ٧٧.
(٢) المكتب الفني بوازرة الأوقاف (جوانب حياة الرسول) ص: ٣٧.
(٣) محمد عبده، رسالة التوحي، ص: ١٨٠، ط: دار الهلال، سنة: ١٢٨٢ هـ.
(٤) امين دويدار، صور من حياة الرسول، ص: ١٢.

ومن مظاهر الظلم في حياة العرب: أن المرأة عندهم، لا تكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به. . . ﴾[1].

ولعل الابيات الثلاثة التالية لاحدى البدويات، تعبر تماماً عن هذه الحالة، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها، فامتنع من المجيء الى بيته، وأقام عند الجيران، إشمئزازاً، فقالت زوجته معتذرة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يقيم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا	والله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالارض للحارثينا	ننبت ما قد غرسوه فينا[2]

تستقبل شر استقبال، تورث، ولا ترث، وتملك ولا تملك، وكان البعض القليل ممن يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه[3] إلى غير ذلك من مظاهر الظلم، والاستبداد، والاذلال، وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن، ومظنة العار والفقر[4].

تلك أحوال كانت في العرب والروم والفرس وغيرهم، وهذه الأحوال التي عرضنا لها بإيجاز، كانت مقدمات، والمقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء، ولكنها مقدمات العناية الألهية التي تدبر الدواء للداء المستحكم

---

(١) سورة النحل، الأيتان: ٥٨ ـ ٥٩.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٣، ص: ٤٨٢، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه: أحمد امين، أحمد الزين، ابراهيم الأبياري، ط: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة سنة: ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م.
الجاحظ، البيان والتبيين، جـ: ١، ص: ١٨٦، ط: مصر، سنة ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م.
د. نايف محمود معروف، طرائف ونوادر من عيون التراث العربي، الكتاب الأول، ص: ١٨٣ ـ ١٧٤، ط : دار النفائس.
(٣) صبري عبد الرؤوف، وأحمد السايح، المرأة المسلمة وقضايا العصر، ص: ٥، ط: الأولى، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، سنة: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.
(٤) امين دويدار، صور من حياة الرسول، ص: ١١٢.

على غير انتظار وبغير حسبان، عالم اذا صح أن يقال عنه: أنه كان ينتظر شيئاً من وراء الغيب، فأنما كان ينتظر عناية الله.

واذا كنا عرضنا لاحوال العرب والفرس والروم والهنود، فانه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذي ظهرت فيه الدعوة الاسلامية. والدراسة والبحث يقفان بنا الى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية:

أولاً: تعدد الصراع:

فقد ساد العالم في هذا الزمان صراع هام، فلم تخل أمة أو منطقة منه، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة، أو بينها وبين غيرها واهم ما تميز به هذا العصر: هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً، فمنهزم اليوم ينتصر غداً، وهكذا دواليك، من غير توقف وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي، أو اقتصادي، أو ديني، تبعاً لاختلاف البيئات.

ففي البيئة العربية، لم ينشأ صراع بسبب السلطة، خصوصاً بعد أن وزع (قصى) الأعمال بين القبائل، وجعلها فيهم وراثية وانما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان[1].

واذا ذهبنا نبحث عن الصراع في البيئة الرومانية، وجدنا أن الصراع ينحصر في الدين والسياسة، وفي الفرس كان الصراع هو الدين، وفي الحبشة كان السبب كذلك هو الدين، وفي الهند كان هو نظام الطبقات إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع، فإن هناك أسباباً كانت موجودة في سائر الامم، من امثال: ظاهرة الرق»[2].

لقد كانت دولتا العالم «دولة الفرس في الشرق، ودولة الرومان في الغرب، في تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة واموال هالكة»[3].

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٨٧.

(٢) د. أحمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص: ٨٧.

(٣) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٧٧.

ومما يذكر أن الصراع الداخلي ساد سائر الأمم، في الدولة الرومانية الشرقية فقد قامت ثورات عدة، أشهرها: ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم (جستنيان) سنة: ١٥٣٢ م، التي طالبت باقصاء وزير المالية، واجراء تعديلات كثيرة، وقد قضى «جستنيان» على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة، وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً[1].

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة، من أشهرها في بلاد الغال «فرنسا» إذ ظهر الصراع على أشده... وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس، الذي استمر مدة طويلة وكذلك حرب البسوس، وحرب حاطب بين الاوس والخزرج، وقد استمرت الى قبيل الاسلام[2].

ومع الصراع الاقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم، اذ اشتبكت الامبراطوريتان، الفارسية والرومانية، في حروب كانت سبباً في ضعفهما[3].

إن الصراع بكافة اشكاله وصوره، يؤدي حتماً الى تغيرات اجتماعية ومن المتغيرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع، ظهور قوى جديدة وبروز افراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة.

وقد استفادت الدعوة الاسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت في مكة ممثلة في الحنفاء والحكماء، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة.

ثانياً: تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات:

ان التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص، والهروب مما هي فيه. وذلك لأن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير، فبالذهن الصافي، تفهم التعاليم والأفكار،

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص: ٨٨.
(٢) المصدر السابق ص ٨٨.
(٣) حامد عبد القادر، الأسلام وظهوره، ص: ٨٩.

ويذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها، كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية، وخلاص للضعفاء، بدأت تأخذ وضعاً مطرداً.

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق إذ انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد، كما أنها لامست سائر حياة الناس، وعاشت في نفوسهم وأحلامهم، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة، على مستوى هذا الشمول وهذا العمق[1].

ومن هنا: فإن الانسان لا يعدو الحقيقة، حين يذكر: أن صراع ذاك العصر، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه، وجلت حكمة الله القدير ـ وحاشاه ـ ان يختار زماناً غير ملائم للدعوة، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود، لان الحقيقة الثابتة بكل اتقان ودقة، والمتعلقة بكل شيء تنبع من قوله تعالى: ﴿... وكل شيء عنده بمقدار﴾[2].

ثالثاً: النضج الفكري:

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس، حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الانسان أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده[3]. ولعل المراد من النضج العقلي المذكور: هو وصول الانسان الى التفكير الكلي المنظم، الذي يستنتج من المحسوس، ومن القضايا العقلية، أشياء أخرى غيرها، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا، القائم على التحليل والنقد، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة، ويحاول دائماً السمو الى العلا والتقدم، ذلك أن طفولة الانسان، كانت تقوم على

---

(١) د. أحمد غلوش الدعوة الأسلامية، ص: ٨٩، بتصرف.
(٢) سورة الرعد الآية رقم ٨.
(٣) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٢٢٥.

المحسوس فقط، اذ تبهر بالعجائب، وتسحر بالظواهر الخارقة[1].

فالنضج العقلي قد ساد العالم كله، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها، ففي العالم المسيحي الواسع، بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال: المناداة بألوهية المسيح، وتركيبه من طبيعتين مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة، القائل: ببشرية المسيح، وتكونه من طبيعة انسانية واحدة، وقد اختاره الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليكون رسولاً نبياً من قبل الاله الواحد، وأحاطه بالحواريين دفعاً إلى تصديقه في دعواه، وما دفعهم إلى هذا الرأي إلا عقلهم الذي ابى التصديق بما هو وهم وخيال[2].

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة «بوذا» على الهندوكية[3] في بعض تعاليمها، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالاخلاق، والعودة إلى الفطرة[4].

وفي الجزيرة العربية ـ وبالرغم من تعمق القوم في تقديس الاصنام وتعظيم الحجر ـ فإن النضج الذي اتسم به العصر، بدأ يظهر في العرب، اذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام[5].

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب، ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم، فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة الى دين يعرف بالخالق

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٩١.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣) الهندوسية، وهي لفظ يطلقه الأوربيون على ديانة الهنود.
(٤) د. محمد عبد المنعم الشرقاوي، ملامح الهند وباكستان، ص: ١٤٣، ط الأولى، دا المعارف، بمصر، سنة: ١٩٥٢ م.
(٥) د. أحمد غلوش الدعوة الأسلامية، ص: ٩٣.

والطريق اليه[1].

رابعاً: انتظار رسول جديد:

كان للنضج الذي ساد العالم، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يوم ذلك، والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال النقد في هذه العقائد، التي توجه النقد اليها ومن هنا: صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب، يصلح فساد هذا العالم، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة، والسلوك، وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها، وقد وصل هذا الشعور الى حد الاحتمال المؤكد، لدرجة أن اليهود في المدينة «يثرب» كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس، والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم، وتملك الناس، وقتل الأوس والخزرج، قتل عاد وارم[2].

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن، بقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾[3] أي: كانوا من قبل مجيء هذا الرسول، بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين، اذا قاتلوهم، ويقولون: انه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وارم»[4] وكانوا يقولون: «اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته وصفته في التوراة. ويقولون لاعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا. فنقتلكم معه قتل عاد وارم»[5] وكانوا يسألون العرب عن مولده، ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا، ويتفحصون عنه، والآية نزلت في

(١) المصدر السابق، ص ٩٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٩٥.
(٣) سورة البرة الآية رقم ٨٩.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ١ ص: ١٧٨.
(٥) الزمخشري، الكشاف، جـ: ١ ص: ٨١.

بني قريظة والنضير، فقد كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج، برسول الله قبل البعث»[1].

ورأى اليهود له وزنه عند جيرانهم، قبل البعثة، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي وعلاماته. فلقد روى أن مشركي مكة ـ لما بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم، ودعاهم بدعوته[2].

ولم تكن هذه المعرفة مخصوصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة، ووصلت إلى أقصى الشمال، لدرجة أن سلمان الفارسي، حينما أراد أن يترك المجوسية، ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه، سمع من يقول: أنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين ابراهيم ـ عليه السلام ـ يخرج بأرض العرب، مهاجره الى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يـأكل الصـدقة، وبين كتفيـه خاتم النبـوة» وليس ذلك بكثيـر على علماء اليهـود والنصارى، لانهم: (. . . يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل. . .)[3].

يقول ابن كثير في تفسيره: وهذه صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتب الانبياء، بشروا أممهم ببعثه، وامروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم[4].

وكما وصل خبر ظهور نبي الى أقصى الشمـال، وصل كـذلك الى أقصى الجنوب، فقد روى انه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير، أفضى سيف ابن ذي يزن لعبد المطلب، بما علمه من كتبه من أن نبياً سوف يظهر في العرب، يضمن

(١) الرازي، التفسير الكبير، جـ: ٣، ص: ١٩٤.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١ ص: ٣٢٠.
(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٧.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٤٨١.

الزعامة لقريش إلى يوم القيامة[1].

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة في عقول الناس، وفي كثير من الاماكن وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة، وتدعو الى استماعها بشوق، خصوصاً وقد حدثت احداث كثيرة، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هـذا الرسول المنتظر للدعوة الاسلامية، وظهورها في العالمين.

---

(١) الأزرقي. أخبار مكة، جـ: ١ ص: ٩٤ ـ ٩٦، بتصرف.



ضرورة الاسلام



ان الانسان آية الله في خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى الى زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماماً بتمام، وبين هذا وذاك يتطلع الانسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سوى المنهج، قويم السبيل، زكى الباعث، نبيل المقصد، متعلقاً بمعالي الأمور، نائياً عن سفافها، يتطلع إلى ذلك ويهفو اليه، فلا يجده الا في رحاب الايمان بالله، وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والانسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل، فلا بد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون، الذي يستقر فيه[1]، فلا بد له اذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الانسان إلى العقيدة حاجة فطرية، مركوزة في فطرته، ومغروسة في شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[2].

هذه الحاجة الفطرية في الانسان إلى الدين، هي التي يتحقق بها ادراك

---

(١) د. احمد السايح، العقيدة في الأسلام، مجلة جوهر الاسلام) العدد الثاني والثالث، ص: ١٦، من السنة الثانية ١٣٩٦ هـ، تونس.

(٢) المصدر السابق.

الانسان لحقيقة مقامه في هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره[1].

وقد أودع الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الانسان ما يستطيع به ادراك الحقائق الكبرى في الوجود[2] وندبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التي يراها الحس والعقل والوجدان، في الآفاق وفي النفس، وفي كل شيء[3]. ففي الأرض آيات للمؤمنين، وفي السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الانسانية السليمة، هي التي تتوجه إلى الكون بروح منفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وابداع، وتنتهي إلى ادراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الانسان بربه ـ عز وجل ـ[4].

فالانسان لا غنى له عن الدين، لأنه يحسه في نفسه، شعوراً ووجداناً ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ما من مولود الا يولد على الفطرة»[5].

وقول الله تعالى: ﴿واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست ربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما اشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[6].

ففي هذه الآية: بين الله ـ تعالى ـ أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً

---

(١) احمد محمد جمال، الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة: ١٣٨٩ هـ، ص: ٢٠٠، ط: رابطة العالم الأسلامي، بمكة المكرمة.

(٢) قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. سورة النحل، آية: ٧٨.

(٣) قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ سورة فصلت، آية: ٥٣.

(٤) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الأسلامية، ص: ١٦، ط: الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض، سنة: ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

(٥) رواه البخاري، في مواضع من صحيحه مع فتح الباري. جـ: ٣، ص: ٢١٩

(٦) سورة الأعراف، آية: ١٧٢، ١٧٣.

بعد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهم في الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ألست بربكم، فأجابوا: «بلى شهدنا» بذلك، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أشهدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: انا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين.[1]

فالايمان بالله فطرة فطر الناس عليها، وانما يضلون عنها بعض الوقت، أو كل الوقت، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعي الالوهية، ويقول لقومه: ﴿... أنا ربكم الاعلى﴾[2] وسام بني اسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، واله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق، قال: ﴿امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين﴾[3].

والمشركون بالله، والكافرون به، في كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالازلام. فإذا مسهم الضر في البر أو في البحر، لجؤوا الى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾[4].

ومن هذا يتبين: انه يوجد في طبيعة تكوين الانسان إستعداد فطري لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الانسان، وموجود في أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. «فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودهما ذاته. وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الاولى»[5].

---

(1) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، جـ: ٣، ص: ٥٠٠ ـ ٥٦٠.
(2) سورة النازعات: آية: ٢٤.
(3) سورة يونس الآية رقم: ٩٠.
(4) سورة يونس، آية رقم ١٢.
(5) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٣، ص: ١٣٩١.

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه الا أن يطيع ربه في ولاء لا يشوبه إستنكاف، ولا يطالـه تأب بل إنه جميعاً من أعلاه الى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى: ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾(١).

والانسان وان كان يساوق الكون في العبادة بفطرته، فأنه ينبغي عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات، تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والارادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب.

بيد ان الانسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفـر، لأن امتزاج الـروح بالجسـد، وانشغال الانسـان بمطالب جسـده، ومطالبه المختلفة، التي تستلزمها حياته في الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الانسان بربوبية الله، واستعداده الفطري للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور في أعماقه، ويصبح الانسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور فيظهـر جلياً واضحاً في الادراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الانسان مع الكون(٢) وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لافكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزي، ويشترك بين الناس عامة في كل عصر ومكان، فانه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان، من عقيدة دينية على نحو ما ـ «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد في الماضي السحيق جماعات انسانية من غير فلسفات وعلوم وفـنون، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير

---

(١) سورة فضلت الآية رقم ١١.

(٢) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص: ٤٧، بتصرف يسير، ط: دار الشروق، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

دين»[1] إذ لا بد في حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، في أمن وسلام، وقد كرم الله الانسان بالعقل لكنه اودع فيه نفساً أمارة بالسوء، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادى الى الصلاح، ونفسه الامارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التي توصله إلى التغلب على النفس وسد منافذ الشيطان إليها، فحمله امانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[2].

اذن «لكي تتحقق الحكمة الالهية في خلق الانسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشادا للملأ الاعلى: ﴿... قال اني اعلم ما لا تعلمون...﴾[3] كان لا بد لقوة الخير في الانسان من مدد يعينها ويقربها على سد منافذ الشر والطغيان»[4].

ومن هذا يتبين: أن الدين للانسان من الشؤون الضرورية التي لا حياة له إلا بها[5]. والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الناس ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظماً واحكاماً، تسعدهم في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الانسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذي يحمل الناس على كمال الطاعة، ولهذا جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر ﴿لئلا يكون للناس

---

(١) د. محمد يوسف موسى، الأسلام والحياة، ص: ٧، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة: ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م.

(٢) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الأسلامية وتحديات العصر، ص: ١٢٦، ط: دار الرشد، بالرياض، سنة: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٠.

(٤) محمود شلتوت، من توجيهات الأسلام، ص: ٩، ط: مجمع البحوث الالاسلامية بالأزهر، سنة: ١٣٧٩ ه ـ ١٩٥٩ م.

(٥) المصدر السابق، ص: ١٤.

على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1]، وقد شرع الله ـ تعالى ـ لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلائم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم[2].

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزياً وفطرياً في الانسان، في كل زمان ـ كما عرضنا ـ فإن الدين الاسلامي هو: الدين الحق، الذي رضيه الله ـ تعالى ـ للناس جميعاً. والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الاسلام ﴿إن الدين عند الله الاسلام...﴾[3]. تعني: مجموعة المبادىء الاسلامية وتعاليم الاسلام... فالاسلام مر بمراحل كبيرة عبر انبياء الله ورسله، الى أن انتهى الى المرحلة المتكاملة في رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي جاءت إلى الانسانية كلها. اذن رسالة الاسلام هي الاسلام الشامل للانسانية في وحدة ايمانها بالله، قال تعالى: ﴿... اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً...﴾[4] ولهذا كان الاسلام يشتمل على امتداد زماني في المعتقد الديني، ويعرض لقضية البشرية من نشأتها الى غايتها، ويشتمل على شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً، ويشتمل على شمول يضم الاديان كلها، ويدعوها الى تصحيح معتقداتها»[5].

فالديانات وان تعددت في الفروع والتكاليف والاعمال، فقد اتحدت في المصدر الذي صدرت عنه، وهو الله ـ تعالى ـ واتحدت ـ أيضاً ـ في الأصل الذي دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الرسالات جميعاً هو: تصحيح العقيدة أولاً، ثم معالجة

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥.
(٢) د. شوكت عليان، الثقافة الأسلامية وتحديات العصر، ص: ١٢٧.
(٣) سورة آل عمران الآية رقم ١٩.
(٤) سورة المائدة الآية رقم ٣.
(٥) د. احمد السايح، الفضيلة والفضائل في الأسلام، ص: ٣٠، ط: مجمع البحوث الأسلامية بالأزهر، سنة: ١٤٠٤ ه ـ ١٩٨٤ م.

الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة في تلك البيئات، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[1] وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون﴾[2] وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. . .﴾[3].

ولقد جاء الاسلام في جانبه الايماني، يؤكد هذه الاسس، التي أكدها كل نبي، ولكنه في الجانب الذي يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل، كان الاسلام الفصل الاخير في تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولي الملتقى في أسس العقيدة، والمتكامل في التشريع، هو الذي جعل من الاسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر. ولعل هذا هو السر الذي جعل من الاسلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به رسول الانسانية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.[4]

وكلمة الاسلام، وفي الاطار اللفظي تعني: التسليم والخضوع، وفي مفهوم الدين يراد منها: التسليم والخضوع لله وحده، لا شريك له، وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم لأمر الله، فأتباع كل نبي، وكل من يدين لله من الاديان السماوية. هم مسلمون بهذا المعنى[5].

ووحدة الايمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل، أو التشكيك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده[6].

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٣٦.
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥.
(٣) سورة الشورى الآية رقم ١٣.
(٤) د. احمد السايح، الفضيلة والفضائل في الأسلام، ص: ٢٨ ـ ٢٩.
(٥) المصدر السابق، ص: ٢٩ بتصرف.
(٦) المصدر السابق ص: ٢٩.

فالايمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس غريزة فطرية، بل هو ضرورة فالدين عنصر ضروري، والانسانية بحاجة إليه، للكمال النفسي، والروحي. «فالانسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالايمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والانسان، عن الصلة بين الانسان والانسان، وهو ينظمها جميعاً.[٤٢]

فالعقيدة الاسلامية ضرورة للانسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادي والالحادي.

ومن القواعد المقررة أن الانسان مدني بطبعه، ومعنى ذلك أن الانسان بفطرته، يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم، اذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير﴾[٤٣][١]. هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وانما جعل أولاً غذاء لطبيعة الانسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه اسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها في جانبها المادي والفكري. يبين ذلك المفكر محمد عبد الله دراز، فيقول: «انه لا قيام للحياة في الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون انما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع ووازع، يكفل مهابته في النفوس، ويمنع انتهاك حرياته[٢].[٤٤]

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر ـ دون أن نجانب الصواب ـ: انه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك

٤٢ـ انور الجندي، معالم الاسلام في بناء العقيدة والشخصية ص ٢٩ ط دار الاعتصام، القاهرة

٤٣ (١) سورة الحجرات، آية: ١٣.

٤٤ (٢) د. محمد عبد الله دراز، الدين، ص: ٩٨.

المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينية فيه. والسر في ذلك أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده، ولا في عنقه، ولا يجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وانما هو معنىً انساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة. وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها»

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لاقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل. فان الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن، أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن الى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما الهي أو وضعي: لأن لكل حضارة شطرين: شطراً روحياً، وشطراً مادياً، فالشطر المادي الذي يعتمد على الحس والعقل وليس الامر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظري.

والشطر النظري: العقيدة والاخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع»[1] ولذلك جاءت العقيدة الاسلامية كاملة هادية للعقل في الجانب النظري، فشملت التشريع، والاخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هادٍ للعقل، كان لا بد في استخدام العلم، من رقيب اخلاقي يوجهه لخير الانسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة، والايمان.

ولا يخفى على أهل العلم: أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن في نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب

(١) د. عبد الحليم محمود، الأسلام وتنظيم المجتمع، ص: ٥، ط: دار الكتاب العربي، بمصر.

الديني والخلقي»[1] ذلك «ان العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير»[2] فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلا بد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وايمان راسخ بوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصورة في الجانب الحسي المحض. فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين في الحياة ذات مجال رحب. فالاسلام بما حواه من هداية إلهية، وتشريعات سماوية، يكفل للمجتمع الانساني، كل عوامل السعادة، والأمن، والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعي، يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضح عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للانسانية أمنها واستقرارها.

لقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالدين الاسلامي، وهو خاتم الرسالات الالهية، ما هو حق وخير، في مجتمع شؤون الحياة، فهو لم يترك الانسان سدى، بل بين له الرشد من الغي، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوي، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردي والاجتماعي، والعلاقات التي تربطه بغيره من الناس جميعاً، فالدين الاسلامي فيه صلاح الناس جميعاً حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلي السليم، ولذلك كان الوحي الالهي رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية[3].

والله الذي خلق الانسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الانسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الامن والاستقرار، وذلك بالدين الذي يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم، من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[4].

---

(١) و(٢) د. محمد عبد الله دراز، الدين، ص: ٩٩.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الأسلام والحياة، ص: ٨.

(٤) د. محمد حسين الذهبي (الدين والتدين) دراسة بمجلة البحوث الأسلامية جـ: ١، ص: ٥٤، الصادرة سنة ١٣٩٥ هـ ـ ط: دار الأفتاء والبحوث بالرياض.

فالاسلام نظام رباني، يقوم على مبادىء سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم في دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم في أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والارض.

فالاسلام هو الرابطة التي جمعت البشرية على الايمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس الا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، واقرار الخير والصلاح في الارض، على اساس قوي متين، من ربط العبد بخالقه[1].

فهو إذن مطلب انساني رفيع. يغذي جانب الروح، ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وانما يكون موضوعها المجتمع ككل[2].

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: ان العقيدة الاسلامية تعبر عن حاجات النفس الانسانية، في مختلف ملكاتها ومظاهرها. ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الانسان نفسه، فقد خلقه الله ـ تعالى ـ ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الانسانية إلى الدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتي داخل النفس، يدفع الانسان إلى مراقبة الله، الذي يعلم السر وما تخفى الصدور. فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

فالدين يزكى النفس، ويطهرها ويحول دائماً بين الانسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شيء. ومن هنا تزكو نفسه

---

(1) محمود شتلوت، من توجيهات الأسلام، ص: ١٨.

(2) د. محمد عبد الرحمن بيصار، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ص: ٩٢، ط: الرابحة، الأنجلو المصرية، بالقاهرة.

بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية إليه.

فالانسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الانسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل ان يستغني عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التي نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الانسانية . . . فالدين يقيم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للانسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الانسانية الى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض كذلك فان الانسانية في حاجة الى الدين، لتربية الانسان الذي كرمه الله ـ تعالى ـ فقال: ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني أدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علىٰ كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[2].

وعلى ذلك فإن احتياج الانسانية إلى العقيدة نزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذي يضيء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾[3].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لا بد من العقيدة الصحيحة، التي تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة، والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الانسانية، التي قام الاسلام عليها. ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة، والاحسان كان لذلك اثر

---

(١) سورة التين الآية رقم: ٤.
(٢) الإسراء: ٧٠.
(٣) الأنعام ١٢٢.

بالغ في سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والاسباب القوية، فيما ادركه الاسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذي عاش تحت لوائه[1].

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج نستمد يقيننا الذي لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء.

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هي أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين في حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك في تهذيب النفس، واسعاد الانسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير... ان الدين ضرورة من ضرورات الانسانية الراشدة، لا تغنى عنه فكرة عقلية ولا تنظيم وضعي[2] قال تعالى: ﴿يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً﴾[3].

لقد كان الانسان في الماضي يعبد ما لا ينفع، ولا يضر، وكان يخاف من كل شيء، فجاء الدين الحق، ودعا الناس الى التحرر من خوف غير الله وما عداه مخلوقاً من المخلوقات، وبهذا تغيرت نظرة الانسان إلى كل شيء.

إن العقيدة الاسلامية تقوى الاتصال بالله، وتبعث في النفس اطمئناناً يقوي عزيمة المؤمن، فلا يصل إلى نفسه اليأس، ويتغلب على مصاعب الحياة بقوة الإيمان.

وان الباحث: اذا تأمل أحوال الانسانية في هذا العصر، فسوف يجد أنها في

(1) د. محمد يوسف موسى الأسلام والحياة، ص: ١١٤، ط: السادسة، الأتحاد الأسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
(2) محمود شلتوت، من توجيهات الاسلام، ص: ٢٣.
(3) سورة النساء، الأيتان: ١٧٤ - ١٧٥.

أمس الحاجة إلى الاسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى اعلى مستوى من الرقى العمراني، والتقدم العلمي الهائل، ولكن قصة البشرية - برغم التقدم الحضاري - فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم. فقد اطلقت الحضارة الغربية حرية الانسان، وحررت غرائزه المكبوتة، وتحولت الحريات الى انحراف في الغريزة، والى شذوذ في الطبيعة، والى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط.

ومن تعاسة الحضارة المادية، انها عكست كرائم النعم، والملكات التي أنعم الله بها على الانسان عكساً أسقط الانسان في وديان الهلاك والدمار وسقط بالانسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ في السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبيز، والارتخاص، والابتذال، والخلاعة[1].

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التي علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون في الفضاء، وفي الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها، وشعوبها كيف يسيرون على الارض في طريق الخير بغير عوج والتواء، أو تعثر.

ان الغرب اليوم في حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، واصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذي ينبىء الى ظله، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار[2].

والبشرية اليوم في مفترق الطريق، فهناك اضطراب في الافكار وحيرة في الاتجاهات، وزعزعة في النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة،

---

(1) د. احمد عبد الرحيم السايح، اضواء على الحضارة الأسلامية، ص: ١٩١ - ١٩٢، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، سنة: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(2) د. محمد يوسف موسى، الأسلام والحياة، ص: ٢٦.

وشعباً بعد شعب، الى هاوية المادية «وعلى كل فقد وقع المحذور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة، ووجهة نظر، ونفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجياً، وكان أولاً ببطء، وعلى مهـل، ولكن بقوة وعـزيمة. فقـام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون، نظراً مؤسساً على انه لا خـالق ولا مدبر، ولا آمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تتصرف في هذا العـالم، وتحكم عليه، وتدبر شؤونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت، وسموا هذا نظرياً علمياً مجرداً»[1].

وليس الحال في الشرق والبلاد العربية، بأحسن من الغرب، فقد انحـرف الكثير عن الدين في غير قليل من شؤون الحياة[2] لقد تأثرت بعض المجتمعـات بالغزو الحضاري الغربي، وليس ذلك التأثيـر في الجانب العلمي، والصنـاعي، والعمراني، ولكن ـ للأسف ـ وفي أسوأ المساوىء وأصبح البعض يقلد الغرب في كل ما هب ودب، وما من ظاهـره من الظواهـر العفنة، ولا مـوضة من مـوضات العصر، إلا ولها في بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمي الهائل الذي وصلت اليه، وبدأ الانسان الاوربي يهرب من حضارته، لانه لم يحس في ظلها بالسعادة، ولم يحسن في مجتمعه بالأمن والامـان والاطمئنان، فقـد انتشرت عصـابات القتـل، والخطب، والتخريب، والارهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور، واقيمت نوادي العراة، وابيح في غير استحياء الشذوذ الجنسي، إلى غير ذلك.

واخيراً لهذا وغير هذا: لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينيـة،

---

(١) ابو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بالنحطاط المسلمين؟، ص: ١٧٨، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

(٢) د. محمد يوسف موسى، الأسلام والحياة، ص: ٢٧.

ومذاهبهم الاقتصادية، بل من كل حضارتهم التي افتتنت بالعلم والعقل، فأصبحت شقية عمياء لا تبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء، وانحدرت بالشباب الغربي إلى مدارك السفالة والانحطاط، ليعيشوا في حياة الجنس والخمر، ونوادي العراة.

والشيوعية في الشرق وفي الغرب قد اعلنت فشلها، وبات الناس في جحيمها يئنون جوعاً، ويبكون توجعاً، ويتألمون من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة وكل شيء.

وهكذا يهرب الاوربيون من نظمهم الوضعية، ويهرب الشيوعيون من جحيم الاشتراكية.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أي عون للانسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الانسانية، لأن الاسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه ـ عند التطبيق ـ قوة فعالة ومؤثرة، بل إن فاعلية الاسلام شملت حياة الافراد، وحياة الجماعات من جميع الجوانب.

اثر العوامل السابقة في ظهور الاسلام



أثر العوامل السابقة في ظهور الاسلام

العوامل التي عرضنا لها في موضوع ظهور الاسلام، وحاجة الانسانية اليه، كان لها الاثر الواضح في ظهور الاسلام، واقبال الناس عليه، والدخول في دين الله أفواجاً.

ونحن نوقن أن حكمة الله لا يدركها بشر، وفي الوقت نفسه نلمس أن في مقدور البشر أن يعلنوا شيئاً من هذه الحكمة، على حسب ما يظهر لهم خصوصاً بعد ما تتكشف بعض أسرار الحكمة.

لقد أظهر الواقع الذي مضى زمنه، قيمة هذه الاختيارات في ظهور الاسلام ولذا يجدر ان نتعرف على أثر هذه العوامل في ظهور الاسلام عاملاً عاملاً، لتتضح الرؤية، ويتحقق الهدف.

أولاً: أثر اختيار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغ الاسلام في ظهور الاسلام:

لقد عرفنا ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتسب الى بطن بني هاشم، وهم بطن يقطن مكة، ويرتبط مع سائر بطون قريش في قرابة. فعروبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثابتة موطناً وجنساً ولغة، وقد أكد القرآن الكريم هذا في آيات كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[1] يشير إلى أن مكة هي قرية النبي وموطنه، إذ اضاف القرية الى غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2]. وقد دفع الله عن كثير من أهل مكة العقوبة في الدنيا،

---

(١) سورة محمد الآية رقم: ١٣.
(٢) احمد غلوش الدعوة الأسلامية، ص: ١٢٠.

لبركة وجود الرسول نبي الرحمة[1]. وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأمين رسولاً منهم...﴾[2] وقوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي...﴾[3] يشير الى عروبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الأمية صفة للعرب، في مقابلة أهل الكتاب وهو أمي منهم[4].

وقوله تعالى: ﴿انا انزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾[6] يشير الى لغة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ العربية التي نزل بها القرآن الكريم، فجعلها أكثر رسوخاً.

وهذه العروبة المكية، تعطي للدعوة الاسلامية قوة معينة، لأن مكة هي أم القرى، وبها الكعبة، وقد درج الناس والعرب على تقديرها، والمشاركة في مواسمها الدينية والتجارية والأدبية، ويعدون هذه المشاركة واجباً تجاه مكة وأهلها القرشيين الدين ينظمون أمور الكعبة، ويحرسون الحجيج، ويطعمونهم، وهم لجوارهم للكعبة أهل الله، يعرفونه فيدافع عنهم، ويخصهم بالفضل من دون الناس[7].

وبنو هاشم بطن من أوسط بطون قريش، ويتصل بهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ جميعاً، وتلك ميزة لداعية يظهر فيها، إذ يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون، وهذا ما كان.

ولقد أخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ «ان النبي ـ صلى الله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٧، ص: ٢٩٤.
(٢) سورة الجمعة، آية: ٢.
(٣) الأعراف: آية ١٥٧.
(٤) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٢٠.
(٥) سورة يوسف. آية: ٢.
(٦) سورة مريم آية ٩٧.
(٧) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ١٢١.

عليه وسلم ـ لم يكن بطن من قريش الا وله قرابة فيه».

والقربى النسبية تدفع بدورها إلى الوحدة، والاتجاه النفسي الواحد، وتجعل رأي الفرد منها مسموعاً مطاعاً، خصوصاً في عصر كثرت فيه التكتلات القائمة على العنف والقوة، لدرجة أن عرب مكة جاءوا في البداية، وفي هدوء إلى أبي طالب، وشكوا اليه امر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه: «سب الهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا وضلل آباءنا»[1] وبهذا كان في نظرهم يفرق، ولا يجمع، وبـذلك تضعف قوتهم، وكان الأمل أن يكونوا ومعهم محمـد يداً واحدة حتى ولو جعلوه أغناهم أو ملكاً عليهم[2].

لقد كان من التوضيحات الالهية للعرب واهل مكة: أن الله بعث فيهم رسولاً منهم، وقد كرر القرآن الكريم الفاظ (من أنفسهم) و(منكم) و(منهم)، وذلك في معـرض مخـاطبتهم، إذ يقـول ـ سبحـانـه وتعـالى ـ: ﴿لقـد جـاءكم رسـول من أنفسكم. . .﴾[3] ويقـول ـ سبحـانـه وتعـالـى ـ: ﴿يبـعث فـيهـم رسـولاً من أنفسهم. . .﴾[4]. وقال تعالى: ﴿. . . جاءهم رسول منهم. . .﴾[5]، وكونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم وفيهم، لا يقتضي اختصاصه بهم، وانما الذي تقتضيه هذه الاشـارات (من أنفسهم) و(منكم) و(منهم) أن يكـون العـرب هم أولى النـاس باتباعه، وأسرعهم إلى ذلـك، فهو أشـد الناس حنـوا عليهم، وأكثرهم أمـلاً في هدايتهم، لارتباطه بهم بأكثر من طريق، وله أعمام، واخوال، وعمات، وخالات، من سائر بطون مكة)[6] كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يأيها النبي إنا أحللنا لك

---

(١) أبن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ٢٧٧.
محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٤٦.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ١، ص: ٢١٣ ـ ٣١٤.
محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٥٣.
(٣) سورة التوبة الآية رقم ١٢٨.
(٤) آل عمران ١٦٤.
(٥) النحل: ١١٣.
(٦) ابن القيم، زاد المعاد، ج: ١، ص: ٢٦ ـ ٢٧، ط: المطبعة اليمنية بمصر.

أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك. . . ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة: تدل في صراحة على وجود أعمام، وعمات، وأخوال، وخالات، له في مكة، وأنه تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة، وبالبحث في زوجات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرشيات، نجد أنهن لسن من بنات بني هاشم ولكنهن من بقية البطون، فعائشة من بطن «تيم»، وحفصة من بطن «عدي»، وام حبيبة من بطن «بني أمية»، وأم سلمة من بطن «بني مخزوم»، وسودة من «بني زمعة»، وزينب من «بني أسد».

فثبت بذلك أن القرابة كانت موجودة بين بطون مكة، وبين بني هاشم، وأن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخوالاً، وخالاتٍ، وأعماماً، وعماتٍ، من سائر البطون، لذا جاء الامر من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ينذر الأقربين، قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[2] فدعا محمد عشيرته الى طعام في بيته، وحاول أن يحدثهم، داعياً إياهم الى الله[3]. ثم انتقل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك بدعوته من عشيرته الاقربين إلى بطون أهل مكة، بطناً، بطنا[4].

قال تعالى: ﴿لا أسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى. . . ﴾[5] فهم أقرباؤه، لا يطلب لهم إلا الخير والمصلحة، وعليهم ألا يعصوه، وهو لا يسألهم خيراً أو مقابلاً. وكل ما يرجوه ان يؤدوا حق القرابة الموجودة بينهم وبينه.

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم ٥٠.
(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ١٧٦ ـ ١٨١.
السيوطي، الدر المنثور، جـ: ١٦، ص: ٣٢٤ ـ ٣٢٩.
(٤) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص: ١٤٢.
محمود شاكر، التاريخ الأسلامي، جـ: ٢، ص: ٦٤، ط: المكتب الأسلامي بيروت، سنة: ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.
(٥) سورة الشورة الآية رقم ٢٢.

ولقد كان لهذه القرابة أثرها الواضح، في استجابة العرب، لدين الاسلام، اذ عرفوه بأنه صاحب النسب الرفيع العالي، ومن هنا لا يأتي للناس إلا بما يأخذ بأيديهم إلى الصلاح. وعرف أقرباؤه أنه منهم واليهم، وهم أولى الناس باتباعه والاهتداء بما جاء به من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكانوا اسرع الناس قبولاً للحق والهدى.

ثانياً: أثر اختيار الامة الاولى للاسلام في ظهور الاسلام:

لقد كان اختيار الأمة الاولى للاسلام له اثره الواضح، فهؤلاء العرب لم يلبثوا طويلاً في عنادهم، بل آمنوا بالدعوة والقرآن، وأسلموا أمرهم لله، فصنع منهم في وقت قصير لا يذكر، خير أمة أخرجت للناس، تتحلى بمكارم الاخلاق، وعظائم السلوك، وتسعى في كل مكان لهداية البشر على نهج القرآن الكريم، يقول مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ: «فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره، لأن الذي أنزله وقدره بحكمته انما هو خالق الزمن نفسه، فهدم نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على اطلال نفسها»[1].

إن الدعوة الاسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية، اذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضارية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية، اذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا، فنشطتها وسمت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة، فوجد العرب انفسهم ـ بعد الاسلام ـ تلقائياً يبذلون حماسهم وقوتهم للدعوة الاسلامية، ويعطون شجاعتهم وامكاناتهم لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي خدمة دعوته. فتحركوا إلى كل مكان، من اجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم، وأصبح تعصبهم اندفاعاً، لتنفيذ أوامر الدعوة الاسلامية، وتعاليمها، وكان لهم من استعدادهم ما

---

(١) مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٨٦، ط: الخامسة دار الكتاب العربي، بيروت، سنة: ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

جعلهم يستفيدون بالدعوة، ويفيدونها[1].

ولقد كان للبيئة العربية في شبه الجزيرة أثرها الكبير في الحركة العربية لا سيما من الناحيتين: الاجتماعية والسياسية، ولقد اتصل ذلك بالبيئة في معناها الأعم والأشمل، من ظروف الأرض والمناخ، والنبات، بل والحيوان أيضاً[2].

ولقد كان جليّاً في حكم التاريخ، وبنزول القرآن كله في جزيرة العرب، أن هذه الخصائص التي نهض بها بيان العرب، وبنت أخلاقهم، وانتهت الى حكمتهم، لم تكن مما توفر لأمة في غير جزيرة العرب، حتى نزل القرآن الكريم، وحتى انطلق لها صحابة الرسول الكريم، في مد الاسلام للتحرير واشراقه للتنوير والتغيير، فكان حفظ القرآن بتعلم لغة العرب، والجهاد حول القرآن، والجهاد بالقرآن، طريق الاثبات لهذه الخصائص الانسانية من خلال حركة التعريب الواسعة، التي صاحبت انتشار الاسلام[3].

فالعرب قد جمعوا بين فصاحة اللسان، وحكمة العقل، وجرأة القلب، . . . لقد اجتمعت الفصاحة والبلاغة في القول إلى حد الارتجال، ونطقوا بالحكمة السائرة، التي توارثها الأجيال من بعدهم، تلك الحكمة البعيدة عن الخرافة والوهم، وانما هي خلاصة تجارب الحياة، والتي تعبر عن الانسان في كل مكان. وكانوا رجال حرب، لا تضارعهم أمة في شجاعتهم وبسالتهم، ومن هنا: اجتمعت لهم الأصول العميقة لمواهب الانسان كلها[4]. مما كان له أثره في انتشار الاسلام في المشارق والمغارب، إذ قام العرب بدورهم في تعريف المجتمعات المختلفة برسالة الاسلام.

---

(١) د. احمد غلوش، الدعوة الأسلامسة، ص: ١١٣.

(٢) د. سليمان حزين، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الأسلامية، جـ: ١، ص: ٣٨٧ ط: مجمع البحوث الأسلامية بالأزهر، سنة: ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٢ م.

(٣) أحمد موسى سالم، لما ظهر الأسلام في جزيرة العرب؟ ص: ٣١٩.

(٤) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة؟، ص: ٤٦ ـ ٤٧.

ثالثاً: أثر عناية الله في اختيار المكان لظهور الاسلام.

لقد كان لعناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ في اختيار المكان لظهور الاسلام اثر واضح في انتشار الاسلام فيما حول مكة، قال تعالى: ﴿. . . ولتنذر أم القرى ومن حولها. . .﴾[1] وهكذا يتقرر من الآية الكريمة أن أم القرى هي مركز الوسط الأمين، لأنها تنذر بما نزل فيها من حولها، إذ لو كانت غير ذلك، وفي جانب والى ناحية، ما كان الوجود من حولها[2].

لقد كان بحق هذا المركز الوسط مصدر إشعاع وأمن حول أم القرى، وكان العالم حول أم القرى، فانطلقت الرسالة الأسلامية، لتنير السبيل وتهدي الضال.

لقد اختار الله ـ تعالى ـ هذا المكان العالمي «مكة» وأقدس وأقدم بيت هناك «الكعبة» لتكون مناخاً لظهور الاسلام على يد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ[3].

واعداد أول بيت وضع للناس، ليكون منطلقاً ومناخاً لحياة آخر دين خاتم للرسالات والديانات قبل ظهوره، يتفق تماماً مع عهد الله ـ تعالى ـ المأخوذ على أنبيائه، لنصرة دين الاسلام، قبل ظهور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عالم الدنيا، بقوله تعالى: ﴿واذ أخذ الله ميثاق النبين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾[4].

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة أحاطه الله بمجموعة من الظروف جعلته مكاناً ملائماً للدعوة الخاتمة، لكي تنطلق في كل اتجاه، وقد انطلقت الدعوة الاسلامية هنا وهناك، فكان صداها في كل الأنحاء.

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم: ٩٢.
(٢) د. عبد الرزاق أم القرى مركز الوسط الأمين، ص: ٤١، مقال بمجلة العرب بباكستان، العدد الصادر في رجب، وشعبان، من السنة الحادية والخمسين.
(٣) عبد القادر احمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة ٢، ص: ٨.
(٤) سورة آل عمران الآية رقم ٨١.

وترجع أهمية المكان: الى أن الجزيرة العربية، ملتقى مواصلات هام بين بقية" اجزاء آسيا وافريقيا، التي تواجه أوربا[1].

وأثر الموقع الجغرافي الذي بدأت منه الحركة العربية الاسلامية سواء فيما يتصل بالبقعة التي نزل فيها الاسلام من الجزيرة العربية (الحجاز) ام بالنسبة للجزيرة العربية، التي توسع منها العرب، وانتشر الاسلام إلى العالم الخارجي فقد كان لنزول الاسلام بالحجاز بالذات ـ دون غيره من سائر أجزاء الجزيرة العربية، واركانها ـ أثره البعيد، والباقي على مر الزمن، بل أثره من حيث توحيد الجزيرة العربية في حركة واحدة، مما ميز الاسلام على غيره من الأديان السماوية السابقة في المنطقة، كذلك كان لارتباط الاسلام بمكان الجزيرة العربية، والموقع الجغرافي لهذه الجزيرة أثره البعيد والباقي على مر الزمن في انتشار الاسلام شرقاً وغرباً، بالبر والبحر[2].

رابعاً: أثر عناية الله في اختيار الزمان لظهور الاسلام.

لقد عرفنا ـ ونحن نتحدث عن عناية الله في اختيار الزمان لظهور الاسلام ـ ان هذا الزمان ساد فيه صراع عام، وحروب متوالية، «ولا شك في أن الحروب المتوالية المحلية والعالمية، والخصومات المتتابعة، المذهبية والعقيدية، والتغيرات المتلاحقة، القومية والعنصرية، كل ذلك قد مهد للاسلام طريقه الفطري في الأرض»[3] ولعلنا ندرك بوضوح أن الزمن[4] عامل خارج عن ماهية الاسلام، لا صلة له بجوهره، ولكنه ذو أثر فعال في دفع عجلته، والدعاية لرسالته فإن احتكاك

---

(١) د. محمد مصطفى النجار، عرب الجزيرة بين الجاهلية والأسلام، ص: ٤ ط: دار الطباعة المحمدية.

(٢) د. سليمان حزين، المؤتمر الأول لمجمع البحوث الأسلامية، جـ: ١، ص: ٢٨٦.

(٣) علي عبد الرحمن الأمين، بحث بالمؤتمر الأول لمجمع البحوص الأسلامية بالأزهر جـ: ١، ص: ٣٥١.

(٤) وبيان ذلك: أن الله سبحانه وتعالى ـ هو الذي اختار الأسلام ليكون في هذا الزمن الذي أشرقت فيه رسالة الأسلام، ولما كان الناس في هذا الزمن لهم ما وصفنا. كان للزمن أثر كبير في انتشار الأسلام، فكان عاملاً مهما.

المسلمين بغيرهم بسبب هذه الصراعات والحروب، كان مدعاة لتبادل الآراء، وتداول النقاش، واستعراض ما له من مزايا، وأخلاق، وتقاليد.

إن صراعات هذا الزمن تميزت بالشمول والعمق، ولذلك كانت نهايتها امنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق.

ومما يجدر أن نعرض له في ايجاز، أن هذا الزمن حظى بوجود الحكماء من العرب، وكان الطابع العام لهؤلاء الحكماء هو البحث عن الدين المستقيم والتطلع إلى الهداية السماوية.

وحكماء العرب هؤلاء هم: العلماء الذين كان يرجع اليهم فيما يعرض من مشاكل، وهم في الجملة أعظم العرب حظاً في الثقافة[1].

واذا كان ـ ما سبق ـ يعد من الجوانب المحدودة برغم كثرته، فإن قريشاً قد غمرتها روحانية، ففكرت في أمر الدين وقداسته، والبيت وحرمته، وبعد تأمل وتروٍ ابتدعت رأي الحمس. والحمس: جمع أحمس، والاحمس: الشديد الصلب في الدين والقتال[2].

لقد وصل النضج الفكري في هذا الزمن، إلى مستوى يناسب ظهور الاسلام الذي جاء ليرتقي بالانسان إلى معالم الحق، ويأخذ به الى علائم الكمال المنشود.

لقد كانت الانسانية تتطلع زمناً طويلاً الى دين جديد، عادل، رحيم. وكان هذا الدين هو الاسلام.

لقد أفلست نظم الانسان السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وأدت الى صراع في كل بقعة من بقاع الدنيا، مما جعل الانسانية تتطلع إلى ما يقيم لها إنسانيتها، ويحفظ لها كرامتها.

---

(١) د. عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الأسلام، جـ: ١، ص: ٣٨، ط. الأولى، الأنجلو المصرية سنة: ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م.

(٢) المصدر السابق، جـ: ١، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

لقد كانت سنن الاجتماع البشري، قد بلغت بالانسان أشده، واعادته الحوادث الماضية الى رشده، فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب.

خامساً: أثر حاجة الانسانية إلى الاسلام في ظهور الاسلام:

الدين يجيء في اثر الدين، والرسول يتبع الرسول، وكل دين له ناسه المحدودون، وزمنه الموقوت، حتى بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدين للناس جميعاً، والانسانية عامة، وذلك حين قضت الضرورة المطلقة بارساله ليخرج العالم كله، ما كان يتخبط فيه، من ظلم، وضلال، وباطل[1].

ولولا هذه الضرورة المطلقة، ما اتصلت السماء بالارض، برسالة جديدة هذا الاتصال الذي هو خرق لقوانين الطبيعة. ولا يكون الا عند حاجة البشرية الملحة المتلهفة لدين جديد.

نعم. كان العالم في حاجة ملحة لدين جديد، بعد أن خفت صوت الرسل السابقين، وضاعت معالم الرسالات الالهية، التي أرسلها الله لعباده لا فرق في ذلك بين بلاد العرب، اذ يوجد بيته المحرم، وبلاد الروم المهد الثاني للمسيحية، وفارس، إذ كانت المانوية، والزرادشتية، والمزدكية، وغير هذه البلاد وتلك من أقطار العالم المختلفة. فكان من الطبيعي ان يستتبع هذا الفساد في العقيدة، وتلك الفرقة في الدين، والاضطهاد للخارجين على مذهب الدولة، والانحلال في الاخلاق، والفساد في الادارة، والظلم في المجتمع.

وهذه الوجوه من الفساد، كان لها بلا ريب اثرها في تقبل الاسلام في كثير من نواحي الامبراطورية الرومانية، بقبول حسن بين المسيحيين أنفسهم، اذ وجدوا فيه متنفساً لهم، ومخلصاً مما كانوا فيه من عنت وكرب[2].

---

(١) و(٢) د. محمد يوسف موسى، الأسلام وحاجة الأنسانية اليه، ص: ٢٢، ط: دار الفكر العربي، بيروت. ص: ٢٥.

نعم: كان من رحمة الله ـ كما يقول محمد عبده ـ بأولئك الاقوام «أن يؤدبهم برسول يوحي إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التي أظلت رؤوس جميع الأمم»[1].

إن الحالة الدينية فضلاً عن الحالة الاجتماعية الظالمة، التي كانت عليها الأمم قبل الاسلام، كانت تتطلب إنقاذاً سريعاً، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل، فكان هذا المنقذ هو الاسلام[2].

والانسانية في عصرنا هذا أشد ما تكون حاجة الى الدين الاسلامي فان التقدم العلمي المادي الذي غزا الفضاء، لم يستطع ان يحقق للناس السعادة والطمأنينية التي ينشدون، بل زادهم تكالباً على المادة، وتنافساً جشعاً جر إلى حروب.

فالذي نرجوه إذن لإصلاح هذا العالم، الذي نعيش فيه، بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعد أن ظهرت فيه فلسفات تدعو لانكار وجود الله، والتحلل من المسؤولية، وفاضل الأخلاق[3].

انه لا شيء غير هذا الدين الاسلامي، فلا خلاص للانسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن نجد هذا الدين ـ كما أنزله الله ـ واضحاً ميسراً، خالياً من الغموض والتعقيد، سليما من التعريف والتبديل، الا في الاسلام خاتم الرسالات الالهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة[4].

فإلى هذا الاسلام في عقيدته وشريعته، في عباداته ومعاملاته، في نظمه، واخلاقه، ندعو البشرية كلها: ﴿يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل

---

(١) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ١٨١.
(٢) د. محمد يوسف موسى، الأسلام وحاجة الأنسانية اليه، ص: ٢٦.
(٣) د. محمد يوسف موسى، الأسلام وحاجة الأنسانية اليه، ص: ٢٢.
(٤) محمود شتلوت، من توجيهات الأسلام، ص: ٢٤.

اليه صراطاً مستقيماً﴾[1].

هذا الدين لا يزال العالم في حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للانسانية مما تعانيه الا بالايمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر والداعي إلى الحق، والى الصراط المستقيم.

وبعد:

فهذه حقائق علمية مسلمة:

- اختيار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبلغ الاسلام.
- اختيار الأمة الأولى للاسلام.
- عناية الله في اختيار المكان لظهور الاسلام.
- عناية الله في اختيار الزمان لظهور الاسلام.
- حاجة الانسانية الى الاسلام.
- اثر العوامل والاختبارات السابقة في ظهور الاسلام.

هذه الحقائق الأصيلة، قد بينت لنا فضل الله - سبحانه وتعالى - على عباده، ورحمته بهم، فكان ظهور الاسلام، ظاهرة تجمع بين العقيدة والحركة في حيوية، ولا ينضب نبعها، كما تفردت تلك الظاهرة بالجانب الروحي، والعقدي، الذي تمثل في الاسلام ديناً واحداً، وعقيدة أقوى في تماسكها، وتقارب مذاهبها من أية عقيدة قائمة.

علم الله - سبحانه وتعالى - ان عباده لا ينتفعون بمدد، سوى الدين وهو المدد الذي طواه الله إني قوله للملأ الأعلى منذ التدبير في خلق الانسان وجعله خليفة في الأرض: ﴿. . إني اعلم ما لا تعلمون. . .﴾[2] قد وضعه الله أساساً لحياة الإنسان منذ خلقه، وعلق به عمارة هذه الدنيا: فتلقى أدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا أهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدىً فمن اتبع هداي فلا

---

(١) سورة النساء، الأيتان: ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٣٠.

خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

﴿. . . فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[2].

هذا المدد هو الهداية السماوية، التي تعهد الله بها عباده، وآمنت به الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة الانسان في هذه الحياة.

وكان مما طلب ابراهيم وولده اسماعيل من ربهما في اسعاد ذريتهما ﴿ربنا وأبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم أياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. . .﴾[3] طلبا منه ذلك، وهما يعلمان أن ذريتهما لا تخلو من تفكير عقلي، تستطيع ان تتخذ منه منهج حياتها، وتنظيم شؤونها، لعلمهما أن الفكرة الانسانية مهما سمت، ومهما تجرد اصحابها من الأغراض، فهي بمكان من الضعف.

وعلى هذا الأساس تعهدت العناية الالهية، الانسان في جميع أطواره، ترشده إلى وسائل الاصلاح، التي يحتملها استعداده، فارسلت الرسل، وانزلت الكتب، وسارت في هذا السبيل، حتى وصل الانسان إلى درجة من الاستعداد العقلي والنضوج الفكري، والتفتح الذهني، لرسالة عامة خالدة، تضمنت بنصوصها واشاراتها جميع ما يحتاجه الانسان.

وبهذه الرسالة الخالدة، بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ان هيأ له الزمان، والمكان، واصطفاه، واختاره، وأنزل القرآن الكريم بعد ان جعل العرب أهلاً للغة القرآن، ليبلغوا الناس القرآن، وينشروا في الارض الاسلام، وبه أكمل الله هدايته، واتم على عباده نعمته، وكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء والرسل.

---

(١) البقرة ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) طه آية ١٢٣.

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٢٣.

القسم الثاني

عوامل ذاتية اتسم بها الاسلام

- الفطرية
- العالمية
- الاستمرارية
- الشمولية
- الاعجاز القرآني
- العدالة
- اليسر والسماحة
- الوضوح
- الكمال

الفطرية

الفطرية

لما كانت الفطرة، فطرية الاسلام، عاملاً من العوامل الذاتية في الاسلام، التي دفعت الناس إلى الاقبال على الاسلام، كان علينا أن نجلى مفهوم الفطرة في مفاهيم أهل اللغة، ومفاهيم أهل الاصطلاح.

يقول ابن منظور: فطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم. والفطرة الابتداء والاختراع. وفي التنزيل العزيز: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض...﴾[1]. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأت حفرتها[2].

وذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه سمع أعرابياً يقول: أنا أول من فطر هذا، أي ابتدأه[3]. والفطرة ـ بالكسر ـ: الخلقة[4]. قال الشاعر:

هـون عليك فقـد نال الغنى رجـل   في فطرة الكلب لا بالدين والحسب[5]

وفي القرآن الكريم جاء على لسان ابراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[6].

---

(١) سورة فاطر، آية رقم ١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٩.
(٣) ابن منظور لسان العرب جـ ٥ ص ٣٤٣٣ مادة (فطر).
(٤) و(٥) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٤٣٣.
(٦) الأنعام آية ٧٩.

والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به[1].

يقول الراغب الاصفهاني. وفطر الله الخلق، هو ايجاده الشيء وابداعه على هيئة مترشحة لفعل من الافعال. فقوله تعالى: ﴿... فطرت الله التي فطر الناس عليها...﴾[2]. اشارة منه تعالى الى ما فطر، أي: أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى. وفطرة الله: هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الايمان[3]، لأن من معاني الفطرة ذلك الاقرار بالرب، نتيجة الميثاق، الذي أخذه الله من ذرية آدم ـ عليه السلام ـ، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى...﴾[4]. فهذا يعني: أن الخلق مجبولون على المعرفة بالله، فهو شيء يجدونه في أنفسهم، لا يستطيعون له دفعاً، واذا أصابتهم ضراء دعوا الله ورفعوا اليه أكفهم، فمن أين جاءهم هذا التوجه الى الخالق، وأنه هو الذي يستطيع رفع الضر؟ انها الفطرة المركوزة فيهم، ولولا أن في النفس قابلية لمعرفة الله ومحبته، والذل له، لما استطاع التعليم والتذكير أن يؤثر فيها، فقوة المحبة لا تأتي من الخارج، وانما هي شيء في الداخل. ولما دعا الرسل أقوامهم الى عبادة الله، دعوهم الى من يعرفونه، ولم ينكر دعوتهم أحد[5].

وأما انكار فرعون، فهو انكار العارف، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا...﴾[6] وكما قال له موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿... لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض...﴾[7].

وبعض العلماء يذكر أن المراد بالفطرة: الاسلام، ويستدل هؤلاء بقول الله

---

(١) ابن منظور لسان العرب جـ ٥ ص ٣٤٣٣ مادة (فطر).
(٢) سورة الروم آية رقم: ٣٠.
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٢ ط/ دار المعرفة بيروت.
(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٧٢.
(٥) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مقال بمجلة البيان، العدد/ السابع عشر ص: ٢٠، الصادر في شعبان ١٤٠٩ هـ عن المنتدى الأسلامي بلندن.
(٦) سورة النمل آية ١٤.
(٧) سورة الأسراء آية رقم ١٠٢.

تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

يقول ابن كثير: فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم، التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فانه ـ تعالى ـ فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا اله غيره، كما في قوله تعالى: ﴿... وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى...﴾[2].

ويقول الزمخشري في تفسيره: «فقوم وجهك له، وعدله غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لا قباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته واهتمامه بأسبابه، فان من اهتم بالشيء، عقد عليه طرفه، وسدد اليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلاً به عليه»[3].

و (فطرت الله) اي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، والفطرة: الخلقة، ألا ترى الى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾. والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام، غير نائين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى ولو تركوا، لما اختاروا عليه ديناً آخر[4].

ويقول سيد قطب: (فأقم وجهك للدين حنيفاً) أي: واتجه اليه مستقيماً فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة، التي لا تستند على حق، ولا تستمد من علم، انما تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل. أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه، مستقيماً على أمره دون سواه[5].

﴿... فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...﴾[6] وبهذا

---

(١) الروم آية ٣٠.
(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٨٢. وانظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٣٢٠.
(٣) الزمخشري الكشاف جـ: ٣، ص: ٢٠٤.
(٤) الزمخشري الكشاف جـ ٣ ص: ٢٠٤. بتصرف واختصار.
(٥) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٧٦٧.
(٦) الروم ٣٠.

يربط بين فطرة النفس البشرية، وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه، والله الذي خلق القلب البشري، هو الذي أنزل اليه هذا الدين، ليحكمه ويصرفه، ويشفيه من المرض، ويقومه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير والفطرة ثابتة، والدين ثابت، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة، لم يردها اليه إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر، وفطرة الوجود»[1].

فأنت ترى من خلال تفسير ابن كثير، والزمخشري، وسيد قطب: أن الفطرة هي الاسلام.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ما من مولود يولد الا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة عجماء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا ﴿... فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...﴾[2]. قالوا يا رسول الله: أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرشدنا الى أن تغيير هذه الفطرة يقع بتأثير الوالدين، أو تأثير البيئة، ولذلك شبه المولود بالبهيمة الجمعاء، التي تولد سليمة، مجتمعة الخلق، لا تغيير فيها ولا تشويه، ولكن الناس يغيرون خلقها بعدئذ، فيشقون آذانها أو غير ذلك. فالفطرة لو تركت دون تأثير خارجي، سواء من الوالدين أو غيرهم، وأزيحت عنها العوائق من الشبهات والشهوات، فهي تقتضيه بذاتها لدين الاسلام[3].

ويقول أحد المفكرين: وعامة السلف، وجمهور المحدثين، على أن المراد

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٧٦٧.

(٢) سورة الروم آية رقم: ٣٠.

(٣) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد السابع عشر ص ٢٠ بتصرف.

بالفطرة في الحديث: الاسلام. وقالوا: ان فطرة الله التي فطر الناس عليها هي: الاسلام، وذكر هذا عن كثير من السلف في تفسير الآية السابقة[1]. قالوا: دين الله هو الاسلام، والأدلة على ذلك كثيرة:

أولاً: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ذكر هذا الحديث سألوه عن أطفال المشركين، فقال لهم: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[2]. فلو لم يكن المراد بالفطرة الاسلام، لما سألوه عن ذلك، لأنه لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة، ما داموا بين أبوين كافرين، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه»: يبين أنهم يغيرون الفطرة التي ولدوا عليها.

ثانياً: لقد شبه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة غير مجدوعة، لا نقص فيها، ثم يطرأ عليها النقص بعد ذلك بجدعها فعلم من ذلك أن التغيير وارد على الفطرة السليمة.

ثالثاً: الحديث مطابق لما في الآية الكريمة: ﴿. . . فطرت الله التي فطر الناس عليها. . .﴾[3] وهذه الآية وصف الله بها الدين الذي أمر نبيه بأن يقيم وجهه له في قوله: ﴿. . . فأقم وجهك للدين حنيفاً. . .﴾[4] ثم قال: ﴿فطرت الله﴾. والاضافة هنا: للمدح والتشريف، فعلم أنها فطرة ممدوحة، لا مذمومة: ويؤيد هذا كله الروايات الأخرى التي فسرت الفطرة بأنها: الحنيفية، وبأنها هذه الملة، يعني: الاسلام.

رابعاً: ولو كانت الفطرة هنا شيئاً غير الاسلام، لكان الرسول ـ صلى الله عليه

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾.
سورة الروم آية رقم ٣٠.

(٢) يقول ابن منظور في كتابه «لسان العرب» تعليقاً على هذا النص النبوي يذهب الى أنهم انما يولدون على ما يصيرون اليه من اسلام أو كفر.
لسان العرب جـ: ٥، ص: ٣٤٣٤. مادة (فطر).

(٣) و(٤) سورة الروم الآية رقم: ٣٠.

وسلم ـ قد ذكر الاسلام في جملة ما ذكر من الأديان التي تفسد الفطرة بالتحول اليها، ولقال: «فأبواه يهودانه وينصرانه أو يسلمانه» ولكنه لم يذكره، لأنه الـدين الذي تتغير الفطرة بتحولها عنه، وليس بتحولها اليه[1].

واذا كانت الفطرة تقتضي الاسلام، فهذا يعني: طروء الكفر، وأنه ليس هو الأصل في النفس البشرية، وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا تبـديل لدين الله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. . .﴾[2].

أخرج ابن كثير في تفسير هذه الآية قول قتادة: ﴿كان الناس امة واحدة﴾ قال: «كانوا على الهدى جميعاً ثم اختلفوا فيه»[3].

وأما ما جاء في سورة الكهف في قصة موسى ـ عليه السلام ـ والرجل الصالح الذي قتل الغلام، فلا يعني هذا: أن كفر هذا الغلام كان موجوداً حين الولادة، لذلك جاء في الحديث الصحيح: «أن الغلام الذي قتله الخضر طبـع يوم طبـع كافراً، ولو بلغ لأرهق أبويه طغياناً وكفراً»[4]. فقوله (طبع) أي طبع في الكتاب، أي: قدر وقضى، فهو مولود على الفطرة السليمة، ولكن يتغير بعدئذ فيكفر، كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء، وقد سبق في علمه ـ سبحانه وتعالى ـ أنها تجدع، كتب

---

(١) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر في الفكر الاسلامي ص ٢٣٤، ط: مطبعة الحلبي بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

(٢) سورة البقرة آية ٢١٣،

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥.

(٤) رواه مسلم في صحيحه في موضعين، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر جـ ٤ ص: ١٨٥٢، وكتاب القدر باب كل مولود يولد على الفطرة، جـ: ٤، ص: ٢٠٥٠، ورواه الترمذي في صحيحه، تفسير سورة الكهف جـ: ٤، ص: ٣٧٤. وقال: حديث حسن صحيح.
ورواه أحمد في مسنده جـ ٥، ص ١١٩ ـ ١٢١.
ورواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب القدر جـ ٤، ص ٢٢٧.

أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الولادة[1].

وقد قتل الصحابة في سرية من السرايا أولاد المشركين، فأنكر عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فقالوا: أليسوا أولاد المشركين فقال: «أليس خياركم أولاد المشركين؟»[2]. ثم قام فيهم خطيباً فقال: «ألا ان كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه»[3].

فهذا يبين أن الكفر طرأ بعد ذلك[4].

ومما ينبغي معرفته في ذلك: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا قال: «كل مولود يولد على الفطرة» يعني: على الاسلام أو الحنيفية فليس المراد أنه خرج من بطن أمه، وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، لأن الله يقول: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[5]. ولكن المراد أن فطرته موجبة ومقتضية لمعرفة كل ما هو حق، ومحبة كل خير، ونفس الفطرة تستلزم الاقرار بالحق، ونشدان الخير، ولهذا فقد استدل بالفطرة السليمة على معرفة الخالق ـ سبحانه ـ، والاقرار بربوبيته، لأن معرفته رأس الخير كله، وموجبات الفطرة تحصل بعد ذلك شيئاً بعد شيء، بحسب درجة استعداد الطفل لتحصيل ألوان المعارف، وحرصه على ذلك وبحسب كمال فطرته، اذا سلمت من المعارض[6]، فالفطرة الطبيعية تتجلى في الطفل صريحة، دون

---

(١) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد: ١٧، ص: ٢١.

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، جـ ٥، ص: ٨٤. رقم الحديث ٤٧١١.

ورواه أحمد في مسنده جـ ٢ ص: ٢٦٦، ٢٩٣، ٤٧١.

(٣) بهذا اللفظ: أحمد في مسنده، جـ: ٣ ص: ٣٥٣.

ورواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة جـ ٤، ص: ٢١٤٨.

(٤) محمد سليمان، من مشكاة النبوة، مجلة البيان، العدد ١٧، ص: ٢٢.

(٥) سورة النحل، آية ٨٧.

(٦) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر ص ٢٣٥.

تكلف أو تصنع[1].

واذا كان من البدهيات في حس كل مسلم ومسلمة أن خالق هذه الفطرة هو منزل هذا القرآن، وهو الله ـ تعالى ـ فمن الطبيعي أن نعلم يقيناً أن هذا الدين لا بد أن يكون موافقاً للفطرة، اذ يستحيل أن يكون في دين الله أو شرعه أمر يخالف ويعارض ما فطره عليه، فالحكيم العالم بما خلق، ومن خلق، يضع الشريعة المناسبة له، والملائمة لخلقه، وكل أمر شرعي يخطر في بالك أنه يعارض الفطرة، فيجب أن تعلم أنه لا يخلوا من احتمالين:

الأول: أما أنه أمر شرعي ولا يخالف الفطرة الصحيحة المستقيمة فمخالفته للفطرة وهم.

والثاني: واما أن يخالف الفطرة فعلاً، ولكنه لا يكون أمرا شرعياً، وان نسبه الناس الى الدين بغير علم ولا هدى[2].

ومن الخصائص الأساسية للعقيدة الاسلامية: أنها عقيدة الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فعندما دعا الاسلام البشر جميعاً الى الايمان بالله والعبودية له وحده، كان لهذه العقيدة صدى في أعماق فطرة الانسان[3]... فهي مخالفة لفطرة الانسان، وحينما جاء الاسلام موافقاً للفطرة الانسانية السليمة دخل الناس في دين الله أفواجاً، لأنه تعامل مع رصيد الفطرة المكنون، وهو رصيد ضخم هائل لا تقف أمامه أي قوة، حين يستنقذ، ويجمع، ويوجه، ويطلق في اتجاه سليم مرسوم[4].

وحسبنا في بيان هذا أن نشير الى: أن الاسلام في ناحية العقيدة لا يأمر الا بعبادة اله واحد، لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك فلم يقل بالهين اثنين

(١) د. علي عبد العظيم، ان الدين عند الله الأسلام، ص ٢٥ ط: مجمع البحوث الأسلامية بالأزهر، القاهرة سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

(٢) سلمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة، ص ٩ ط: الرياض سنة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م.

(٣) د. السيد رزق الطويل، العقيدة في الإسلام ص ٨٧، ط. المجلس الأعلى للشئون الأسلامية بالقاهرة سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

(٤) سيد قطب، هذا الدين ص ٥٠، ط: سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

متشاكسين، كما قالت الثنوية، حين زعم دعاتها: أن الحياة صراع بين اله الخير وإله الشر، وليس فيه شيء من الأسرار المسيحية مثل «سر التثليث» و «سر القربان» وتحوله الى لحم المسيح ودمه، هذه الأسرار التي لا يصل أحد من رجال المسيحية أنفسهم الى أن يدركوها ادراكاً عقلياً صحيحاً، ولهذا يطلبون من أتباعهم الايمان بها، دون محاولة فهمها، ولكن هيهات، وفكرة الوساطة في المسيحية بين الله وعباده فكرة لا يستسيغها العقل ولا يرى لها ضرورة، ولا يعرف لها غاية، فانه لا معنى لتوسط رجل من رجال الدين بين الله، وبين أحد من الناس، والله العليم بكل نفس ولا حجاب بينه وبين أحد من خلقه، ولهذا يرى الاسلام أن لكل واحد أن يتجه لله مباشرة بعقله، ويرفع اليه رجاءه بلا وسيط من رجال الدين[1]، وفي هذا جاء في القرآن الكريم: ﴿واذا سألك عبادي عنى فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان. . .﴾[2]، وكذلك فكرة أن الانسان ولد وجاء الى هذه الحياة مثقلاً بالخطيئة الأصلية التي لا يستطيع منها فكاكاً، وتقول بها المسيحية، ونعرفها نحن من كتبها التي بين أيدينا، وهم يعنون بها أن الانسان يولد وعليه وزر خطيئة آدم ـ عليه السلام ـ جده الأعلى حين خالف عن أمر ربه، وأكل من الشجرة التي حرم الله قربانها، وبذلك يحملونه وزراً لم يجنه، ويجعلونه يعيش طول حياته وهو رازح تحت أثقال هذه الخطيئة المزعومة، ومن ثم يطلبون من الانسان أن يؤمن بعقيدة الصلب والفداء، أي: صلب المسيح الاله، تفدية للبشر مما لحقهم من هذه الخطيئة الأصلية[3].

وكيف يستطيع عقل الانسان أن يؤمن بأن «الاله» ـ كما زعموا ـ يتمكن منه أعداؤه، فيصلبونه وهو يستغيث، ولا مغيث له، على حين يقول القرآن الكريم ـ كتاب الاسلام ـ عن آدم عليه السلام: ﴿. . . وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه

---

(١) كان على الدكتور/محمد يوسف موسى الذي نقلت عنه هذا النص من كتابه الأسلام وحاجة الأنسانية اليه، الا يستعمل عبارة رجال الدين في الجانب الذي يخص المسلمين لأنه لا يوجد في الأسلام رجال دين، وإنما علماء دين.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٣) د. محمد يوسف موسى، الأسلام وحاجة الأنسانية اليه، ص٤٣.

ربه فتاب عليه وهدى﴾[1]. كما يقرر أنه ليس للانسان الا ما سعى، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، كما يقرر من ناحية أخرى: أن الانسان يولد بريئاً من كل ذنب أو خطيئة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وأن من يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأن الله ـ تعالى ـ أمره هو القوي العزيز، فلا ينال منه أحد[1].

وفطرية العقيدة دليل واقعيتها ورسوخها، وتقبل الناس في يسر لها كما أنها عنصر هام في تأثيرها في الاخلاق والسلوك، وحوار القرآن الكريم للمشركين، وتقديم هذه التساؤلات لهم:

- ﴿... أفي الله شك...﴾[3].
- ﴿... أءله مع الله...﴾[4].
- ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق...﴾[5].
- ﴿... هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه...﴾[6].

يؤكد أن لهذه التساؤلات صدى في أعماق الناس، يدفعهم إن استقامت فطرتهم الى الجواب السديد[7].

فالاسلام دين الفطرة دون منازع، أي: أنه الدين الذي يتلاءم كل الملاءمة مع الخليقة، ومن هنا صح لنا ولغيرنا أن نسميه دين البشرية وما كان الاسلام ليسمى دين البشرية اعتباطاً أو تحمساً، ولكن ما جاء به هذا الدين من دستور يقبله العقل، وهداية يستنير بها القلب، وعمق يرتكز عليه الايمان، وتطور يصلح لكل زمان ومكان، وشريعة تنظم أحوال المجتمع، ومساواة تربط بين جميع الناس، وتأمين

---

(١) سورة طه، الآيتان ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) د. محمد يوسف موسى، الأسلام وحاجة الأنسانية اليه ص: ٤٣.
(٣) سورة ابراهيم، آية رقم: ١٠.
(٤) سورة النمل، الآيات: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.
(٥) سورة النحل، آية رقم: ١٧.
(٦) سورة لقمان آية: ١١.
(٧) د. السيد رزق الطويل، العقيدة في الأسلام ص ٨٨.

للنفس البشرية يجعلها تطمئن الى حياة أخرى، تلقى النعيم بقدر ما قدمت من خير ـ مع فضل الله ورحمته ـ كل ذلك وغيره جعل الاسلام أقرب إلى طبيعة النفس البشرية ديناً ترتضيه وسراجاً تهتدي به، وصمام أمان يرد على النفس طمأنينتها اذا هزها ريب، أو اعترتها شكوك[1].

والحقيقة أن في فطرة الانسان فراغاً لا يملؤه علم وثقافة، ولا فلسفة وانما يملؤه الايمان بالله ـ جل وعلا ـ[2] فاعتقاد الأفراد والجنس الانساني بأسره في الخالق، اعتقاداً اضطرارياً، قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، ومهما صعد الانسان بذاكرته في تاريخ طفولته، فلا يستطيع أن يحدد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار في حياته، فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا، ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا[3].

«فالطفل حين ولادته لا يكون لديه إدراك لهذا الأمر، ولا تعقل له ولا إرادة، في تحصيله، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[4]. ولكنه يولد وفي فطرته قوة تحصيل النافع، وكلما ازداد الطفل علماً وارادة حصل له من معرفته بالخير، وطلب النافع، بحسب ذلك العلم والارادة، وهذا مشاهد في حياة الأطفال، قبل بلوغ سن الأدراك والتمييز، فانهم يحبون النافع لهم، ويهربون من الضار، بحسب كمال تمييزهم أو ضعفه، وكل ذلك يحدث فيهم على التدريج شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل الى الحد الذي ليس في الفطرة استعداد لقبوله، كمعرفة

---

(١) د. مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص: ٣٩، ط: البابي الحلبي بمصر، سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة في الأسلام، ص ١١، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

(٣) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، جـ ١ ص: ٣١٤. ط: الأولى بمصر. د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية ص ١٦.

(٤) سورة النحل، الآية رقم ٧٨.

الغيبيات، وقضايا الألوهية، فتتوقف الفطرة عن قبول ذلك، ما لم تهتد بما جاءت به الرسل الذين بعثوا لتكميلها»[١].

ولا شك أن النفوس يحصل لها من العلوم بحسب ما تكتسبه منها، وإذا لم يكن في النفوس قوة تقتضي معرفة هذه العلوم، لما استطاعت أن تعلم شيئاً منها، ولعل أكبر دليل على ذلك: أننا لو قمنا بمحاولة لتعليم الانسان والحيوان، لما حصل للحيوان من العلوم مثل ما يحصل لبني آدم منها، مع أن السبب في الموضعين واحد، فالانسان يشارك الحيوان في الاحساس والنمو والحركة الإرادية، ولكن الحيوان ليس بقابل لما يقبله الانسان من المعارف، ولولا أن في الفطرة قوة تقتضي اختصاص الانسان بذلك لما حصل له من العلوم ما يميزه عن الحيوان[٢].

ويذكر الباحثون: أنه إذا ما اشتد الجوع بالانسان، فانه بفطرته يبحث عن الطعام، ليسد جوعه، واذا ما برح به الظمأ فانه بدافع من فطرته يبحث عن الماء ليروي غلته، وإذا ما اشتد عليه البرد، فانه بسوق من فطرته يتلمس ما يدفع به البرد عن نفسه، وأما ما يتكون في نفسه، من خيالات وعواطف وأفكار، فانه يعمل فكره باحثاً عما يعبر من خلاله عنها، من كلمات أو اشارات بالحاح من فطرته، وفي النفس الانسانية مطامح روحية، وأشواق غيبية، لا بد للانسان وأن يبحث عما يشبعها ويقنعها، وذلك أمر فطري أيضاً[٤].

ان من فطرة الانسان أن يبحث عن وجود خالق، وأن تجذبه فطرته للعبادة، وأن توقد الشوق في نفسه، وتنبه عقله للحاجة اليها، وقلما تجد أحداً لا يلقى ذلك في نفسه[١].

---

(١) د. محمد السيد الجليند، قضية الخير والشر، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٣) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص: ٥٩، ط: دار العاصمة بالرياض سنة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

(٤) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٥٩، ط: دار العاصمة بالرياض، سنة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

فالنفوس لا يمكن أن تكون خالية عن الشعور والارادة والحركة، لأن هذه المعاني من لوازم كونها نفساً، فالشعور والارادة من لوازم حقيقتها ولا تتصور النفس الا أن تكون شاعرة ومريدة، وما دامت هي مريدة وشاعرة، فلا بد لها من مطلوب مراد ضرورة كونها مفطورة على ذلك، وكل مراد فإما أن يراد لنفسه أو يراد لغيره، والنفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة، غير أنها على كثرتها، لا بد أن تنتهي إلى مراد واحد، تكون إرادتها له بذاته لا لغيره، منعاً للتسلسل في العلل الغائية، وذلك المراد لنفسه هو الخير والحق، الذي يتمثل في معرفة الله أولاً، باعتباره حقيقة الحقائق، وواهب كل خير، ثم معرفة النافع للنفس ثانياً ولا تخلوا كل نفس عن هذا اللون من المعرفة، لأن ذلك من لوازم كونها نفساً وعلى هذا الأساس المغروز في طبائع كل بني آدم، كانت مخاطبة القرآن للناس على سبيل التفكير[1].

وهنا يمتاز الاسلام بمراعاته للفطرة البشرية، وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها[2].

لقد جاء الاسلام موافقاً لطبيعة الانسان، مراعياً رغباته، غير متنكر لضروراته، يكرم دوافع جسده، وحاجات شهوته، لا يعاديها ولا يستقبحها ولا يدمر نفس الانسان ولا يحارب فطرته، باسم الروحانية والسمو، والتطهر والملائكية، والترفع على الشهوات الهابطة، إن الاسلام جاء ليأخذ بيد هذه الدوافع ليجندها، ويوظفها في سبيل عمارة الأرض، وبقاء البشرية، ودوام الحياة يعترف بانسانية الانسان، وبحاجاته الفطرية، ويوجهها إلى الله، ويربطها بطاعته، وهي تدرك أوطارها وتلبي آمالها، يجمع في آن واحد بين رغبات الجسد وأشواق الروح، وغايات الحياة، بتناسق وتوافق بديع[3].

---

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جـ ٤، ص ٩٦، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط: الأولى، جامعة الأمام محمد بن سعود الأسلامية سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
ابن القيم، شفاء العليل، ص ٢٨١، ط: مكتبة المعارف بمصر.

(٢) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص ٣٦، بتصرف.

(٣) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة، ص: ٣٦ - ٣٧.

ويمتاز الاسلام عن غيره من الأديان بأن النفس متى ارتضته وآمنت بروحه، واطمأنت إلى تعاليمه، لا تحيد عنه أو ترتضي غيره بديلاً، ذلك لأنه أقرب إلى طبيعة النفس البشرية، ولذلك فإننا لم نجد مسلماً خرج عن اسلامه الى غير الاسلام، الا في حالات نادرة، لا يكاد يحسب لها حساب، فهذه فرنسا ـ على سبيل المثال ـ قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٢٤٥ هـ ـ ١٨٣٠ م وظلت مائة وثلاثين سنة، حاربت فيها الاسلام حرباً لا هوادة فيها، وبثت المبشرين في جميع أصقاع تلك البلاد، فما استطاعوا أن يخرجوا غير مسلم واحد عن دينه، أي أن مائة وثلاثين سنة من هدم الاسلام، والتنصير المسيحي، لم تستطع أن تخرج من الاسلام إلا مسلماً واحداً[1]، وما ذلك الا لأنه أوفق دين للخليقة، وأنسب عقيدة للانسان، بينما نرى كل يوم عشرات من أبناء الديانات الأخرى، الى يومنا هذا يدخلون في الاسلام، راضين متحمسين، ومن هنا كان فضل الاسلام على الشعوب عظيماً، لقد مدن الاسلام كثيراً من الأمم، بل ما من شعب اعتنق الاسلام الا وسار في مدارج الحضارة، وآية ذلك واضحة في جزيرة العرب نفسها، التي انتقلت بعد اسلام أهلها الى أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنشر راية العرفان والايمان، خفاقة في جميع أنحاء المعمورة ولم يعرف للعرب من الانتصارات الباهرة، والفتوحات الرائعة ما قد عرف لهم قبل إسلامهم[2].

ومن ثم «فنشر الاسلام وسيادة عقيدته، قديماً وحديثاً في أسرع وقت وبأيسر جهد، إنما يرجع إلى واقعية هذا الدين، وبساطة عقيدته، ولم يشهد التاريخ تحولاً جماعياً لأمم وشعوب، كانت في ذروة الحضارة، كما شهد في الاسلام، اذ اعتنقته جماعات بأسرها، مرحبة بعقيدته السمحة، ومبادئه الواقعية، واجدة فيه الخلاص الأكبر من جاهلية توبق النفس، ووثنية تزهق الروح، وركام يطمس الفطرة»[3].

---

(١) د. مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) د. مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب، ص: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) توفيق محمد سبع، واقعية المنهج القرآني، ص ٨٢ ـ ٨٤، ط: مجمع البحوث الأسلامية بالأزهر سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

ان الاسلام دين الفطرة، عقيدته تستمد ضياءها، وصفاءها، وتألقها، من وهج الفطرة التي رأها الله، طاهرة ناصعة، ولقد تعجب إذ ترى الدول الصليبية تنفق أموالاً طائلة على التبشير (التنصير) بالنصرانية وتحويل المسلمين عن إسلامهم، تساند ذلك بالوسائل العلمية، ولكنها وبرغم الجهود المضنية لا تظفر على المدى الطويل، باجتذاب أحد إلى النصرانية أو استهواء جماعة الى الكفر، وأنا أقصد الذين تمكنت منهم عقيدة الفطرة... أما الذين يعيشون في فراغ عقيدي، فهم المرتع الخصب لأهداف الدول الصليبية، مما يدعو الأمة الاسلامية، بل يوجب عليها اعداد الدعاة ومواجهة التحديات، ومما لا يكاد يخفى: «أن الفطرة في الاسلام ليست تفكيراً خالصاً، ولا شعوراً محضاً، انها مزيج من التفكير والشعور، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كما يخاطب الفكر والشعور معاً، يخاطب العقل والقلب جميعاً، والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول الى عقيدة راسخة، وفكرة كلية واضحة، تفسر هذا الوجود، وتحل ألغازه. قد جاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه، وأهملوا جانباً مهماً في الفطرة الانسانية، هو جانب الشعور والوجدان، جانب العقل. كما أغلقوا على أنفسهم بابا واسعاً، ما كان أحوجهم اليه، وما أضل سعيهم بغيره، هذا الباب هو: باب الوحى»[1].

ولا بد لنا من أن نتبين الفرق بين الفطرة والتقليد، فالتقليد نوع من التبعية للآخرين... أما الفطرة: فنور موثوق به، في داخل الانسان، يحتوي على ضمان أحقيته في ذاته. وكل الأدلة الخارجية كونية أو عقلية، إنما هي منبهات على هذه الفطرة، ولا يصرف الانسان عن عقيدة الفطرة، إلا أهواء غالبة، أو نزوع الى تقليد الأباء والأجداد، وبهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات الى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الاول الى أقوامهم: ﴿... أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...﴾[2]. ﴿... اعبدوا الله ما لكم من اله غيره...﴾[3]. فالكون وما فيه من نظام، وأحكام، وتناسق، وابداع، ليس هو وحده

(١) د. يوسف محيي الدين أبو هلالة، دعوة الفطرة ص ٦١ ـ ٦٢.
(٢) سورة النحل الآية رقم ٣٦.
(٣) سورة الأعراف الآية رقم: ٥٩، ٨٥. وذكر القرآن الكريم هذا القول على لسان نوح وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ.

الشاهد، وانما هناك شاهد آخر، هو الشعور المغروس في النفس الانسانية، وهو شعور فطري، فطر الله الناس عليه، وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية.

فالعقيدة الاسلامية عقيدة الفطرة، تتناسق تعاليمها مع الفطرة السليمة البعيدة عن الاهواء، ويجد العقل المستنير في تعاليمها: الحق والخير، لانها منزلة من عند الخالق العالم بما خلق. «وعلى ذلك فالاسلام لا يعتمد في ثبات تلك العقيدة، وغرس شجرتها في القلب على مجرد التلقين، ولا يريد من الناس أن ـ يعتنقوها عن تقليد، بل لا بد من قبولها عن فهم ونظر وبحث وادراك»[1].

وللفطرة الصحيحة معالمها الواضحة، وسماتها البارزة، وأنوارها الساطعة والحق واحد لا يتعدد، لانه خط مستقيم، والخط المستقيم هو: أقصر طريق بين نقطتين، ولذلك لا يكون الا واحداً، ولعل أول معلم في دين الفطرة هو: أن يعرف الانسان ربه معرفة واضحة صادقة. والتوحيد الذي هو حق الله على عباده غرسه الله في طبائع الناس، يخرج به كل مولود، ولا يميل عنه الا من حاد عن الجادة، وانصرف عن سلامة الخلقة.

لقد جاء الدين الاسلامي مقراً بالفطرة، غير متنكر لها، وجاء هذا الدين موافقاً لهذه الفطرة في عقائده وأحكامه، ولذلك سمى دين الفطرة. وجاء الدين منظماً للفطرة، ففتح أمامها الابواب والطرق السليمة، التي تلبي حاجتها وتشبع جوعها، لئلا تنحرف الى غيرها. وجاء الدين ـ أيضاً ـ مزكياً للفطرة موجهاً لها نحو الافضل والاطهر[2].

وبعد هذا البيان في كون عقيدة الاسلام هي: عقيدة الفطرة والحياة، فقد حدد الاسلام ذلك بآيتين، وأولى الآيتين: ذكرت الفطرة بحروفها، في قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد، خصائص العقيدة الأسلامية ص١٦٦، (ندوة محاضرات العالم الأسلامي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م).
(٢) سلمان بن فهد العودة، نداء الفطرة لدى الرجل والمرأة ص: ٩ ـ ١٣ بتصرف واختصار.

تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. . .﴾[1]. فالآية ـ كما ترى ـ تشير الى عقيدة الفطرة التي طبع عليها الانسان.

وثاني الآيتين، قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم. . .﴾[2]. فإذا جمعنا بين آية الحياة وآية الفطرة، وعطفناهما معاً على قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿. . . ان الدين عند الله الاسلام. . .﴾[3]. يكون المعنى المحصل من مجموع الآيات الثلاث: أن الاسلام هو دين الفطرة والحياة، ولهذا كانت الفطرة عاملاً مهماً من العوامل التي فتحت الطريق أمام الاسلام، ليملأ القلوب، وجعلت الناس يقبلون على الاسلام أفراداً وجماعات.

---

(١) سورة الروم، الآية رقم ٣٠.
(٢) الأنفال آية: ٢٤.
(٣) آل عمران آية: ١٩.



العالمية



العالمية

العقيدة بالدين حاجة روحية، ضرورية لصلاح البشر فلا يختص بها فريق من الناس، دون باقي البشر، لذلك كانت الحاجة ماسة الى دين عالمي، يكون دعوة الى جميع شعوب الأرض قاطبة، أبيضها وأسودها، وأحمرها عربيها وعجميها. هكذا لا بد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للبشر، العامة منهم والخاصة، تشعر كلا منهم أن له عقيدة يطمئن اليها وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا والآخرة، بالله وبالانسان، فالناس أمة واحدة في هذا الدين الجديد، هذا الدين هو دين البشر[1].

ويكون عالمياً: بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية، وبعدم انحصار تطبيقه في اقليم خاص، أو بيئة معينة. ويكون عالمياً بامتداد هدايته أزماناً طويلة تتجاوز العصر الذي بدأت فيه. بمعنى أن يكون الدين صالحاً لكل جنس، وكل جيل ولكل زمان ومكان، وبمعنى آخر: يكون الدين عالمياً: اذا كان شريعة الانسان من حيث هو انسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة، التي لا تدخل في ماهية الانسان كانسان، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أي دين[2].

ونود أن نتعرف على الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالمياً وصالحاً لكل زمان ومكان. ونجمل هذه الخصائص في ثلاث:

١ ـ وفاؤه بحاجة الانسانية جميعاً، فيما يصون وحدتها، ويرعى انسانيتها ويحمي أفرادها في العاجل والآجل.

---

(١) محمد عزت الطهطاوي، النصرانية والأسلام، ص: ٣٠٨. ط: مكتبة النور، بالقاهرة، سنة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

(٢) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة اليه، ص: ١٠.

٢ ـ تشريعاته التي تضمن قيام الانسانية كلها في محيط واحد، لا تنزع معه الى عصبية دم، أو اختلاف لون، أو فرقة جنس.

٣ ـ اتساقه مع حقائق الكون، وخصائص الوجود، بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر[١].

وكذلك لا يكون عالمياً الا اذا صحب الانسان في جميع أزمانه المتطورة، وعصوره المتلاحقة، أي: يكون خالداً، لا يعتريه نسخ أو زوال ولا عقم ولا جمود، موفياً بجميع مطالب الانسان المتنوعة المتجددة في كل الميادين التي يزاول فيها الانسان بعقله الواسع نشاطه الكامل. ولا يوجد دين من الأديان السماوية فيه هذه المواصفات التي تجعله عالمياً، إلا دين الاسلام[٢].

والعالمية من القيم التي تنبثق من عقيدة الاسلام، لأن مجتمع الاسلام هو مجتمع الانسانية كلها، مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود[٣].

فالرسالة الاسلامية قد توجهت للناس كافة، من جميع الأجناس والألوان، وفي كل العصور... وبالعالمية التي اتصف بها الاسلام، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه الى أقوام بعينهم، في عصر معين[٤].

ولذلك نرى القرآن الكريم يتحدث عن أقوام بلغتهم رسالات سماوية، وينسبهم القرآن الى أنبيائهم، كما في الحديث عن قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل.

---

(١) محمد الرواي، الدعوة الاسلامية دعوة عالمية، ص: ٤٦، ط: دار العربية، ببيروت.
(٢) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة اليه، ص: ١١.
(٣) د. ابراهيم عوضين، الأسلام والأنسان، ص: ٢٨١، ط: المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية، بالقاهرة، سنة: ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٤ م.
(٤) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الأسلامي، ص: ١٠، ط: المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً الى قومه. . .﴾[1].

﴿والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره﴾[2].

﴿والى ثمود أخاهم صالحاً. . .﴾[3].

﴿ولوطا اذ قال لقومه. . .﴾[4].

﴿والى مدين أخاهم شعيب. . .﴾[5].

﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه﴾[6].

وقال تعالى في شأن عيسى ـ عليه السلام: ﴿ورسولاً الى بني اسرائيل. . .﴾[7].

فهذه النسبة هي التي تبين وتوضح أن الرسالة مخصوصة بهؤلاء القوم، فقد أرسل الأنبياء باصلاح أقوام، أو مجتمعات بعينها، وحققت هذه الرسالات أهدافها، بتصحيح أصل العقيدة، ومنهاج الحياة، فيما يحتاج الى اصلاح[8].

وترى في آيات القرآن الكريم أمثلة كثيرة للاصلاح في العقيدة، حينما يتوجه الأنبياء الى من أرسلوا اليهم بالبعد عن الشرك، وبعبادة الله وحده.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله إلا أنا فاعبدون﴾[9].

كما نرى أن بعض الأنبياء توجه بجانب الدعوة الى عبادة الله وحده بتوجيهات تتعلق بالسلوك أو المعاملات بين الناس، مثل عدم ارتكاب الفاحشة: ﴿ولوطاً اذ

---

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٥٩.
(٢) سورة الأعراف آية رقم: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف آية رقم: ٧٣.
(٤) سورة الأعراف آية رقم: ٨٠.
(٥) سورة الأعراف آية رقم: ٨٥.
(٦) سورة الأعراف آية رقم: ١٠٣.
(٧) سورة آل عمران آية رقم ٤٩.
(٨) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الأسلامي، ص: ١٠.
(٩) سورة الأنبياء، آية رقم ٢٥.

قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾[1].

أما الاسلام: فهو يهدف إلى رسم اطار المنهاج الالهى لحياة البشر في كل زمان ومكان، ولذلك غطى منهجه العقيدة، والأخلاق، والتشريع، بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة والمؤقته بين بني الانسان، والتي لا صلة لها بفطرة الانسان، كما خلقه الله جسداً وروحاً، وباستعداده الفطري للاتجاه الى الملأ الأعلى.

فلا يخفى أن الانسان بحسب فطرته ينزع الى البحث فيما وراء ذاته، أو الموجودات التي تدركها حواسه، وهي فطرة الانسان التي يتساوى فيها الانسان العالم في المدينة، مع الانسان البدائي في قلب الغابة... واستجابة لهذا النزوع الذي لا يختص به انسان دون آخر، ولا جنس دون غيره، فان الاسلام يقدم له العقيدة التي تستجيب لكافة تطلعاته، حين يرتقي الانسان، ويستشرف آفاقاً عالية في علاقاته مع غيره[2].

وان الانسان وهو يتابع عالمية الاسلام يلحظ بوضوح: أن العالمية في الاسلام، قد قامت على عناصر متكاملة:

أولاً: وحدانية الاله، وانكار تعدد الآلهة، ومن هنا كان أساس الايمان في شريعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون بالله وحده لا شريك له، وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه... واقتضى هذا العنصر:

١ ـ وحدانية الربوبية. فلا خالق، ولا مدبر، ولا متصرف سواه.

٢ ـ ووحدانية الألوهية. فلا معبود، ولا مسؤول، ولا مستعان سواه. وبالوحدانية بشقيها دعا الاسلام[3].

فالايمان بالله معناه: افراده ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية، والربوبية، فلا شريك

---

(١) سورة الأعراف آية رقم: ٨٠.

(٢) جمال الدين محمود، أصول المجتمع الأسلامي، ص: ١١.

(٣) محمد الطهطاوي، النصرانية والأسلام، ص: ٣١١ ـ ٣١٢ بتصرف.

له في الخلق، ولا شريك له في تصريف الأمور، ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد، ولا يرزق الناس معه أحد، ولا ينفع أو يضر غيره أحد، ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيراً أو كبيراً الا باذنه ورضاه[1].

اذن هذا الايمان الذي جاء به الاسلام: هو الايمان الشامل الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض الى يوم القيامة الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائر في موكب الدعوة، وموكب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وموكب الايمان الممتد في شعاب التاريخ البشرى، الايمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها الى نهايتها[2].

قال تعالى: ﴿يا أيها النـاس اعبدو ربكم الـذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾[3].

ثانياً: الايمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء، سواء منها ما أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما أنزل على اخوانه الأنبياء السابقين، لأن هذا الايمان عنصر من عناصر الاسلام، لا يتحقق الا به[4].

قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنـون كل آمن بـالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير﴾[5]. فالايمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ـ عز وجل[6].

ثالثاً: الايمان بجميع الرسل الذين أرسلهم الله الى عباده، من لدن آدم ـ عليه

---

(١) و(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ١، ص: ٣٤، ٣٤١ بتصرف.
(٣) سورة البقرة الأيتان: ٢١ ـ ٢٢.
(٤) محمد الطهطاوي، النصرانية والإسلام، ص: ٣١٨.
(٥) سورة البقرة، آية رقم: ٢٨٥.
(٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ١، ص: ٣٤٢.

السلام ـ الى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله اصطفاهم من عباده وحملهم رسالته عن طريق ملائكته.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...﴾[2].

فالايمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقتضي صدق كل الرسل، الذين يبعثهم الله، ويقتضي الايمان بوحدة الأصل، الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله بالاسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين ارسل اليهم، حتى انتهى الأمر الى خاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء بالصورة ـ الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها الى يوم القيامة[3].

فالايمان بوحدانية الله، والايمان بكتبه، ورسله، عناصر رئيسية في العالمية التي جاء بها الاسلام... ولكن الا ترى معي: أن عالمية الاسلام قضية لا بد لها من أدلة تدعمها، وشواهد تثبتها، ولهذا سأحاول أن أعرض هذه الادلة لتكون علائم الكمال، ومعالم الطريق في عالمية الدين الاسلامي.

المجموعة الأولى: أدلة تعتمد على ما ورد في كتاب الله، وسنة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله وفعله. اذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة... وأدلة الكتاب: جاءت منها آيات مكية، تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الاسلامية من ايامها الأولى، ومنذ أشرقت على الناس، كما جاءت منها آيات مدنية تنبىء عن العالمية واستمراريتها.

(١) سورة النحل، آية رقم ٤٣.
(٢) الشورى آية ١٣.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن: جـ: ١، ص: ٣٤٢، بتصرف.

ومن الآيات المكية: قوله تعالى: ﴿وما هو الا ذكر للعالمين﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ان هو الا ذكر للعالمين﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرءان مبين. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾[4].

ومعنى من كان حياً: كل من ثبتت له الحياة[5]. وهذه الآية تبين وظيفة القرآن: بأنه نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لينذر به من به حياة[6].

وقوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿. . . وأوحى الى هذا القرءان لأنذركم به ومن بلغ. . .﴾[8].

وقوله: ﴿ومن بلغ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، وقيل: من الثقلين، وقيل: من بلغه القرآن الى يوم القيامة[9].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ومن بلغ): قول آخر، وهو أن يكون بمعنى:

---

(١) سورة القلم، آية، رقم: ٥٢.
(٢) سورة التكوير، آية رقم ٢٧. وسورة يوسف، آية رقم ١٠٤.
سورة الأنعام، آية: ٩٠.
(٣) سورة الأعراف آية رقم: ١٥٨.
(٤) سورة يس، الأيتان: ٦٩ ـ ٧٠.
(٥) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة اليه، ص: ١٨.
(٦) سيد قطب في ظلال القرآن، جـ: ٥، ٢٩٧٥.
(٧) سورة الفرقان، آية رقم ١.
(٨) سورة الأنعام ١٩.
(٩) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ: ٦، ص: ١٨٨.

احتلم، وبلغ حد التكليف[1].

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا اليك قرءانا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾[3].

وأم القرى: هي مكة. وهي قلب الأرض، بمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا[4] ومن حولها: أهل البدو والحضر[5]. ويشمل كل الناس غير المقيمين فيها فكل حي على وجه الأرض مقيم حول مكة، فهي مركز الدائرة، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمي[6].

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[7].

---

(١) المصدر السابق. ويقول سليمان بن عمر الشهير بالجمل في تفسيره في «ومن بلغ» ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه في محل نصب عطفاً على المنصوب في «لأنذركم»، وتكون «من» موصولة، والعائد عليها من صلتها محذوف، أي: ولأنذر الذي بلغه القرآن.

والثاني: أن في «بلغ» ضميراً مرفوعاً يعود على «من» ويكون المفعول وهو منصوب المحل - أيضاً - نسقاً على مفعول «لأنذركم»، والتقدير ولأنذر الذي بلغ الحلم، فالعائد هنا مستقر في الفعل.

والثالث: أن «من» مرفوعة المحل، نسقاً على الضمير المرفوع في «لأنذركم» وجاز ذلك لأن الفصل بالمفعول والجار والمجرور أغني عن تأكيده. والتقدير: لأنذركم به، ولينذركم الذي بلغه.

الجمل الفتوحات الألهية جـ: ١، ص: ١٤.

(٢) سورة سبأ، آية رقم ٢٨.

(٣) سورة الشورى، آية رقم ٧.

(٤) عبد القادر احمد عطا، لمذا بعث الرسول في مكة؟ ص: ١٣.

(٥) الفخر الرازي، التفسير الكبير جـ: ١٤، ص) ١٤٨.

(٦) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة اليه ص. ١٩.

(٧) سورة الأنبياء، آية رقم ١٠٧

هذه معظم الآيات المكية التي جاء فيها التأكيد الواضح لعالمية الاسلام.

أما الآيات المدنية:

فقوله تعالى: ﴿. . . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا. . .﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة. من الخاسرين﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً. . .﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[4].

واذا انتقلنا بعد ما ذكرنا من آيات القرآن الكريم، الى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله.

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة، وبعثت الى كل احمر وأسود»[5].

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إني رسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة»[6].

وفي كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى جيفر وعياذ ابنى الجلندي

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم ٢٠.
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٥.
(٣) سورة آل عمران، آية رقم ٦٤.
(٤) سورة التوبة، آية رقم ٢٣.
(٥) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الساجد جـ: ٥، ص: ٣.
(٦) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، جـ: ١، ص: ٥٣٣.

ملكي عمان، قوله: «فاني رسول الله الى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين»[1].

وفي حديث البراء بن عازب ـ عند حفر الخندق ـ في غزوة الاحزاب، وقد اعترضت المسلمين صخرة، وهم يحفرون، جاء قولهم: فاشتكينا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فجاء وأخذ المعول فقال: «باسم الله، ثم ضربه فنثر ثلثها». وفي رواية: فخرج نور أضاء ما بين لابتي المدينة، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله اني لأرى قصورها الحمر الساعة من مكاني هذا». قال: ثم ضرب الثانية، فقال: «باسم الله»، فقطع ثلثاً آخر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله اني لأبصر قصر المدائن الأبيض». ثم ضرب ثالثة، وقال: «باسم الله، فقطع الحجر وقال: الله اكبر» أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء»[2].

وعن عدي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له: «ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى». قلت: كنوز كسرى بن هرمز؟ قال: «كنوز كسرى بن هرمز». وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز»[3].

وقال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «انكم ستفتحون مصر وهي: أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها، فاحسنوا الى أهلها فان لهم ذمة ورحماً... أو قال: ذمة وصهرا»[4].

---

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية، جـ:١، ص: ٢٢٥، ط: البابي الحلبي، بمصر.

(٢) رواه أحمد في مسنده، جـ: ٤، ص: ٣٠٣ بنفس اللفظ
ورواه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، غزوة الترك والحبشة، جـ: ٦، ص: ٤٣، مع اختلاف في الألفاظ.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة جـ: ٦، ص: ٦١.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، جـ: ٤. ص: ١٩٧٠، رقم الحديث: ٢٢٧. ورواه احمد في مسنده، جـ: ٥، ص: ١٧٤، جـ: ٥، ص: ٣٧٨.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلي: نصرت بالرغب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجد وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، واحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة، وبعثت الى الناس كافة».

هذه الأحاديث وغيرها ـ مما جرى مجراها في التبشير بالفتح، ونشر دين الله، تدل دلالة اكيدة، لا لبس فيها ولا غموض، على عالمية الدين الاسلامي، وأنه سينشر في هذه الأصقاع والأمصار، التي أشارت اليها الاحاديث وغيرها.

المجموعة الثانية:

تقوم أدلتها على العوامل الأساسية، اذ أن المقومات الأساسية، الخالدة للاسلام: أنه قائم على العقل والبرهان، وأن هناك ـ أصولاً أولية يتألف منها دستور علمي، يوجه الى ينابيع الحكمة، وهي تنحصر في هذه الكليات التي تفيد: دوام النظر، والتفكير في الوجود اجمالاً، وفي الكائنات التي فيه تفصيلاً، ودرس أحوال الأمم، والاعتبار بها، وتنور نواميس الاجتماع من خلالها، والاستهداء بالأعلام المنصوبة في الوجود لهداية السالكين الى الحقائق الخالصة من الشوائب، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية، ومن الهوى في الحكم على الأشياء، والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال، الذي قدره الخالق للانسان في هذا العالم، واعتبار وحدة الانسانية، وأن الناس ما قسموا الى أمم وشعوب وقبائل، ليتخالفوا ويتناكروا، وانما ليتعارفوا ويتحابوا[1].

ويضاف الى ما سبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية الاسلام: ان كلمة «الاسلام» لا تدل على اسم شخص بعينه، أو أمة بعينها، وانما تدل على صفة مخصوصة يضمنها معنى الاسلام.

---

(١) عطية صقر، الدين العالمي ومنهج الدعوة اليه، ص: ٢٤ ـ ٢٥.

ويظهر من هذا الاسم: أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال، وليس خاصاً بأمة معينة، دون سائر الأمم، وانما غايته أن يحلى الأرض جميعاً بصفة الاسلام، فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها في المستقبل»[1].

فالكلمة اذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة، تتسع لماضي الناس وحاضرهم ومستقبلهم، كما اتسعت نبوات الأنبياء جميعاً، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر.

والاسلام بلغة القرآن: ليس أسماً لدين خاص، انما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب اليه كل أتباع الأنبياء[2].

المجموعه الثالثة:

أدلة واقعية، وهي كثيرة، وكلها تشهد لعالمية الاسلام وأنه دين الانسانية كلها.. وسنحاول ان نشير الى الحقائق الواقعية التالية:

أولاً: كان من السابقين الى الاسلام أبو بكر العربي، وبلال الحبشي. وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي.

وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كان من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً فيهم، مألفاً لهم. وكان اليه الأشناق[3] في الجاهلية. كان اذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه، وان احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه.

فلما جاء الاسلام سبق اليه، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم

---

(١) أبو علي المودودي، مبادىء الأسلام، ص: ٣ ـ ٤، ط: المكتب الأسلامي ببيروت. محمد الراوي، الدعوة الأسلامية دعوة عالمية، ص: ٧٥.
(٢) محمد الرواي، الدعوة الأسلامية دعوة عليمة، ص: ٧٥.
(٣) الأشناق: هي الديات. /ابن الأثير، أسد الغابة ج: ٣: ص: ٣١٠.

اليه[1].

وأما بلال بن رباح: فقد اشتراه ابو بكر -رضي الله عنه- واعتقه لله -عز وجل-، وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: ابو بكر سيدنا، واعتق سيدنا، يعني بلالا.

وقال مجاهد: أول من أظهر الاسلام بمكة سبعة: رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وعمار، وبلال، وسمية أم عمار[2].

واما سلمان الفارسي: فأصله من فارس. وكان ببلاد فارس مجوسياً، سادن النار[3]. فجاء الى العرب في قصة طويلة وأسلم.

وأما صهيب الرومي: فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة[4] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل.

ويقال: ان صهيباً لما كبر وعقل هرب وقدم مكة، فحالف ابن جدعان وأقام معه، ولما بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اسلم، وكان من السابقين الى الاسلام.

قال الواقدي: اسلم صهيب وعمار في يوم واحد، وكان اسلامهما بعد بضعة

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٣١٠.
(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٥، ص: ٤٨١.
(٣) ابن الأثير، أسد الغابة جـ: ٢، ص: ٤١٧.
(٤) هي: بلدة على شاطىء دجلة، على بعد اربعة فراسخ من البصرة في زاوية الخليج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة. وهي اقدم من البصرة كان سكانها قوم من الفرس، يعملون في البحر، فلما قرب منهم العرب نقلوا ما خف من متاعهم وعيالهم الى مدينة سيدان.
وهي في قول ابن سيرين: القرية التي مر بها موسى والخضر -عليهما السلام- فأستطعما اهلها، فأبوا ان يضيفوهما. وقد نسب الى الأبلة جماعة من اهل العلم، منهم: سيبان بن فروخ الأبلي، وحفص بن عمر بن أسماعيل الأبلي وغيرهما.
ابن قتيبة، المعارف، ص ١٥.
ياقوت الحموي معجم البلدان جـ: ١، ص: ٧٦ - ٧٨ محمد ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار ص: ٨ - ٩.

وثلاثين رجلاً[1].

فماذا يعني دخول الرومي، والأفريقي، والفارسي، والعربي في الاسلام؟ يعني وبكل تأكيد: أن الاسلام جاء للانسانية كلها.

ثانياً: ومن الحقائق الواقعية في التعامل الاسلامي الدال على عالمية الاسلام: «انه نادى كل الناس» فكانت العقيدة المذهبية التي وضعها للاسلام، والمبدأ العام الذي يحسب ان تسير عليه البشرية في تطورها، لتصل الى غايته هو المعبر عنه في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم. ان الله عليم خبير﴾[2].

والآية الكريمة ـ كما نرى ـ: خاطبت الناس ﴿يا أيها الناس﴾ أي: البشر جميعاً، وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشري، نحواً من اربعين ومائة مرة، كثير منها ورد خطاباً للبشر عموماً كهذه الآية السابقة، وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم...﴾[3].

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا...﴾[4].

﴿... يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم...﴾[5].

وجاءت كلمة الناس في معرض الحض على تقديم الخير للناس في كثير من الآيات:

قال تعالى: ﴿... وقولوا للناس حسنا...﴾[6].

﴿... والعافين عن الناس...﴾[7].

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ: ٣، ص: ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣، وانظر: محمد المبارك، الحج والتوعية الأسلامية، ص: ٩٦، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الأسلامي) ط١: وزارة الحج والأوقاف، مكة المكرمة، سنة: ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.

(٣) سورة البقرة، آية رقم ٢١.

(٤) سورة البقرة، آية رقم ١٦٨.

(٥) سورة يونس، آية رقم ٢٣.

(٦) سورة البقرة، آية رقم ٨٣.

(٧) آل عمران، آية رقم ١٣٤.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم. . .﴾[1].

﴿لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس. . .﴾[2].

﴿. . . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. . .﴾[3].

﴿. . . والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس. . .﴾[4].

وكلمة الناس استعملت في القرآن الكريم، بمعنى: الجنس البشري عموماً، لا بمعنى المسلمين العرب، أو العرب، بدليل قوله تعالى في الآيات الآتية مما لا يمكن حمله الا على الناس عموماً.

﴿. . . ان الله لذو فضل على الناس. . .﴾[5].

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس. . .﴾[6].

﴿. . . وتلك الأيام نداولها بين الناس. . .﴾[7].

﴿زين للناس حب الشهوات. . .﴾[8].

﴿قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً. . .﴾[9].

ان استعمال هذه الألفاظ: (الناس) و(الانسان) يرسخ معنى الانسانية العام، ووحدة الجنس البشري، ذلك أن القرآن الكريم، لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً، بل يخاطب الانسان بوجه عام[10].

---

(١) سورة الشعراء، آية رقم ١٨٣.
(٢) سورة النساء، آية رقم ١١٤.
(٣) سورة النساء، آية: ٥٨.
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٦٤. وسورة يونس، آية رقم ١٩٠.
(٥) سورة البقرة، آية رقم ٢٤٣. وسورة غافر، آية رقم ٦١.
(٦) سورة البقرة، آية رقم ١٨٩.
(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٤٠.
(٨) سورة آل عمران آية رقم ١٤.
(٩) سورة الأعراف، آية رقم ١٥٨.
(١٠) محمد المبارك، الحج والتوعية الأسلامية، ص: ٩٧، ضمن كتاب: (استراتيجية العالم الأسلامي).

فالاسلام ـ كما يفهم من النصوص القرآنية ـ جاء ليقيم رابطة الانسانية القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق، فهم جميعاً عباد الله لا ليجعل شعباً معيناً شعبَه المختار.

والرسول الذي أمر بتبليغ الاسلام، خوطب في القرآن الكريم على هذا الأساس: ﴿قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً. . .﴾. ولم يرسل ليكون هادياً الى قومه وحدهم، كما أرسل موسى هدى لبني اسرائيل، وكما أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ الى خراف بني اسرائيل الضالة[1]. انما ارسل ليكون للناس أجمعين.

ثالثاً: ومن الحقائق الدالة على عالمية الاسلام: الكتب والرسائل التي بعث بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ملوك الامم، يدعوهم فيها الى الاسلام.

يقول ابن هشام: بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسلاً من أصحابه بكتب معهم كتباً الى الملوك، يدعوهم فيها الى الاسلام.

ـ فبعث دحية بن خليفة الكلبي، الى قيصر ملك الروم.
ـ وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس.
ـ وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة.
ـ وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية.

وأشار ابن هشام، في سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى كتبه ورسائل أخرى الى ملوك عمان، واليمامة، والبحرين، وتخوم الشام[2].

ومن أمثلة هذه الكتب: ما أرسله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى النجاشي، اذ قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد ـ رسول الله ـ الى النجاشي ملك الحبشة. . . أسلم أنت، فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو،

---

(١) المصدر السابق، ص: ٩٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ: ٤، ص: ٢١٧، باختصار شديد.

الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمين. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، خلقه الله من روحه ونفسه، كما خلق آدم بيده. واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فاني رسول الله، واني أدعوك وجنودك الى الله ـ عز وجل ـ فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

وفي هذه الرسالة دعوة ملك الحبشة الى الايمان بالاسلام، والدخول فيه، وكذلك الرسائل الأخرى، توجهت بالدعوة الى دين الاسلام. ففي رسالة هرقل. ـ عظيم الروم ـ قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فاني أدعوك بدعوة الاسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين»[2]. وفي الرسالة المبعوثة الى كسرى ـ ملك الفرس ـ: أسلم تسلم فان أبيت فعليك اثم المجوس»[3] وكذلك تضمنت الرسالة المرسلة الى المقوقس عظيم مصر: «فاني أدعوك للاسلام، فاسلم تسلم، وان يسلم قومك يؤتك الله أجرك مرتين»[4].

فكتب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تؤكد الدعوة الاسلامية، التي جاءت للناس أجمعين.

والباحث في عالمية الدين الاسلامي: يجد أن هذه العالمية نطقت بها آيات القرآن الكريم، وجاءت بها السنة النبوية، وأكدها واقع الدعوة الاسلامية من سرايا،

---

(١) على الأحمدي، مكاتيب الرسول، ص: ١٢١.
الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية جـ: ٤، ص: ٤٢١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدأ الوحي، جـ: ١، ص: ٣٢. وفي كتاب الجهاد، جـ: ٦، ص: ١٠٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه، وما كتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى كسرى وقيصر، والدعوة قبل القتال، جـ: ٦، ص: ١٠٨.

(٤) رواه الزيلعي، فى نصب الراية، جـ: ٤، ص: ٤٢١.

وغزوات، وفتوح، واستقبال للوفود، وكتب للملوك في العالم.

والأدلة على عالمية الاسلام اكثر من أن تذكر، وتتجلى في الاسلام واحكامه وتشريعه، واخلاقه، وفضائله، وكل ومضة من ومضاته، واشراقه من اشراقاته.

الاستمرارية

الاستمرارية

كان من السمات البارزة للدين الاسلامي: أنه جاء لكل الناس، وقد أكد ذلك الواقع الذي عاشته الدعوة الاسلامية في بدايتها ومسيرتها في الحياة، فأثبتت الدعوة الى الاسلام: أن الاسلام للناس أجمعين، ومن ثم كانت العالمية سمة بارزة من سمات الاسلام.

واذا كنا عرضنا للعالمية ـ فيما سبق ـ، فان الأمر يقتضي أن نتعرف على الاستمرارية، لأنها عامل من العوامل الذاتية، التي دفعت الناس الى التعرف على هذا الدين، والدخول فيه.

والاستمرارية تفيد خلود الاسلام، واستمرار بقائه، وامتداد رسالته، ما دامت البشرية تواصل حياتها على هذا الكوكب، وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون هذا الدين الذي يلازم البشرية في مسيرتها، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو في حياتها، هو دين الاسلام، لأنه الدين المؤهل لانارة الطريق أمام الانسان وقيادته نحو الخير والصلاح.

والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الاسلام: ﴿إن الدين عند الله الاسلام...﴾[1]. تعني مجموعة المبادىء الاسلامية، وتعاليم الاسلام.

فالاسلام مر بمراحل كبيرة، عبر أنبياء الله ورسله، الى أن انتهى الى المرحلة التكاملية في رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي جاءت الى الانسانية كلها[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم ١٩،

(٢) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الأسلامية، ص: ١٤٥.

فالاسلام يشتمل على امتداد زماني في المعتقد الديني، يعرض لقضية البشرية من نشأتها الى غايتها.

ويشتمل على شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعاً. ويشتمل ـ أيضاً ـ على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها الى تصحيح معتقداتها والانخراط في سلك الذين أسلموا لله.

وهذا الطابع الشمولي هو الذي جعل من الاسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر[1].

ولقد كان الاسلام في صورته التي بلغها محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الدين الذي ارتضاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ديناً أبدياً. وكما أن كل شيء مرده في النهاية الى ارادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ واختياره، فيجب أن نعلم ان اختيار الله لهذا الدين، واصطفاه لرسوله قد كان بالحق.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[2]. ﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله...﴾[3] يظهر ذلك في طابع هذه الرسالة وخصائصها، التي تنطق في جملتها وتفصيلها بأنها خاتمة الرسالات وأنها لذلك أبدية، لا تنسخها شريعة أخرى الى قيام الساعة[4].

ولذلك كانت تعاليم رسالة الاسلام، لا تغيب عن الناس، ولن تغيب وسوف تبقى ثابتة. وكل الشواهد تدل على ذلك:

فهي أولاً: مجموعة من الحقائق في العقيدة، والشريعة، والأخلاق،

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٤٤، ١٤٦.
(٢) سورة الصف، آية رقم ٩.
(٣) سورة المائدة، آية رقم ٤٨.
(٤) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص: ٤٣.

والحقائق لا تتغير مهما تغير المكان، أو تغير الزمان. وما هو ثابت في نفسه، يستوي في ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق وعند قيام الساعة.

وهي ثانياً: مسجلة في القرآن الكريم، الذي نقله جبريل ـ عليه السلام ـ عن الله بأمانة تامة، ونقله كذلك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل ونقله الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من رسولهم، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون، حتى بلغت به إلينا، مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً وسنورثه نحن ـ بإذن الله تعالى ـ غيرنا، وهكذا إلى يوم القيامة.

وهي ثالثاً: واقعية، بمعنى أنها تعايش الانسان، وتقدم له الحلول العلمية لمعاشه وسعاده، وتحيط به في النواحي التي يتجه اليها، وبذلك تحقق لدى ـ الناس تذكراً دائماً[1].

واستمرارية الاسلام تشهد لها آيات القرآن الكريم، واحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ذلك:

وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾[2].

يقول ابن كثير: «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، واذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس»[3].

ثم انه ـ سبحانه وتعالى ـ أكد ذلك بقوله: (وخاتم النبيين) اي: هو آخر نبي بعثناه في العالم، ولن يأتي بعده نبي، فضلاً عن أن يأتي رسول[4].

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٢٠٨.
(٢) سورة الأحزاب، آية رقم: ٤٠.
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ٤٢٣.
(٤) أبو الأعلى المودودي، ختم النبوة في ضوء القرآن والسنة، ص: ٦، ترجمة خليل احمد الحامدي، طبع ونشر: مكتبة الرشد، بالرياض، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

وقال تعالى: ﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[1].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بنيانا، فأحسنه وأجمله، الا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[2].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب واحلت لي الغنايم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وارسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيون»[3].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «ان الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولا نبي. قال: فشق ذلك على الناس. قال: قال: ولكن المبشرات.

قالوا يا رسول الله: وما المبشرات؟. قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة»[4].

والامام ابن كثير - بعد أن اورد كثيراً من الاحاديث النبوية التي جاءت في ختم النبوة - يقول: «والاحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله بالعباد: إرسال محمد - صلوات الله وسلامه عليه - إليهم، ثم من تشريفه له، ختم الأنبياء والمرسلين به، واكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر - تعالى - في كتابه، ورسله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده»[5].

---

(١) سورة الحجر، آية رقم ٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين، جـ ٤، ص: ١٧٩١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، جـ: ١، ص: ٣٧١.

(٤) رواه احمد في مسنده، جـ٣، ص: ٢٦٧ ورواه الترمذي في صحيحه باب ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات، جـ: ٩، ص/١٢٦.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٦، ص: ٤٢٥.

ولقد نجد معنا هذا الختم يتغلغل في كل نواحي الرسالة الاسلامية، حتى أنه لا يستقيم فهمها الا في ضوء هذا المعنى. وآيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - كثرة كاثرة، من التصريحات والتنبيهات والاشارات تؤكد أن الاسلام خاتم الأديان السماوية، وان محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين والمرسلين[1].

ومن هنا كانت تعاليم الاسلام لن تقصر عن البشر، مهما وصل مستواه، لأن تعاليم الاسلام اتجهت لسائر الدعوات السابقة وصدقتها، وكملت بما يناسب الرقى الانساني.

فقد راعت تعاليم الاسلام في هيمنتها: الارتقاء العقلي للانسانية، فدعت الى وحدانية مطلقة لله في الذات والصفات والأفعال، واجتثت الوثنية بأشكالها وألفاظها، وتأثيراتها السيئة على الأفراد وعلى الجماعات، بحيث لا يخضع الانسان الا لخالقه، ولا يعبد الا الله - سبحانه وتعالى.

وأيقظت هذه التعاليم العقل من نومه، فعابت على المقلدين، والاتباع الذين كان شعارهم: ﴿... انا وجدنا أباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾[2].

وأمرت بالنظر والتدبر، ووجهت الانسان الى الآيات والبراهين ﴿... لقوم يعقلون﴾[3]. ﴿... لعلهم يتفكرون﴾[4].

وأتى الاسلام في كل مجال بتوجيه رائع، واصلاح سليم، ولم يترك مشكلة

---

(١) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم..، ص: ٦ - ٧، بتصرف.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٢٣. وفي سورة الزخرف، آية: ٢٢ يقول فيها رب العزة: ﴿بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون﴾.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٦٤، ومادة (عقل) تكررت في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً. محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص/٤٦٨، - ٤٦٩.

(٤) سورة الحشر، آية: ٢١، ومادة (فكر تكررت في القرآن الكريم في أكثر من ثمان عشرة مرة. محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٥٢٥.

الا أزالها، ولا عقدة الا حلها، ولا خطأ الا أصلحه[1].

يقول محمد عبده: «لم يدع الاسلام أصلاً من أصول الفضائل الا أتى به، ولا أماً من أمهات الصالحات الا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده حرية الفكر، واستقلال العقل، وما به صلاح السجايا، واستقامة الطبع، وما فيه انهاض العزائم الى العمل، وسوقها في سبل السعي ومن يتل القرآن حق تلاوته، يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد، وذخيرة لا تفنى... هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟... كلا قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق الا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة، لبلوغ الغاية من السعادتين، لهذا اختتمت النبوات بنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتهت الرسالات برسالته»[2].

وهناك أحاديث جاءت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعرض لاستمرارية الاسلام، حتى تقوم الساعة... روى المغيرة بن شعبة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[3].

وروى معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ وهو يخطب، قال: سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وانما أنا قاسم، والله ـ عز وجل ـ يعطي، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً، حتى تقوم

---

(١) د. أحمد غلوش، الدعوة الأسلامية، ص: ٢٠٩، بتصرف.
(٢) محمد عبده، رسالة التوحيد، ص: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الصيام، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، جـ: ١٣، ص: ٢٩٣.
ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم.

الساعة، أو حتى يأتي أمر الله»[1].

وروى مسلم مثل ذلك عن جابر بن سمرة، وعن جابر بن عبد الله، كما روى عن عقبة بن عامر، قوله: وأما أنا: فسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[2].

وروى أبو امامة الباهلي من خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحذيره من الدجال أنه قال: «وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم»[3].

فهذه الأحاديث النبوية: تعرب في وضوح عن استمرارية الاسلام وصلاحيته الى أن تقوم الساعة، وما دامت أمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخر الأمم، فانه لا يوجد بعده نبي آخر، حتى لا تكون أمة بعد أمته.

وقد سبق لنا، ونحن نعرض (عالمية الاسلام): أن عرفنا أن من أقرب الدلائل على عالمية الاسلام، نداء القرآن الكريم الانسان: (يا أيها الناس) في كثير من الأيات. وهذه الدلائل تفيد في الوقت نفسه: استمرارية الاسلام الذي جاء لإصلاح حال الانسان في الأرض.

كما أن من الأدلة الضرورية على استمرارية الاسلام: ان ختم النبوة يقتضي بقاء الشريعة، وعلى ذلك فالشريعة الاسلامية باقية بقاء الانسان، لأنه لا ينتظر نبي آخر، يمكن معه انتظار شريعة أخرى، فلم يكن بد ما دامت النبوة قد ختمت أن تكون شريعتها الخاتمة، هي: المنهاج الذي يصلح لكل زمان ومكان، والا يحتمل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأعتصام بالكتاب والسنة باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم، جـ: ١٣، ص: ٢٩٣.
ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهى عن المسألة، جـ: ١٠، ص: ٢٤٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، جـ: ٣، ص: ١٥٢٥.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه، أبواب الفتن، جـ: ٢، ص: ٣٩٩، رقم الحديث: ٤١٢٨.

النسخ، ولا التبديل، ومهما تتجدد الحوادث، وتظهر المسائل والمشاكل فلا بد ان يجد الناس في هذه الشريعة هدايتهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الشريعة الاسلامية خاتمة الشرائع وجعلها في متناول الجميع الى يوم القيامة، وجعلها هداية كاملة مكتملة، لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً، لا في مجموعها، ولا في باب من أبوابها.

الشمولية



* لقد اتسم الاسلام باعتباره دين الحياة، وشريعته شريعة الزمان كله، والأجيال كلها، اتسم بالاحاطة والاستيعاب والشمول. لم تند عنه من حياة الناس أو مشكلاتهم أو أقضيتهم، شاردة أو واردة، صغيرة أو كبيرة، سواء في ذلك بداوتهم أو حضارتهم، وتقدمهم مع يسر الحياة أو تعقدها، إذ احتوت نصوصه من صور المرونة والحيوية، ما أتاح للناس بها حرية الحركة، وبسرعة التكيف، ويسر الأداء، ومنحهم من أجل ذلك القرآن والسنة، منها ينطلقون، وفي ظلالها يسيرون، وفي نورها يهتدون ويستنيرون.

* ومن هنا كان الشمول من الخصائص التي تميّز بها الاسلام، عن كل ما عرفه الناس، من الأديان، والفلسفات، والمذاهب بكل ما تتضمنه كلمة الشمول من معانٍ وأبعاد[1].

* فالاسلام نظام شامل لكافة شؤون الحياة، وسلوك الانسان، وهذا الوصف للاسلام وصف حقيقي ثابت للاسلام، لا يجوز تجريده منه، الا بالافتراء عليه حقداً وكراهية، أو بسبب الجهل به وشمول الاسلام هذا لشؤون الحياة، وسلوك الانسان لا يقبل الاستثناء، ولا التخصيص[2]. فالتصور الاسلامي لتكوين الانسان تصور واقعي، يتطابق مع طبيعة هذا المخلوق، لأن مصدر هذا التصور هو الخالق الذي خلق، ويعلم من خلق.

---

(١) د/يوسف القرضاوي: الخصائص العام للإسلام ص ٩٩.
(٢) د/عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص: ٤٩، ط: دار عمر ابن الخطاب بالأسكندرية سنة ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م.

* واذا قيل: ان الانسان يتكون في اجمال من البدن الذي يمثل الجانب المادي، والقلب الذي يمثل الجانب الروحي، والعقل الذي يمثل الجانب الفكري فان التصور الاسلامي لهذا التكوين يتميز عن غيره من المذاهب الفاسدة، والديانات المنحرفة في جانبين:

الجانب الاول: عطاء الاسلام لهذه العناصر الثلاثة في نموها واشباعها.

الجانب الثاني: تحقيق التوازن في نمو هذه العناصر نمواً منتظماً متكاملاً، لا يطغى فيه جانب على آخر[1].

* فالنظرة العامة للتصور الاسلامي تحقق هذا التوازن، الذي يصلح لعامة الناس ولخواصهم، فيجمعون بين القلوب التقية، والأبدان القوية، والعقول الذكية[2].

* ولكي نقيم الحجة على شمول الاسلام، فيما تناوله من شؤون الحياة، وشموله في عطائه للانسان، نتناول مظاهر الشمول فيما يأتي:

أولاً: شمول العقيدة الاسلامية:

* وذلك أن العقيدة الاسلامية، عقيدة شاملة، من أي جانب ينظر الانسان اليها، لقد جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة في الاله الواحد الأحد، صحّحت فكرة الفلسفة النظرية، كما صحّحت فكرة العقائد الدينية. فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ في جانب النقض منها ـ أعظم المعجزات التي أثبتت في حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة، أنه وحي من عند الله[3].

* ومن ثم ـ كما يقول العقاد ـ: كانت هذه العقيدة الالهية في الاسلام

---

(١) د/محمود رأفت سعيد: التوازن في التصور الأسلامي ص: ٨ـ ٩ بتصرف وأختصار، ط: دار الهداية بالمنصورة سنة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨.

(٢) المصدر السابق ص: ١٥.

(٣) العقاد، حقائق الإسلام واباطيل خصومه جـ: ٥، ص: ٤٠. ضمن مجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

مصححة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة، ومباحث الربوبية.

* فهي عقيدة كاملة، صححت المعتقدات في (الكارما والنرفانا) باعتبار أنها عقيدة في خواء أو فناء مسلوب الذات، لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

* وهي عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه، ساقه هذا الخطأ الى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الارادة، والتجرد من الروح.

* ودين يصحح العقائد الالهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها[1].

* وما كان الشمول في العقيدة الاسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً، بغير بخس ولا افراط في ملكة من هذه الملكات[2].

* والعقيدة الاسلامية توصف بالشمول، لانها تفسّر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الانساني، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم، الذي يخرج الانسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً، فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الانسان دون قضية الالوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الاخروي فان عقيدة الاسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح ووضوح

---

(١) العقاد/حقائق الأسلام واباطيل خصومه جـ: ٥، ص: ٦٠ ـ ٦١ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء ص: ٣٢.

شامل[1].

* ولهذا جاءت تشريعات الاسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الانسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره، والناظر في تشريعات الدعوة الاسلامية، يرى أنها كانت مع الانسان، جنيناً في بطن أمه، وبعد مولده، وفي شبابه، ورجولته، وتسايره هكذا في اطواره المختلفة، حتى يأتيه أجله[2].

* وتتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها الاسلام في رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقه فيه، وكل تحوّر، وكل تغير، وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه، الى ارادة الذات الالهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة[3].

* وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، ولا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار[4].

* وشمول العقيدة الاسلامية، هو الذي حقق للاسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى، من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية، والبرهمية في مصر وسوريا، وفارس، والهند، والصين.

* ان شمول العقيدة الاسلامية، هو العامل القوي الذي يجمع اليها النفوس، ويحفظ لها قوة الايمان[5].

ثانياً: شمول العبادة في الاسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الاسلامي في عباداته كما تمثلت في عقيدته، فالعبادة

---

(١) د/يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٠٦.
(٢) د/أحمد غلوش، الدوة الأسلامية ص: ٢٠٠.
(٣) سيد قطب، خصائص التصور الأسلامي ص: ٩٢ ط: دار الروق سنة ٥٤٠٠/١٩٨٠ م.
(٤) د/يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام ص ١٠٨.
(٥) العقاد، حقائق الأسلام واباطيل خصومه ص: ٢٦.

في الاسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها، بلسانه ذاكراً، داعياً، تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً، راجياً، محبّاً، متوكلاً، وبعقله متفكراً، متأملاً وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته - سبحانه وتعالى -[1] قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[2]. وان هذا النص القرآني الكريم - كما يقول الشهيد سيد قطب -: ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة. ومن جوانب هذه الحقيقة: ان مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد اقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الانسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قوله الله - سبحانه وتعالى - ﴿وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة...﴾[3]. فالخلافة في الأرض عمل هذا الكائن الانساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها، وتحقيق الارادة الالهية في استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة: القيام على شريعة الله في الأرض، لتحقيق المنهج الالهي الذي يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة - التي هي غاية الوجود الانساني، أو التي هي وظيفة الانسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً[4].

واذا كانت العبادة غاية الوجود الانساني كما هي: غاية كل وجود، فان مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد الى الذهن، والذي يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التي يؤديها المؤمن.

والعبادة بمعناها العام: تعني السير في الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه

---

(١) د/ يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام ص: ١٠٨ - ١٠٩.
(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦ - ٥٨.
(٣) البقرة آية ٣٠.
(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن جـ٦، ص: ٣٣٨٦ - ٣٣٨٧ بتصرف واختصار.

وتعالى ـ وفق شريعته الغراء[1].

والعبودية ـ كما بيّنها شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ـ تشمل كل ما يحب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال[2].

ولقب العبادة: يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط الآتية:

١ ـ أن يكون العمل نافعاً ومفيداً، وصالحاً في الحياة.

٢ ـ ان يراد بهذا العمل وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لارتباط الأعمال بالنيات «انما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى»[3].

٣ ـ أن يؤدي العمل بلا مخالفات شرعية «فكل عمل ليس عليه أمرنـا فهو رد»[4].

فإذا تحققت هذه الشروط في أي عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: ان نلقبه بالعبادة، وانه مما يحب الله ويرضى، وانه في سبيل الله[5].

والغرض من العبادات ـ كما يذكر العقاد ـ: تنبيه المتدين الى حقيقتين، لا ينساهما الانسان في حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة الاولى: التي يراد من العبادة المثلى ان تنبه اليها ضمير الانسان على الدوام ـ هي: وجوده الروحي، الذي ينبغي ان تشغله على الـدوام بمطالب غيـر مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية: التي يراد من العبـادة المثلى ان تنبه إليهـا ضميره ـ هي: الوجود الخالد الباقي، الى جانب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية.

---

(١) د/عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية ص: ١٤٨.

(٢) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص: ٤، ابن تيمية، الفتاوي جـ ١٠، ص: ١٤٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوحي، باب كيف كان الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، جـ: ١، ص: ٩، وفي كتاب الإيمان باب ما جاء من الأعمال بالنية جـ: ١، ص: ١٣٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري كتاب البيوع باب النجش.

(٥) د/محمد رأفت سعيد، التوازن في التصور الأسلامي، ص: ٢٧ ـ ٢٨.

وعبـادة المسلم في جميع فـرائضها تتكفـل له بـالتنبيـه الـدائم الى هـاتين الحقيقتين[1].

لقد عدّ الاسـلام قضية التـوحيد قضيتـه الأولى، وقضيته الكبـرى. توحيـد الألوهية، وافرادها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبـودية لكـل شيء، ولكل حيّ، وتجريدها من خصائص الالوهية جميعاً[2].

قال كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ: مرّ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال: «ان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»[3].

وعن ابي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن أناساً، قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، ان بكل تسبيحة صدقـة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر»[4].

ثالثاً: شمول التشريع الاسلامي:

والتشريع الاسلامي تشريع كامل بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الانسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره الا وللشريعة حكم فيها[5].

---

(١) العقاد، حقائق الإسلام واباطيل خصومه ص: ١١١ ـ ١١٢ باختصار.

(٢) سيد قطب، مقومات التصور الأسلامي، ص: ١١٦، ط: دار الشروق.

(٣) اورده المنذري في الترغيب والترهيب، جـ٢، ص: ٥٢٤. بهذا اللفظ عن طريق كعب بن عجرة ورواه البيهقي في السنن الكبرى جـ٧، ٤٧٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصرة جـ: ٢، ص: ٣٥٢.

(٥) د. عبد الكريم زيدان، اصول الدعوة ص: ٥١.

ان الاسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا لـلأسرة دون المجتمـع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات. ان تشريع الاسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم العبادات في الفقه الاسلامي.

ويشمل التشريع الفرد في سلوكـه الخاص والعـام، وهذا يشمـل ما يسمى الحلال والحرام، او الحظر والاباحة[1].

وارتبط التشريع الاسلامي بالايمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذي ينظم شؤون الحياة في جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، اذ ان ـ رسالة الاسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة الانسان في الدنيا تنظيماً يربطها بالعقيدة، ويخضعها لاحكام التشريع الاسلامي[2].

والاسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الاساس، انما يهدف الى غاية يعمل على تحقيقها في كل جوانب الحيـاة، هذه الغـاية هي: صـلاح المجتمع الاسلامي، وتحقيق الخير والفلاح له في كل شؤون حياته، ودفع الضرر والفساد الذي يصيب الفرد أو المجتمع، إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره[3].

كما أن الشريعة الاسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وانما هي شريعة كل وقت، وكل عصر، وكل زمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن يراجع احكام الشريعة، يجد انها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعـة، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جدتها، ولا يقتضي تغيير قواعدها العـامة،

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص: ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) د. عبد العظيم فوده، الحكم بما انـزل الله ص: ٢١، ط: دار الصحوة بـالقاهـرة سنة ١٤٠٧. هـ ١٩٨٧ م.

(٣) المصدر السابق ص: ٢١.

ونظرياتها الاساسية[1].

ولهذا وجدنا التشريع الاسلامي يشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع، والاجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان، وغيرها[2].

والباحث في التشريع الاسلامي وما جاء به يكتشف في وضوح: ان التشريع الاسلامي شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الافراد، وعباداتهم، وسيرهم، واخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم في الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشؤون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والادارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الاجنبية، وما اليها[3]. مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد في الفقه الاسلامي. . . ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة، الا دخل فيها التشريع الاسلامي، آمراً، أو ناهياً أو مخبراً[4].

وحسب الباحث والدارس: ان أطول آية نزلت في كتاب الله ـ تعالى ـ نزلت في تنظيم شأن من الشؤون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليّه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر

---

(1) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الأسلامية. ص: ١٦٨، ط: جامعة الأمام محمد ابن سعود الأسلامسة سنة ١٤٠١ هـ.
(2) د. يوسف القرضاوي، الخصائص السامة للاسلام ص: ١١٥.
(3) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الأسلامية ص: ١٦٩.
(4) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام ص: ١١٥.

احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعـوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم اقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾[1].

والآية تتضمن: ارشاد الله لعباده المؤمنين، اذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك احفظ لمقدارها وميقـاتها، وأضبط للشـاهد فيهـا[2]. **والآية** تتضمن كثيراً من الاحكام الدالة على شمول التشريع الاسلامي، فما هناك شعبة من شعب الحياة، ولا أمر من أمورها، الا وقد تناولتها الشريعة الاسلامية، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر، والطاهر من الخبيث، والصحيح من الفـاسد، وهي بـذلك تعطينا صورة كاملة، ومبدأ راسخاً لنـظامٍ صالح للحياة، وتوضح لنا بكل تفصيل ما هي الحسنات، التي يجب أن نقيمها، ونرقيها، وننميهـا، ونأخـذ بها، ومـا هي السيئات التي يجب ان نعمل على محوها، واستئصال شأفتها، والبعد عنها، وما هي الحدود التي يجب ألا تتجاوزها حريتنا[3].

ويمكن للباحث أن يتعرف على أمثلةٍ للشمول في التشريع الاسلامي كثيرة، مثل:

ـ احكام الأسرة من نكـاح وطلاق، وإرث ونفقـة، وتسمى في الاصطلاح: باحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.

ـ احكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والاجـارة، والرهن، والكفالة.

ـ احكام تتعلق بالقضـاء والدعـوى، وأصول الحكم، والشهـادة، واليمين، والبينات.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ١، ص: ٤٩٥.

(٣) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الأسلامية ص: ١٦٩.

ـ احكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم الى اقليم الدولة الاسلامية، والحقوق التي يتمتعون بها، والتكاليف التي يلتزمون بها.

ـ احكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الاسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب.

ـ احكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها.

ـ احكام تتعلق بموارد الدولة الاسلامية، ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء.

ـ احكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الافعال المنهى عنها، والجرائم، وانزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها[1].

ويبدو شمول التشريع الاسلامي في أمر آخر، أو بعد آخر، وهو: النفاذ الى اعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطة مستوعبة مبنية على معرفة النفس الانسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، واشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها[2].

فالنظم الاسلامية ما ضاقت عن حاجة، ولا وقفت عقبة في سبيل مصلحة، أو عدالة. بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف اجناسهم، والسنتهم، وألوانهم، اذ كانت الدولة الاسلامية، في عصورها الذهبية تمتد رقعتها من بلاد الصين شرقاً، إلى جبال اسبانيا غرباً، وكان البحر المتوسط بحيرة اسلامية، تخفق الراية الاسلامية على ممالكه، وكانت هذه الولايات المختلفة تضم أمماً متباينة الأجناس، والعادات والأديان، والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم، وقد نظمت الدولة الاسلامية

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ٣٠.
(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للأسلام ص: ١١٥ ـ ١١٦.

شؤون هذه الأمم، والشعوب بنظم وتشريعات اسلامية[1].

رابعاً: شمول الاخلاق في الاسلام:

ومن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقي في الاسلام: الشمول، وذلك لشمول الاسلام لجميع جوانب الانسان في الايمان والعبادة، وفي المعاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: اتسمت الاخلاق بالشمول، لقوة وعظمة العلاقة بين الانسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لا شريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شيء[2].

فالاتجاه الخلقي للاسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الانسانية، الا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك. . . ففي جانب الايمان يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً»[3]. فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صريح في أن الاخلاق من الايمان، ولذا عد الاسلام الايمان برّا، قال الله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[4]. فالبر صفة للسلوك الخلقي، ومن هنا كانت الأخلاق في الاسلام لا تدع جانباً من جوانب الحياة الانسانية. . . روحية أو جسمية دينية أو دنيوية. . . عقلية أو عاطفية. . . فردية أو اجتماعية، الا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع[5].

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، الا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفساني، أو مقدار ما يطلبه الانسان من نفسه، ولا يضطره أحد الى طلبه[6] ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقي في

---

(١) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الأسلامية ص: ١٧٠.
(٢) سيد قطب، مقومات التصور الأسلامي ص: ٨١.
(٣) رواه احمد في مسنده، جـ: ٢. ص: ٥٠، ٤٧٢، و٥٢٧. ورواه الترمذي في صحيحه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها جـ٥، ص: ١١٠، وزاد فيه وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً. «وقال حديث حسن صحيح».
(٤) سورة البقرة الآية رقم: ١٧٧.
(٥) د. القرضاوي، الخصائص العامة للأسلام، ص ١١٠.
(٦) العقاد، الفلسفة القرآنية جـ: ٧، ص: ٣٦. ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد.

الاسلام، وان من اخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه.

- جسماً له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾[1].

وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «ان لبدنك عليك حقاً»[2].

- وعقلاً له مواهبه وآفاقه. قال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[3].

- ونفساً لها دوافعها ومشاعرها واشواقها. قال تعالى: ﴿قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[4].

فالاسلام يتجلى شموله في انه: يتناول الانسان والكون والحياة، ثم تناول الانسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية، لتستقيم حياته وسلوكه واخلاقه، وقد ربط بينهما بتوازن دقيق، قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين﴾[5]. وبذلك وازن الاسلام بين روح الانسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته اشطاراً مختلفة، كما هو الحال في المذاهب البشرية الأخرى[6].

والاسلام يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر الى الحياة على انها وحدة متكاملة توظف الانسان على أن

---

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٣١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم يرد عليه قضاء، جـ: ٤، ص: ٢٠٩.

(٣) سورة يونس الآية رقم ١٠١.

(٤) سورة الشمس: آلايتان: ٩ - ١٠.

(٥) سورة القصص الآية رقم ٧٧.

(٦) د. محمد نبيل غنايم ود. عمر سليمان الأشقر وآخرين. دراسات في الثقافة الأسلامية ص: ٢٣. ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

يؤدي حق ربه، وحق نفسه، وحق غيره بكل دقة وامانة وتساو وتنسيق، وبهذا يتسنى للانسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العملية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادىء الاسلام، القائمة على الشمول، والتي توافق الفطرة، وتتلاءم مع واقعية الحياة[1].

ومن اخلاق الاسلام ما يتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه ـ العلاقة: انها علاقة سكنٍ، تستريح فيها النفوس الى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة والمشاركة القلبية والوجدانية[2]. قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[4].

ومن أخلاق الإسلام في الأسرة: العلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالمجتمع في آدابه، وفي اقتصاده، ومعاملاته وفي سياسته وحكمه[5].

ومن اخلاق الاسلام: ما يتعلق بالحيوان والطير، لأن من فضائل الانسان المهذب: ان يكون رؤوفاً بالضعفاء، عطوفاً على البؤساء، رفيقاً بالمحتاج الى الرفق من الخلق، رحيماً بمن مسّه الضر، وعضّه الدهر، جاهداً في كشف ضره، وتفريج

---

(١) عبد الله ناصح علوان، هذه الدعوة، ما طبيعتها؟ ص: ٤٣. ط: الثانية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

(٢) د. احمد السايح، وصبري عبد الرؤوف، الأسرة المسلمة، ص: ٦٩.

(٣) سورة الروم الآية رقم: ٢١.

(٤) سورة النساء الآية رقم ١٩.

(٥) د. يوسف عبد الهادي الشال، الأسلام وبناء المجتمع الفاضل، ص: ١٩٦ ـ ٢٨١، ط: الأزهر سنة: ١٣٩٢ هـ/١٩٧١ م.

كربه، والاحسان اليه، والعطف عليه، متخلقاً بهذه الاخلاق الاسلامية الفاضلة، يجد فيها إمتاع نفسه وانشراح صدره، وارتيـاح قلبه، بـريئاً من القسـوة، وتحجّر القلب، وجمود العاطفة، لا بالنسبة لأخيه الانسان فحسب، بل وكـذلك بـالنسبة للحيوان الأعجم، الذي لا يملك لنفسه نفعاً، ولا عنها دفعاً، بل يكون به أرفق، وله أرحم. ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوي النفوس الزاكية، والقلوب النقية الصافية التي ترحم العاجز الضعيف وتبرّه، ولو لم يكن من بنى الانسان، وتبغض الجور والعسف وتمقته، ولو في أمر الحيوان[1].

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

---

(١) حسنين محمـد مخلوف، الرفق بـالحيوان، ص: ٥، ط: مـطبعة المـدني بالقـاهـرة سنـة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م.

(٢) رواه أحمد في مسنده جـ: ٢، ص: ١٦٠.



الأعجاز القراني

الاعجاز القرآني

جرت حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج والبراهين الدامغة التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير[1].

ولقد كان كل نبي يبعث، يؤتى من المعجزات ما يؤمن على مثله البشر باعتبار المعجزة آخر المطاف في الحجة والاقناع، وكانت من أجل ذلك مادية محسوسة، يشاهدها أهل الدعوة، فلا يستطيعون لها رداً، ولا انكاراً، ومن هنا تكون حجة على من شاهدها، وحضرها، فإذا انتقل النبي الى ربه ورحل عن الدنيا من شاهدوا هذه المعجزة وحضروها، لم يبق لدى أخلافهم من هذه المعجزات الا أخبارها، أو قصص يتناقلونها، تظل تبهت بمرور الأيام وتختلط فيها الحقائق بالأوهام، والوقائع بالخيالات والأساطير[2].

وعلى فرض بقائها في الرواية التاريخية، بغير تحريف، وبطريقة توحى بصدقها، فان الحقائق التاريخية لا تعطي لمن يتأملها، ويبحث عنها، قوة التأثير الذي تقدمه في واقعها لمن يراها، ويشاهد وقوعها[3].

---

(١) محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ص ٨٧ ـ ٨٨، ط: دار الإرشاد، ببيروت سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.

(٢) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص ٥٣ ـ ٥٧، ط مجمع البحوث الأسلامية بالأزهر سنة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.
د. يوسف القرضاوي، ثقافة الداعية، ص ١٤، ط٨ السادسة، مؤسسة الرسالة ببيروت، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

(٣) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم خاتم النبيين، ص: ٥٤.

ومن أسئلة المعجزات المادية المحسوسة: النار التي أوقدت، وألقى فيها الخليل ابراهيم ـ عليه السلام ـ فكانت برداً وسلاماً، ولم تحرق منه الا الوثاق[1]، قال تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاما على ابراهيم﴾[2].

وكذلك معجزات موسى ـ عليه السلام ـ والتي منها: انقلاب عصاه حية تسعى ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا...﴾[3].

وأيضاً: معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ كشفاء المرضى، وابراء الأكمه واحياء الموتى، والاخبار عن بعض المغيبات، والكلام في المهد، الى غير ما هنالك من معجزات[4]. قال تعالى: ﴿اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتكون طيرا باذني وتبرىء الاكمه والأبرص بأذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين﴾[5].

وعندما كان يراد لدين ـ قبل الاسلام ـ أن يبقى فترة أطول من حياة نبيه كان الله يتابع بعده الأنبياء، حتى يقوموا هم بالدعوة لهذا الدين، ولهذه الرسالة، بعد أن يثبتوا نبوتهم هم بمعجزات حسية مخصوصة بهم، وذلك كما حدث بالنسبة لبني اسرائيل[6].

فقد روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي

---

(١) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص ١٦٥.
(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٦٩.
(٣) طه آيه ٦٩.
(٤) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص ٢٢١.
(٥) سورة المائدة الآية رقم: ١١٠.
(٦) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم ص ٥٤.

بعدي، وسيكون خلفاء فتكثر»[1].

فكل نبي سبق، كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم، وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الانبياء أمراً حسياً، يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى انتهى ذلك الأمر المحسوس، ولا يراه أحد من بعده، لأن الامور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة، ولا مع خلودها[2].

واذا كان لا نبي بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وانما خلفاء ـ بنص الحديث السابق ـ، فان الخلفاء لا يملكون من المعجزات التي تمنح الانبياء، فلم يكن بد أن تكون للنبوة الخاتمة معجزة تختلف عن سائر المعجزات المادية الحسية التي تنتهي بانتهاء وقوعها، أن تكون هذه المعجزة قادرة على البقاء والإعجاز في كل عصر من العصور[3].

ولا يتأتى أن تكون المعجزة التي يتسع تأثيرها في مجال الزمان والمكان معجزة مادية «تقرع الحس، وتستولي على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حية كعصا موسى، أو ناراً تصير برداً وسلاماً، كالنار التي ألقي فيها ابراهيم الخليل أو ناقة تخرج من صخر أصم، ولها رغاء، كناقة صالح، أو مريضاً يشفى أو أعمى يبرأ، كما فعل عيسى عليه السلام»[4].

وانما كانت معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين تتعلق بالانسان نفسه، تربط بينه بقدراته المحدودة، وبين خالقه[5]. ومن هنا كان القرآن معجزة للناس جميعاً،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب حديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني اسرائيل، جـ: ٦، ص: ٤٩٥، ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الأمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ج: ١٢، ص: ٢٣١.

(٢) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص ٩٠.

(٣) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم ص ٥٥.

(٤) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص: ٩٠.

(٥) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم، ص: ٥٦ بتصرف.

ولذلك جاء من نوع آخر، غير نوع المعجزات السابقة. وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الانساني، لأن رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وافت البشرية، بعد أن أدركت رشدها، وتكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك بالعقل، ولا تحتاج الى أي نوع من الحس، فهي معان خالدة يدرك سموها الانساني في كل الاجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً[1].

جاء القرآن الكريم معجزة خاتم الانبياء والمرسلين، يتعلق به الانسان تعلق الفطرة بالمثل الأعلى، فيثبت عجز الانسان من حيث هو انسان، في كل عصر وأوان وتسمو به ـ في الوقت نفسه ـ الى أفق الكرامة والعزة والاحسان، كذلك تميزت هذه المعجزة بكونها لا تتعلق بحواس الانسان المحصورة في الماديات فحسب وانما تتعلق بأسمى مدارك الانسان، فتخاطب عقله، وقلبه، وملكاته جميعاً. انها تخاطب الانسان بما هو انسان[2].

واقتضت حكمة الباري: أن تكون معجزة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جنس الذي اشتهر العرب فيه من النبوغ، لأن لكل رسول المعجزة النابعة من الأشياء التي يمهر فيها البارزون من أمته[3].

معنى الاعجاز القرآني:

جاء في لسان العرب: العجز نقيض الحزم، ويقال: أعجزني فلان: اذا عجزت عن طلبه وادراكه[4]. وهو ـ أيضاً ـ: أن ينسب العجز الى غيره[5] قال تعالى: ﴿... أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي...﴾[6]. وصار العجز

---

(١) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص: ٩١.
(٢) د. عبد الفتاح بركة، الرسول الكريم، ص: ٥٦ بتصرف واختصار.
(٣) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الأسلام؟ ص: ٢٤٠. طبع ونشر منشورات الفاخرية بالرياض ودار الكتاب العربي ببيروت.
(٤) ابن منظور لسان العرب، جـ ٤، ص: ٢٨١٦ ـ ٢٨١٧ مادة (عجز).
(٥) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص: ٩١.
(٦) المائدة آية: ٣١.

في العرف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة[1] وتسمى المعجزة معجزة، لأن البشر يعجزون عن الاتيان بمثلها، لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الاسباب المعروفة. واعجاز القرآن معناه: اثبات عجز البشر[2].

ومما يجب أن نشير اليه: أنه ليس المقصود من الاعجاز القرآني، تعجيز البشر لذات التعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الاتيان بمثل القرآن، فان ذلك معلوم لدى كل عاقل، وانما الغرض اظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق. وهكذا سائر معجزات الانبياء والمرسلين الكرام التي يعجز البشر عنها، ليس الغرض منها الا اظهار صدقهم، واثبات أن ما جاؤوا به، انما هو بوحي من الحكيم العليم، وتنزيل من الاله القادر[3].

ولا يخفى أن الدليل على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعواه الرسالة، لا يتمثل في الآيات الكونية، وانما يتمثل الدليل على صدق الرسالة، في نفس الرسالة، أعني: القرآن الكريم[4] فالقرآن معجز في تاريخه، دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الانساني، ومعجز كذلك في حقائقه[5].

ومعجزة القرآن الكريم تختلف عن سائر ما يسميه اللغويون بالمعجزات، وانما ثبت كونه معجزاً عن طريق المدارك والاعتبار، وما تحلت به عباراته بأجمل أسلوب وأوقع معنى، اذ أنه حين يستمع اليه الانسان، تتحرك مشاعره شوقاً، ويهتز قلبه خشية، وتمتلىء نفسه خشوعاً، ويعتصر فؤاده رجاء[6].

---

(١) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص ٢٢ ط/المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية بالقاهرة.

(٢) و(٣) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص: ٩١.

(٤) د. سيد عبد التواب عبد الهادي، محاضرات في علم التوحيد ص: ١٧٨، ط: مطبعة الجيلاني بمصر سنة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

(٥) مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ١٥٦ ط/دار الكتاب العربي، ببيروت سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

(٦) حامد الجوهري، القرآن ومعجزة دائمة تتحدى، مقال بمجلة الهداية العدد ٩٥ الصادر في محرم سنة ١٤٠٦ هـ ـ أكتوبر سنة ١٩٨٣ م، البحرين.

قال الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[1].

تأثير الاعجاز القرآني:

روى أنه لما أنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة (غافر)، قرأها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد، فسمعها الوليد، ثم انطلق الى مجلس بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد كلاماً آنفاً، ما هو من كلام الانس، ولا من كلام الجن، ان أسفله لمغدق، وان أعلاه لمثمر، وان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وأنه يعلو، ولا يعلى، ثم انصرف.

فقالت قريش: لقد صبأ الوليد، والله لئن صبأ الوليد، لتصبأن قريش كلها[1].

وفي صحيح مسلم: أن أنيساً الغفاري أخا أبي ذر، قال لأبي ذر: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله.

قلت: فما يقول الناس؟

قال: يقولون أنه شاعر، ساحر، كاهن ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ.

قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر[3]، فلم يلتئم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله أنهم لكاذبون وإنه

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٣.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، ج: ٢، ص: ٥٠٦، عن ابن عباس، ولفظه أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ عليه القرآن ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة ص ٧٦، ط: عالم الكتب ببيروت.
ورواه الواحدي في أسباب النزول ص: ٤٧٥.

(٣) أقراء الشعر: يريد أنواعه وبحوره وأنحاءه.
الفيروز آبادي، القاموس المحيط، جـ: ١، ص: ٢٤.

لصادق[1].

وروى أن أبا جهل، قال في ملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً، عالماً بالشعر، والكهانة، والسحر، فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره.

فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر، والكهانة، والسحر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى على، فأتاه... فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟... أنت خير أم عبد المطلب؟... أنت خير أم عبد الله؟. فبم تشتم آلهتنا وتضللنا، فان كنت تريد الرياسة، عقدنا لك اللواء، فكنت رئيسنا وان تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة، تختار من أي بنات قريش شئت. وان كان بك المال، جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساكت... فلما فرغ قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتب فصلت أياته قرآناً عربياً لقوم يعملون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي أذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عملون * قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله وحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون * ان الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر جـ: ١٦، ص: ٢٧.
ورواه البخاري عن طريق ابن عباس فى كتاب المناقب، باب قصة زمزم جـ: ٦، ص: ٥٤٩، رقم الحديث ٣٥٢٢.

وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * فان أعرضوا فقل أنذرتكم صعقة مثل صعقة عاد وثمود *﴾[1]. فـأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش، فلما احتبس عنهم، قالوا: ما نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه، وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب، وأقسم لا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر، ولا كهانة ولا سحر»[2]. فأطيعوني في هـذه، وأنزلوها بي، حلوا محمداً وشأنه، وأعتزلوه فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وان كان ملكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به، لان ملكه ملككم، وشرفه شرفكم فقالوا: هيهات سحرك محمد[3].

فأنت ترى: أن عتبة يعترف بأن القرآن ليس بشعر، ولا كهانة، ولا سحر وأنه سوف يكون لما سمع نبأ.

«واذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة بأنه ما سمع مثل القرآن قط. كان في هذا القول مقراً باعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة، والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه»[4].

وللقـرآن الكريم في أسلوبـه العجيب المخالف لجميـع الاساليب البشـرية خصائص عديدة، تجمل فيما يأتي:

* مسحة القرآن اللفظية، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.

---

(١) سورة فصلت الآيات ١ ـ ١٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٧، ص: ١٥٠ ـ ١٥٢ بعدة طرق وروايات.

(٣) الومخشري، الكشاف، جـ٣، ص: ٣٨٧.

(٣) رواه أبو نعيم، في دلائل النبوة ص ٧٥.
ورواه الهيثمي، في مجتمع الزوائد جـ: ٦، ص: ١٩ ـ ٢٠.
ورواه ابن حجر، في المطالب العالية جـ:٤، ص: ١٩٩ ـ ٢٠٠ رقم الحديث ٤٢٨٥، تحقيق: حبيب الرهمن الأعظمي: ط: الأولى، ادارة الشؤون الاسـلامية بـوزارة الأوقاف والشؤون الأسلامية بدولة الكويت، سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

(٤) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص ١٠٦.

* ارضاؤه العامة والخاصة، بمعنى أن الجميع يحسون بجلاله، ويشعرون بروعته.

* ارضاؤه العقل والعاطفة معاً، فالقرآن يخاطب العقل، والقلب، ويجمع الحق والجمال معاً.

* جودة سبك القرآن، واحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة تؤثر في العقول وتأخذ بالأبصار.

* براعته في تصريف القول، وتفننه في ضروب الكلام[1].

جاء القرآن الكريم معجزاً في بلاغة أسلوبه، وسمو معانيه، وجوامع كلمه، وجاء معجزاً بما قصه من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، وجاء معجزاً بما تضمن من تشريعات حكيمة، ومثل عليا، تتفق مع طبائع البشر، في كل زمان ومكان، تكميلاً لفطرتهم، وضماناً لسعادتهم.

وجاء معجزاً بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجانب المادي من الكون، مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده[2].

وقد بين فبلغ الغاية في البيان، وأوجز، اذ لا يحمد الا الايجاز، وأطنب، فما جاء الا بالاعجاز، وتحدى فما طمع في الاتيان بمثله، أو بأقصر صورة منه انس أو جان، وناجى فسار مسرى الحياة الى القلوب[3].

ومن وجوه اعجاز القرآن الكريم: اخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر[4] وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع، على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر انما هو كلام علام الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية[5].

---

(١) نفس المصدر ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) حنفي أحمد، التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم، ص ١٣، ط: دار المعارف بمصر.

(٣) علي محمد حسن العماري، القرآن والطبائع النفسية، ص: ١٢ ـ ١٣ ط: المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م.

(٤) طاهر الجزائري، الجواهر الكلامية ص: ٢٣، ط: البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م.

(٥) الصابوني، التبيان في علوم القرآن ص ١٢١.

ومعجزة القرآن: أنه يجعل من عالم الغيب، وعالم الشهادة، صورة واحدة متكاملة، يسهل على عقل الانسان استيعابها، والتيقن منها.

واذا كان عالم الشهادة عالماً ملموساً محسوساً، يمكن التأكد من كل ما يقال عنه، فان عالم الغيب لا يعلمه الا الله ـ تبارك وتعالى ـ والمزج بينهما في درجة الاستيعاب والتيقن، هي المعجزة الالهية التي يحققها القرآن الكريم، فحين يعرض القرآن الكريم لصور الحياة في العالم الآخر، فانه ينقلها في صيغة الحال في تقرير لما هو كائن، لا لما سيكون، انها ذروة اليقين في أمر لا سبيل الى انكاره، حتى ولو غاب عن امكانات الحواس ومحدوديتها[1].

ومن هذه الأخبار الغيبية: أخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم، بعد أن انكسروا في الحرب السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[2].

فهذه الآيات من هذه السورة، نزلت بمناسبة معينة، ذلك حين غلبت فارس على الروم، فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب، وكان ذلك في ابان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين الى الاسلام في مكة قبل الهجرة، والمشركين، ولما كان الروم ـ في ذلك الوقت ـ أهل كتاب ـ دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد، وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الايمان، ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة، تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين، غلبة يفرح لها المؤمنون الذين يؤدون انتصار ملة الايمان من كل دين[3].

(١) حامد الجوهري، القرآن الكريم ومعجزة دائمة تتحدى، مقال بمجلة الهداية العدد الخامس والتسعون، ص: ١٢، والصادر في شهر محرم سنة ١٤٠٦ هـ، الموافق أكتوبر سنة ١٩٨٥ م.

(٢) سورة الروم، الآيات: من ١ ـ ٥.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٥، ص: ٢٧٥٦.

وهذه الآية ـ كما يقول الزمخشري ـ من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله، لأنها انباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه الا الله»[1]. لأن الاخبار عن الأمور الغيبية مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم اليه[2].

ومن الاخبار بالغيب وعد الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنه سيظهر دينه على الأديان[3]. قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. . .﴾[4]. ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ اذا أغزى جيوشه، عرفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالفلاح، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يفعل مثل ذلك في أيامه[5].

وقد تحقق هذا الوعد الالهي، فأظهر الله الاسلام على جميع الأديان، ومكن للمسلمين في الأرض، في حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، وأرض الروم والفرس، ولم يمض قرن من الزمان، حتى انتشر الاسلام انتشاراً باهراً، واتسعت رقعة الدولة الاسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) في المغرب الى تخوم الصين في الشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً[6].

وهناك التنبوء بدخول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك

---

(١) الزمخشري، الكشاف، جـ ٣، ص: ١٩٧.
(٢) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: ١٢، ط: البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.
(٣) المرجع السابق، ص: ١٢، بتصرف.
(٤) سورة التوبة، آية ٣٣، وسورة الفتح، آية رقم ٢٨.
(٥) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ١٣.
(٦) الصابوني التبيان في علوم القرآن، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ بتصرف.

فتحا قريبا﴾[1].

وهناك وعد الله بمستقبل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[2].

وهناك الاخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا، الى وقت نزوله فأخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما كان من قصص الأنبياء مع أممها في القرون الخالية، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ وحال ذي القرنين[3]، وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون﴾[4].

وقال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾[6]. ولعل هذه الشواهد وغيرها، تؤكد دقة رواية القرآن الكريم للأحداث وصدق دلالته عليها، ودقة تصوير المواقف، تصويراً يؤكد المشاهد والمعاينة.

---

(١) سورة الفتح الأسة رقم ٢٧.

(٢) يورة النور آية ٥٥.

(٣) محمد زكي الدين محمد قاسم، مدخل الى معرفة القرآن، ص ٥٢، ط: المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٠١ ه - ١٩٨١ م.

(٤) سورة آلى عمران الآية رقم ٤٤.

(٥) سورة هود آية: ٤٩.

(٦) سورة يوسف آية رقم: ١٠٢.

وبرغم معرفة هذه المسائل التاريخية، أو بعضها على الأقل لدى علماء أهل الكتاب، فان رواية القرآن الكريم لم تكن مقلدة لما روى في هذه أو غيرها وانما جاءت مصححة للأحداث، كاشفة للمواقف، بما لا يتيسر مثله الا لمن عاش هذه الأحداث، أو خالط البيئة التي حدثت فيها على الأقل[1].

فالقرآن آية فيما اشتمل عليه من أخبار غيبية في الماضي السحيق وكانت تدور في نفوس الناس وقت رسالته، وأخبار غيبية أخبر عنها ستكون في المستقبل تحقق منها الكثير، ولا تزال تتحقق كلما تقدم الزمان.

ومن وجوه الاعجاز القرآني: الأسلوب، اذ أن مادة الاعجاز العربي في كلام العرب كله، وليس من ذلك شيء الا وهو معجز[2]، «ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»[3].

فالقرآن آية بينة معجزة في فصاحة لفظه، وأسلوبه، وتركيبه، وتأثيره على النفوس، اذ تشعر وأنت تقرؤه بتأثير كبير في نفسك، وتشعر أن الذي يحدثك هو الله[4].

فأسلوب القرآن الكريم مظهر غريب، لاعجازه المستمر، اذ هو نمط فريد في البلاغة والروعة، واشراق البيان، وجمال الديباجة.

ومن الامور التي تذكر: أنني لم أتعرض لمذاهب القدماء، في الاعجاز القرآني، ولم أتناول موضوع التحدي والمعارضة، لأن ذلك أمر قد يطول، وليس

---

(١) محمد زكي الدين، مدخل الى معرفة القرآن الكريم، ص ٥٩، بتصرف.
(٢) مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٨٨.
(٣) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الأسلام؟ ص: ٢٤١.
(٤) عبد المجيد عزيز الزنداني، كتاب التوحيد، جـ: ١، ص: ٥٦، بتصرف، ط: دار المجتمع بجدة سنة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

من مهمتنا الا أن نتناول بالعرض الاعجاز الذي جذب الناس الى الاسلام، وأدى الى ظهور الاسلام في المشارق والمغارب.

كذلك لم أتعرض لمعجزات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحسية، والتي جاءت في كتب السنة والسيرة، وهي ذات أهمية لمن شاهدوها، وكانت فيهم واكتفيت بالاعجاز القرآني، لأنه يفوق كل اعجاز، ويبقى الى ما شاء الله... ويجدر أن نتعرف على تأثير القرآن الكريم، وفعله في النفوس، مما نبه الناس إلى الاعجاز القرآني العظيم.

لقد أيقظ عقولاً وأفهاماً، وأخذ أهواء وأوهاماً، وأحيا قلوباً أماتتها الشهوات والجهالات، وأنار عقولاً أطبقت عليها الظلمات.

وهو في كل ذلك يسوس الغرائز والطبائع سياسة الحكيم الخبير ويوجه الميول والنوازع توجيه العالم الخبير.

تلاوته راحة النفس، ومدارسته البهجة والانس، والتأمل في معانيه يشيع السكينة في القلوب المضطربة، ويرفع الشكوك عن الهواجس القلقة[1].

ولقد اعتمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تبليغ الاسلام على نور القرآن المبين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. فقرأ عليهم القرآن: البرهان القاطع، والضوء اللامع، فكانوا ينفرون من الحق المجرد لأنه يخالف ما ألفوا، وما وجدوا عليه آباءهم. ﴿واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[2]. ولكنهم ـ كما يقول محمد أبو زهرة ـ: اذا استمعوا الى القرآن تحيرت الافهام واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه، وحق في القرآن عرفوه، فهم يحاورون في الحق، ولكن لا يدرون ماذا يدفعون به القرآن الذي يحمله ويدعو اليه، والى ما جاء به، وأنهم

---

(١) علي محمد العماري، القرآن والطبائع النفسية ص١٣.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٠.

بذوقهم البياني يجدون أنه فوق كل كـلام، ولا يمكن أن يجري على لسـان من ألسنتهم وأمثالهم، ولا يمكن أن يأتي به محمد من عنده، لانهم من قبل عـرفوا كلامه، وقد رأوه عالياً في جوامع كلمه، ولكن القرآن أعلى من طاقة الانسان[١].

ومن هنا: كان فعل الاعجاز القرآن وتأثيره، وتأثيـر روعة بـلاغته، ودهشـة نظمه، وأسلوبه الجاذب، لفهم دعوته والايمان به، اذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً، لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة، وفهم المعاني العالية[٢].

وهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي: أنه يعلو ولا يعلى عليه وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً، لاستماع تلاوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيته، على ما كان من نهيهم عنه، ونأيهم منه، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعون له، ثم كانوا يتسللون فرادى، مستخفين، ويتلاقون في الطريق متلاومين[٣].

وهذا التأثير القرآني هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام، لما لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم[٤].

وقد كان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الاذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى اذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة، وهـو يومئـذ سيد

---

(١) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص٦٧، ط/دار الفكر العربي، ببيروت.
(٢) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدي، ص ١٨٤، ط/مؤسسة عز الدين ببيروت.
(٣) و (٤) محمد رشيد رضا، الوحى المحمدي، ص ١٨٤.

الاحابيش[1]، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي، وآذوني، وضيقوا علي، قال: ولم؟ فوالله انك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع وأنت في جواري، فرجع معه، حتى اذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش. اني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له أحد الا بخير. . . فكفوا عنه، وكان لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً اذا قرأ القرآن استبكى. . . فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته.

فمشى رجال من قريش الى ابن الدغنة، فقالوا: يا ابن الدغنة انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، انه اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد ويرق ويبكي وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم فأته، فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء.

فمشى ابن الدغنة اليه وقال له: يا أبا بكر. اني لم أجرك لتؤذي قومك، انهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به، وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت[2].

ان تأثير القرآن كان ولا يزال عظيماً، وهذا التأثير هو الذي حمل المشركين على صد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام، وفي أسواق الموسم ومجامعه، حتى انهم كانوا يقذفونه بالحجارة[3].

---

(١) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا الى بني ليث، والتحبيش: التجمع في كلام العرب، وقيل: هم بنو المصطلق، وقيل: هم بطن من قريش، وانما سموا بذلك لاجتماعهم، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى «حبشياً» بأسفل مكة، فسموا بذلك، وليسوا من الحبشة كما يتوهم البعض.
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١ ص ٣٩٥.
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ ١ ص٦٥٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.
وفي ابن هشام تكملة لما ذكرنا، وذلك أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ رد على ابن الدغنة جواره، وقال: «أرضي بجوار الله».
ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١ ص ٣٩٦.

(٣) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص ١٨٦، بتصرف.

قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهـذا القرآن والغـوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1].

جاء في ظلال القـرآن: كلمة كـان يوصي بهـا الكبراء من قـريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير، وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم، وفي نفوس الجماهير[2].

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس[3].

قال تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل انما هو اله وحد وانني برىء مما تشركون﴾[4].

وقال تعالى: ﴿انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين﴾[5].

ومما تجدر الاشارة اليه: أن هناك حقيقتين ثابتين، نعرض لهما باجمال:

الحقيقة الأولى: أن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع أن القرآن الكريم قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون، لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، وأذعنوا لبلاغته وقوته[6].

---

(١) سورة فصلت الآية رقم ٢٦.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ٥ ص ٣١٢٠، بتصرف.
(٣) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص ١٨٧.
(٤) سورة الأنعام الآية رقم ١٩.
(٥) النمل ٩١ ـ ٩٢.
(٦) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٧٠.

وكتب السيرة تبين لنا: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ما دخل في الاسلام الا بعد أن استمع الى آيات من القرآن الكريم[1]، وكذلك جبير بن مطعم.

الحقيقة الثانية: أن القرآن الكريم، جذب العرب الى الايمان بما فيه من روعة وقوة بيان، وايجاز معجز، وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها، وأطنابها الرائع، وايجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أوفاها بالعبارة الناصعة، والاشارة الواضحة فما كان الايمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز، وان كان العجز ثابتاً، وانما كان الايمان ثابتاً بالقرآن الكريم، فهو الذي جذب الى الايمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر، وأنه حقائق ثابتة[2].

وهاتان الحقيقتان تؤكدان لنا: أن العرب مع شركهم، كانوا ينجذبون الى القرآن، ويريدون أن يسمعوه، استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب، وعبارات مشرقة.

وكذلك يتجلى إعجاز القرآن بوضوح، فيما يترتب على اختلاف القراءات من فوائد وآثار، وقراءات القرآن الكريم، تلتقي مع البلاغة، في تحقيق أهم الأهداف، التي تهدف اليها البلاغة، وهو: ادراك روعة النظم القرآني والوقوف على أسراره[3].

واختلاف القرآءات جاء لتيسير قراءة القرآن الكريم، وحفظه على القبائل العربية التي درج كل منها على التحدث بلهجة معينة، ولو نزل القرآن بلهجة واحدة، لصعب على أصحاب اللهجات الأخرى أن يقرؤوه بلهجاتهم التي تعودوا عليها، فكان من تيسير الله ـ تعالى ـ أن أمر نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عاداتهم[4].

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٤ ص ١٤٨.
(٢) محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص ٧٠.
(٣) د. فتحي عبد القادر فريد، الاعجاز والقراءات، ص ٦٣، بتصرف. ط. دار العلوم، بيروت سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٧.

هذا بعض من كل، وقليل من كثير، عن الاعجاز القرآني، الذي تجلى في كل آيات القرآن الكريم.

كل هذا وغيره مما جاء في القرآن الكريم من الآيات العلمية والكونية دلائل وبراهين، على معجزة القرآن الدائمة، ليظل القرآن بآياته، وما جاء به معجزة تتحدى، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.



العدالة



العدالة: أخذت من العدل. والعدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور، ومن أسماء الله: العدل، وهو الذي لا يميل به الهوى، فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدر سمي به، فوضع موضع العادل[1].

ومادة (عدل) في أصلها المادي، انما ترجع الى «العدل» ـ بالكسر ـ وهو: نصف الحمل الذي يوضع على الدابة، وموازنة هذا العدل بنظيره في الجانب الآخر من الدابة: وهو المعادلة أو العدل[2].

والعدل: القسط اللازم للاستواء، وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، في غير اسراف، ولا تقصير، ولا تقديم ولا تأخير[3].

وقيل: العدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة، كألاحكام، كقوله تعالى: ﴿... أو عدل ذلك صياماً...﴾[4]. والعدل ـ بالكسر ـ والعديل فيما يدرك بالحاسة، كالموزونات والمعدودات والمكيلات[5].

والحق الذي لا مرية فيه: أن البشرية لم تعرف دعوة الى العدل، كما عرفتها في الاسلام، فلقد دعا الله الأمة اليه، فأمرها به أن تأخذه وتلتزمه وتحتكم اليه،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، جـ: ٤، ص: ٢٨٣٨، مادة (عدل).
(٢) د. عبد المحسن الحسيني، المعرفة عند الحكيم الترمذي، ص: ٢٤٢، ط: دار الكتاب العربي، بالقاهرة.
(٣) د. أبو بكر ذكرى، تاريخ النظريات الأخلاقية، ص: ٨٢، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩.
(٤) المائدة ٩٥.
(٥) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، جـ: ٤، ص: ٢٨.

«وجاء الاسلام بفكرة العدل، وحقق وجودها كمبدأ تأسيسي، منظم للفضيلة الخلقية، بمعنى العدالة المعروف منذ الأزل، والمحقق لا تزان الكون وانسجامه، بأوضح ما يكون عليه الاتزان، وبأدق ما يتم فيه الانسجام»[1].

قال تعالى: ﴿. . . فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم. . .﴾[2].

وقال تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[3].

وقال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. . .﴾[4].

وهكذا أورد الاسلام ذكر الميزان المعنوي في الآيات الكريمة، المتضمنة الاشارة الى ارسال الرسل، وانزال الكتب، وذلك لتقريب فكرة العدالة من العقول، وتوسعاً في اظهار معنى فكرة العدالة هذه بأوضح الصور. . عمد الاسلام الى قرن معنى العدل بالحث على عمل الخير، المتضمن لكل ما أمر الله به، والنهى عن عمل الشر، المتضمن لكل ما نهى الله عنه[5].

فالعدالة في الاسلام ـ قبل كل شيء ـ عدالة انسانية، شاملة لكل جوانب الحياة الانسانية ومقوماتها، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة، وهي تتناول جميع مظاهر الحياة، وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانات. . . والقيم التي تتناولها هذه العدالة، ليست للقيم الاقتصادية وحدها، ولا للقيم المادية على وجه العموم، انما هي هذه ممتزجة بها القيم المعنوية

(١) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الاسلام؟ ص : ٦٥.
(٢) سورة الشورى الآية رقم ١٥.
(٣) سورة الرحمن الآية رقم ٧.
(٤) سورة الحديد الآية رقم ٢٥.
(٥) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الاسلام؟ ص : ٦٦.

والروحية جميعاً[1].

والاسلام ـ كما يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ـ: دين الوحدة بين القوى الكونية، فلا جرم هو دين التوحيد: توحيد الاله، وتوحيد الأديان جميعاً في دين الله، وتوحيد الرسل في التبشير لهذا الدين الواحد، منذ فجر الحياة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[2].

والاسلام دين الوحدة في العبادة والمعاملة، والعقيدة، والشريعة، والروحيات، والماديات، والقيم الاقتصادية، والقيم المعنوية، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء.

وعن تلك الوحدة الكبرى، تصدر تشريعاته وفرائضه، وتوجيهاته وحدوده وقواعده، في سياسة الحكم، وسياسة المال، وفي توزيع المغانم والمغارم، وفي الحقوق، والواجبات، وفي ذلك الأصل العظيم الكبير، تنطوي سائر الأجزاء والتفصيلات.

وحين ندرك هذا الشمول في طبيعة النظرة الاسلامية للالوهية والكون والحياة والانسان، ندرك معها الخطوط الأساسية للعدالة في الاسلام، فهي قبل كل شيء عدالة انسانية، شاملة لكل جوانب الحياة، الانسانية ومقوماتها، وليست مجرد عدالة اقتصادية محدودة، وهي اذن تتناول جميع مظاهر الحياة، وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك، والشعائر، والوجدانات[3].

وبناء على ما ذكره الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ من أن ادراك الخطوط الأساسية للعدالة في الاسلام ناتج وبالدرجة الأولى من ادراك الشمول في طبيعة النظرة الاسلامية للألوهية، والكون والحياة والانسان، بناء على ذلك: نعرف أن

---

(١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ص: ٢٦، ط: دار الشروق، سنة: ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٩٢.
(٣) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ص: ٢٦.

العدالة من أفضل الأمور والقيم التي أتانا بها الاسلام، فأمرنا بها، ورغبنا فيها، وان العدل قيمة من أبرز القيم، التي لا يرقى اليها في مرقاها الرفيع، إلا المؤمنون بالله.. ولا يلتزم بها، ويتعامل إلا كل مجتمع فاقه رشيد، مدرك لحقيقة وجوده، ومقتضيات حياته، وواجبات يومه، وتطلعات مستقبله.

عن أنس ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اذا حكمتم فاعدلوا، واذا قلتم فاحسنوا، ان الله يحب المحسنين»[1].

فليس هناك فضيلة من الفضائل، تبلغ ما بلغه العدل، حين يطبق قربى لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وزكاة للنفس.

وعلى الوحدة المطلقة المتعادلة المتناسقة، والتكافل العام بين الأفراد والجماعات، يسير الاسلام في تحقيق العدالة، وان طبيعة نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية، تجعل العدالة الاسلامية عدالة اجتماعية انسانية شاملة لكل مقومات الحياة الانسانية[2].

والعدالة في الاسلام: من شأنها أن تبشر بالاسلام، وتدعو الناس الى التعرف على فضائل الاسلام، مما جعل الناس، يدركون أن سمة الاسلام، العدالة، وهي ميزان الاجتماع في الاسلام، وهي التي يقوم بها بناء الجماعة. وكل تنظيم اجتماعي لا يقوم على العدالة منهار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لأن العدالة هي الدعامة، وهي النظام، وهي التنسيق لكل بناء.

قال تعالى: ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاي ذي القربى وينهى عن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، جـ: ١، ص ٣٨.
ورواه ابن أبي عاصم، في كتاب الديات، باب اذا دفع القاتل الى أولياء المقتول ما لهم أن يفعلوا به ص: ٥٦.
وذكره ابو نعيم في اخبار اصبهان، جـ: ٢، ص ١١٣.
(٢) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ص: ٣١.

الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1].

والله يعد العدالة بين الناس، أقرب القربات الى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وان المؤمن مطالب بأن يقيمها لله ـ تعالى ـ فهي طريق الزلفى اليه، ولذلك قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾[2].

وقد ذكر الشهيد سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الاسلام»: ان العدالة الاجتماعية في الاسلام تقوم على ثلاثة أسس، هي:

١ ـ التحرر الوجداني المطلق.

٢ ـ المساواة الانسانية الكاملة.

٣ ـ التكافل الاجتماعي الوثيق[3].

والشيخ محمد ابو زهرة ـ رحمه الله ـ يشير في بحث له بعنوان: ـ (المجتمع الاسلامي في ظل الاسلام)، الى أن أهم شعب العدالة:

١ ـ العدالة النفسية.

٢ ـ والعدالة الاجتماعية[4].

وليس من شأننا ان نتتبع هذه الأسس واحدة واحدة، أو تلك الشعب. لأن هذه الأسس التي تقوم عليها العدالة الاجتماعية، وتلك الشعب، انما هي جميعها تنطلق من الاسلام. . . وانما الذي يعنينا منها، وبالدرجة الأولى: ما يتصل بالناس، او بتعبير اكثر اقتراباً. . يعنينا منها ما يكشف للآخرين فضل الاسلام، ويبرز لهم مثله العليا، وقيمه الفاضلة.

فالعدالة النفسية: أن يقدر كل انسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقدره

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٩٠.

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٨.

(٣) سيد قطب العدالة الاجتماعية في الاسلام، ص/٣٢.

(٤) محمد أبو زهرة المجتمع الاسلامي في ظل الاسلام، من بحوث المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية، المجلد الثالث، ص: ٣٩٢، ط: الأزهر، سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٥ م.

لغيره، على الا يزيد على الناس في حق، وقد يفرق على نفسه الزيادة في الواجب، لا في الحقوق.

وهذه العدالة النفسية: هي التي توجد الاتصال المستمر، وهي التي تقوى بناء الجماعة، وهي تنفذ ديناً من غير قهر، ولا حكم مسيطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير[1].

والذي لا شك فيه: أن العدالة النفسية، لا تتحقق الا عند ما يتم «التحرر الوجداني» الذي يجعل الانسان يتحرر من عبادة أحد غير الله، ومن الخضوع لأحد غير الله. فما لأحد عليه غير الله من سلطان، وما من أحد يميته أو يحييه الا الله. وما من أحد يملك له ضراً ولا نفعاً الا الله، وما من أحد يرزقه من شيء في الأرض، ولا في السماء الا الله، وليس بينه وبين الله وسيط، ولا شفيع، والله وحده هو الذي يستطيع والكل سواه عبيد[2].

فالاسلام يسعى الى تحرير الانسان وجدانياً، ومن أعمق أعماقه، وينتزع كل بذور الخوف والتعلق والخضوع من قلبه، ويجعله يرفع رأسه باعتزاز، ويرفض الانحناء، والتقرب لأي سلطة في الأرض، فلا يخضع الا لله، ولا يعبد الا الله حاملاً شعار (لا اله الا الله)، الذي يدفعه الى التحرك لمجاهدة كل القوى التي تقف بمواجهة الحق، الذي ينتمي اليه، ودونما رغب أو رهب[3].

وعندئذ تكون العلاقة بين العدالة النفسية، والعدالة الاجتماعية: علاقة وثيقة، ترشد الى أن الحياة الاجتماعية، وانماط السلوك، والعلاقات والنشاطات التي يمارسها الانسان، انما هي تعبير عن المحتوى، والبناء الذاتي، وان العدالة الاجتماعية صياغة حية، وتعبير أمين عن الدوافع والمقاصد، لأن الاسلام شد أزر الطبيعة الاجتماعية بما يقويها، ويقيها من الانحراف، والانحلال، فربط بين أفراد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الاسلام، ص : ٣٣.

(٣) د. عماد الدين خليل، العدل الاجتماعي، ص : ٢١ ـ ٢٢، ط : مؤسسة الرسالة، ببيروت.

الانسان برباط قلبي، يوحد بينهم في الاتجاه والهدف، ويجعل منهم وحدة قوية متماسكة، يأخذ بعضها برقاب بعض، سداها المحبة، ولحمتها الصالح العام، وهدفها السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا الرباط هو رباط الايمان والعقيدة، المتصلة بمبدأ الخير والرحمة، وهو الله ـ سبحانه وتعالى:

وقد اتخذ الاسلام عنواناً لهذا الرباط (الأخوة الدينية) بين المسلمين. وهي أصدق تعبير عن الحقوق، والواجبات الاجتماعية. وهي اقوى ما يبعث في النفوس معاني التراحم، والتعاطف، والتعاون، وتبادل الشعور والاحساس[1].

وبناء على هذه المفاهيم الاسلامية، كان من الأصول التي ينبغي أن تتوفر في المجتمع الاسلامي: التكافل بين أفراد المجتمع، لتحقيق العدالة في أسمى صورها.

والتكافل الاجتماعي الذي يتميز به الاسلام، يعني: أن تمتد يد المساعدة من الغني الى الفقير، ومن القوي الى الضعيف، ومن العالم للجاهل، ومن الواجد لمن لا يجد، بلا مقابل، او اشتراك، او تضحية، من الطرف المتلقى، وقد ورد ذلك في الاسلام واضحاً مميزاً[2].

فالتكافل في الاسلام ليس علاجاً لأزمة اجتماعية تنشأ في المجتمع، أو وقاية من ثورة الفقراء، ولكنه صفة موضوعية من صفات المجتمع، الذي يقوم على الاسلام[3].

والتعرف على العدالة في الاسلام، التي عملت على ظهور الاسلام، يقتضي

---

(١) محمود شلتوت، منهج القرآن في بناء المجتمع، ص: ٧٩، ط: دار الكتاب العربي، بمصر، سنة: ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م.

(٢) د. جمال الدين محمود أصول المجتمع الاسلامي، ص: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٥٩، بتصرف واختصار.

من الباحث أن يعرض للعناصر الرئيسية الآتية:

العنصر الأول:

حق الله وحق الانسان في المال

هذا الكون الذي نعيش فيه، خلقه الله ـ جل شأنه ـ مما نعلم ومما لا نعلم، ومما ندرك، ومما لا ندرك، ومما نستطيع تصوره، ومما لا نستطيع تصوره، قال الله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾(١).

فهو الذي خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات، وما بينهما من أجرام، لا يحيط بها العلم، ولا يدركها الوصف، ولا يحصيها العد، وهو القادر على أن يخلق غيرها ان شاء، اذ الخلق متعدد بمشيئته، وراجع لأمره.

قال تعالى: ﴿... ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾(٢).

والله الذي خلق هذا الكون قد سخره لخدمة البشر، وجعل للبشر ما يمكنهم من الاستفادة بما وهبهم من أبصار وأسماع وعقول، تساعدهم على استخدام ما في الكون من خيرات، واكتشاف ما فيه من قوى، واستغلال ذلك كله في سبيل نفعهم، واسعاد أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿الم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهره وباطنة...﴾(٣).

واذا كان الله قد سخر الكون للبشر، فانه قد سخر بعض البشر لبعض ليستطيعوا أن يعيشوا في جماعة منظمة، متعاونة، وليكونوا أقدر على استغلال

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٠٢.
(٢) المائدة الآية ١٧.
(٣) سورة لقمان الآية رقم ١٠.

ـ الكون المسخر لهم، والانتفاع بخيراته، والمساهمة في بقاء حياة انسانية مرضية. قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما أتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم﴾[1].

واذا كان الله خالق كل شيء ـ كما بينا ـ فهو مالكه. قال تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾[2].

وشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يستعمر البشر في الأرض، ويجعلهم خلفاء فيها، فسخر لهم كل ما خلق في السموات والأرض.

فملك الله مسخر لمنفعة البشر، ولهم جميعاً أن ينتفعوا به، ويستغلوه، ويستثمروه، ويعملوا فيه.

فما في أيدي البشر من ملك الله وثمراته، انما هو عارية ينتفع بها الناس واذا كان الله مالك كل شيء، فهو وحده الذي يمنح كل فرد من البشر ما في يده من هذا الملك الواسع.

وهذه المنح ـ أياً كانت ـ لا تغير صفة الممنوحين، فما هم الا بعض أفراد من البشر، يقومون على ملك الله، وما في هذا الملك الا عارية في أيديهم، قال تعالى: ﴿... وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...﴾[3].

واذا كان المال مال الله، وهو عارية في يد البشر، الذين استخلفهم عليه، فليس لهم ان يتأخروا عن انفاذ أمر الله في هذا المال، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من الناس شيئاً من هذا المال، فعليهم ان يبادروا بذلك، فما يؤتونهم الا من مال الله. قال تعالى:

﴿... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٦٥.
(٢) سورة المائدة الآية رقم ١٢٠.
(٣) سورة الحديد الآية رقم ٧.

خيراً وآتوهم من مال الله الذي أتاكم. . .﴾[1].

وللبشر حق الانتفاع بما في أيديهم من مال الله، وهو الحق الوحيد الذي لهم في هذا المال، والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله او استثماره، كما هو الحال في الطعام والشراب واللباس. وقد يكون بالتصرف في المال تصرفاً شرعياً كالبيع والهبة والصدقة. وللبشر أن ينتفعوا بمال الله في هذه الوجوه كلها.

وحق البشر في الانتفاع بمال الله، ليس حقاً مطلقاً، وانما هو حق مقيد بقيود، فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاؤون، وانما لهم أن ينتفعوا به فقط في حدود المباح، وحسب حاجتهم لهذا المال، وبالقدر الذي يكف عنهم الحاجة ويدفعها، بشرط أن يكون ذلك كله مع الاعتدال، دون سرف أو تقتير، فليس لهم أن يسرفوا في طعامهم، وشرابهم، ولباسهم، وأمور معيشتهم. ولا يجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم، قال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾[2].

وعن خولة الأنصارية، قالت: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «ان رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»[3].

العنصر الثاني:

مسؤولية المسلمين بعضهم عن بعض

والمسؤولية تقع داخل نطاق الامكان، وداخل نطاق الحرية، حرية الاختيار بين هذا وذاك.

---

(١) سورة النور، آية رقم ٣٣.

(٢) سورة طه، آية رقم ٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: ﴿فان لله خمسه وللرسول﴾. جـ :٦، ص: ٢١٧. ورواه احمد في مسنده، جـ : ٦، ص : ٤١٠، وزاد فيه: «ان الدنيا حلوة خضرة، وان رجالا يتخوضون في مال الله. . . الحديث».

فالمسؤولية: صفة يستمدها كل امرىء من فطرته الانسانية، قبل أن ـ يتلقاها، وهي صفة لازمة للانسان المسلم، قال تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[1].

يقول ابن كثير: «وفي أموالهم حق أي: جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل وهو: الذي يبتدىء بالسؤال. والمحروم: الذي لا مال له، أو قد ذهب ماله[2].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له». قال أبو سعيد: فذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[3].

فالاسلام يقيم بين المؤمنين به ولاية متبادلة، يدل عليها قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم﴾[4].

ويقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون اخوة...﴾[5].

ويصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المجتمع الاسلامي: بأنه كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً[6]. وأنه كالجسد الواحد، اذا اشتكى منه عضو تداعى

---

(١) سورة الذارات الآية رقم ١٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ : ٧، ص : ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال، جـ : ١٢، ص : ٣٣.

(٤) سورة التوبة الآية رقم ٧١.

(٥) سورة الحجرات الآية رقم ١٠.

(٦) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، جـ ١٠، ص : ٤٤٩.

له سائر الجسد بالسهر والحمى[1]. لأن حياة المسلمين سيل لا ينقطع في التعامل، والتبادل، للحقوق والواجبات، وحركة دائبة، للأخذ والعطاء، وصورة نشطة، للتعايش اليومي، الذي يختلط فيه الناس، وتشتبك مصالحهم، في حرص حريص، على جلب المنفعة، ودفع المضرة.

والعدالة التي هي بمعنى الحق، أعم من العدل الذي يراد به الفصل في الحقوق بالحق، ويقابله الظلم، فان العدالة تكون في ميادين كثيرة، تكون في التشريع، والتنفيذ، وفي الرأي والعمل، وفي العقيدة، والسلوك، بل ان العدالة تخطت حدود البشر، فشملت بظلها عالم الحيوان كله، وهي عدالة تحمل معنى الرحمة، واحسان المعاملة. وقد ورد في الصحيحين شكر الله لمن سقى الكلب فغفر له[2]. وتعذيبه لمن حبست الهرة، لا هي اطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[3].

وقد تحدث الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين» عن العدل بمعناه الشامل، فقال: انه يدعو الى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان، وذكر انه احد قواعد الدنيا التي لا

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والاداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، جـ : ٤، ص : ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠.

(٢) لفظ الحديث: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم امسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا يا رسول الله: وان لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر».
رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المساقاة، باب فضل سقى الماء، جـ : ٥ ، ص : ٤٠.

(٣) عطية صقر، الدعوة الاسلامية دعوة عالمية، ص: ٣٧٨ ـ ٨٣٧٩.
ولفظ الحديث:
«عذبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها، ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».
رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري في عدة مواضع:

انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها الا معه، ولهذا وجب على الانسان أن يبدأ بالعدل في نفسه، ثم بعد له مع غيره. وذكر ان عدله في نفسه يكون بحملها على اعدل الأمرين: من تجاوز أو تقصير، فان التجاوز فيهما جور، والتقصير فيهما ظلم. ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم، ومن جار عليها، فهو على غيره أجور[1].

ومن هنا: كان العدل ميزان الاجتماع في الاسلام، يقوم عليه بناء المجتمع وتستقيم به الأمور، وتسير في مسارها الصحيح، وبه تطمئن النفوس في نيل حقوقها وكل تنظيم اجتماعي لا يقوم على العدل، سرعان ما ينهار، مهما كانت القوة المنظمة له، اذ العدل هو الدعامة القوية، والأساس المتين الذي يقوم عليه الحكم والتنسيق السليم لكل بناء[2].

فالعدالة ـ كما ترى ـ من القيم والمثل الأساسية، التي جاء الاسلام ليقررها بين بني الانسان، وقد كان طبيعياً من الاسلام الذي يحرص على كرامة الانسان، ووصول حقه إليه أن يأتي بالعدالة... فالعدالة ضرورية لضمان العدل واقامة الحق الذي يشيع الطمأنينة، وينشر الأمن، ويشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والاخاء[3].

ويروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفناء بيته بمكة جالساً، اذ مر به عثمان بن مظعون.

فنظر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال له: ألا تجلس؟ فقال: بلى، فجلس اليه مستقبله، فبينما هو يحدثه اذ شخص بصره الى السماء فنظر ساعة، وأخذ يضع بصره، حتى وضع على عتبة في الأرض، ثم تحرف عن جليسه عثمان الى حيث يضع بصره، فأخذ ينفض رأسه، كأنه يستنقه ما يقال له، ثم شخص بصره

---

(١) الماوردي، ادب الدنيا والدين، ص: ١٣٢، تحقيق: مصطفى السقا ط: الثالثة، البابي الحلبي، بالقاهرة، سنة: ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م.

(٢) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الاسلامية وتحديات العصر، ص ٣٣٥.

(٣) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية، ص: ٧٧.

الى السماء، كما شخص اول مرة، فأتبعه بصره، حتى توارى في السماء، واقبل على عثمان كجلسته الأولى، فقال يا محمد: فيما كنت أجالسك، وآتيك ما رأيت تفعل فعلتك الغداة.. قال: ما رأيتني فعلت؟ قال: رأيتك شخص بصرك الى السماء، ثم وضعته، حتى وضعته على يمينك، فتحرفت اليه، وتركتني، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستنقه شيئاً يقال لك... قال: أو فطنت الى ذلك؟.

قال عثمان: نعم. قال: أتاني رسول الله جبريل ـ عليه السلام ـ وسلم آنفاً وأنت جالس. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1]. فذاك حين استقر الايمان في قلبي، وأحببت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2].

والعدل من صفات الهداة بالحق، والداعين اليه قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[3].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ ما أرسل رسله، ولا أنزل كتبه، ولا كلف الناس بالشرائع، الا لاقامة العدل والحق[4]... واقامة العدل احدى وظائف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿... وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ـ وأمرت لأعدل...﴾[5].

وقد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعدل في الحكم بين الناس، لأن ذلك يعيد

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٩٠.
(٢) النيسابوري، أسباب النزول، ص/١٦١.
ورواها احمد في مسنده، جـ: ١، ص: ٣١٨.
ورواها الهيثمي في مجمع الزوائد، جـ: ٧، ص: ٤٨ وقال: فيه «شهر» وثقه احمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر.
وأوردها السيوطي، في الدر المنثور، جـ: ٤، ص: ١٢٨.
وأوردها ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص: ٥٨٣.
(٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٩.
(٤) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية ص: ٧٧.
(٥) سورة الشورى الآية رقم ١٥.

الحقوق لأصحابها، ويقضي على أسباب العداوة والبغضاء، التي قد تتولد في النفوس، بسبب التنازع والتخاصم، فإذا صدر الحكم بالعدل، رضيت به النفوس المتقاضية، وزالت به خصومتهم[1].

والعدل الذي ينادى به الاسلام: عدل مطلق، يساوي بين الناس ﴿. . . واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. . .﴾[2]. ولا تعد العداوة التي تقوم بين الناس مبرراً لقيام الظلم، أو ترك العدل[3].

وروى عن عثمان بن مظعون في قوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[4].

أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه فتعجب فقال: «يا آل غالب: اتبعوه تفلحوا، فوالله ان الله ارسله ليأمركم بمكارم الأخلاق»[5].

ويروى أن أبا طالب لما قيل له: ان ابن أخيك زعم ان الله أنزل عليه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾[6]. قال: اتبعوا ابن أخي، فوالله أنه لا يأمر الا بمحاسن الأخلاق[7].

وروى عن الحسن ـ رضي الله عنه: أنه قرأ هذه الآية: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم

---

(١) د. شوكت عليان، الثقافة الاسلامية وتحديات العصر، ص : ٣٣٦.
(٢) سورة النساء الآية رقم ٥٨.
(٣) د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية، ص: ٧٨.
(٤) سورة النحل الآية رقم ٩٠.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ : ٤، ص: ٣٧٨١.
(٦) سورة النحل الآية رقم ٩٠.
(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ : ٤، ص: ٣٧٨١.

تذكرون﴾[1]. ثم قال: ان الله ـ عز وجل ـ جمع لكم الخير كله، والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه[2].

ويروي ان أكثم بن صيفي، لما بلغه خبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يأتيه، فأبى قومه، وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخف اليه؟ قال: فليأته من يبلغه عني، ويبلغني عنه، فانتدب رجلان، فأتيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالا: نحن رسل أكثم ابن صيفي، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله.

قالا: ثم تلا عليهم: ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القرى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[3]. قالا: ردد علينا القول؟ فردده عليهم، حتى حفظوه، فأتيا اكثم، فقالا: أبى أن يرفع نسبه فوجدناه زاكي النسب، وسطاً في مضر، وقد رمى الينا بكلمات سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: «اني أراه يأمر بمكارم الاخلاق، وينهي عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا أذناباً، وكونوا فيه أولاً، ولا تكونوا آخراً»[4].

ويقول تعالى: ﴿. . . واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾[5] أي: وعليكم أن تعدلوا في القول اذا قلتم قولاً في شهادة، او حكماً على أحد، ولو كان المقول له أو عليه ذا قـرابة فيكم، اذ بالعدل تصلح شؤون الأمم والأفراد، فهو ركن ركين في العمران، وأساس في الأمور

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٩٠.
(٢) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ : ١٤، ص : ١٣١، بتصرف.
(٣) سورة النحل الآية رقم ٩٠.
(٤) القاسمي، محاسن التأويل، جـ : ١٤، ص/١٣٢، بتصرف.
ابن الأثير، أسد الغابة، جـ : ١، ص/١١٢ ـ ١١٣.
ابن حجر، الاصابة، جـ :١، ص: ١٦٣، بنحوه مختصرا.
(٥) سورة الأنعام الآية رقم ١٥٢.

الاجتماعية، فلا يحل لمؤمن أن يحابى فيه أحداً لقرابة ولا لغيرها. فالعدل كما يكون في الأفعال، كالوزن والكيل يكون في الأقوال[1].

فالعدالة من أفضل الأمور التي أتانا بها الاسلام، ومن أبر القيم التي دعت الناس الى الاسلام، ومن العوامل الذاتية التي أدت الى ظهور الاسلام.

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اذا حكمتم فاعدلوا، واذا قلتم فأحسنوا، ان الله يحب المحسنين».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ثلاث من أوتيهن، فقد أوتى مثل ما أوتى ال داود: العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية»[2].

أعدل الشرائع شريعة الله:

لقد عرفت الانسانية كثيراً من النظم والقوانين والشرائع، التي احتكم اليها الناس في القديم والحديث، ولكنها جميعاً جاءت دون ما يتطلعون إليه من قسطاس وعدل، ذلك لأنها من تشريع البشر، والبشر من طبيعته القصور، ولا يعني هذا: اهمال مجال العقل، والفكر البشري، بل للعقل منزلة عظيمة، به يتميز الانسان عن كثير من المخلوقات، ولكن اذا أعمل العقل في غير ما جاء به الوحي فلا بد أن يعجز عن تشريع ما يكفل للبشرية النظام الكامل العادل، وذلك لأوجه القصور الآتية:

الأول: القصور الزماني:

فالانسان مهما نضج عقله، وبلغ من القوة منتهاها، إلا أنه محدود بحدود زمانية، لا يستطيع عقله تجاوزها، مهما كانت عبقريته، والحدود الزمانية بيانها: أننا لو افترضنا أن الانسان علم بحاضره، الذي يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضي، بالاطلاع والدراسة، فإنه لا يستطيع ان يدعي علم المستقبل، ويستحيل على عقله

---

(١) القاسمي، محاسن التأويل، جـ ٨، ص: ٧١.

(٢) رواه السيوطي، في الجامع الصغير، جـ ١، ص: ٥٢٧.

ذلك، وبناء على هذه الحقيقة الأكيدة، فان نظامه لو صلح، فسيكون صلاحه في اطار فترة زمنية محددة، وهذا القصور في ذاته يكفي، قادحاً في النظام، الذي يأتي عن طريق العقل والفكر البشري، ويعرضه للجمود وعدم الصلاحية، بمجرد مرور الزمن، فالغد يأتي بما لا يحيط البشر بعلمه، وعندئذ لا بد من التغيير، وقد يكون التغيير شاملاً، ليستجيب النظام بمستجدات الزمان، وعلى هذا يصبح هذا النظام المحدود حتماً في إطار زمني ضيق، غير قادر على توفير الأمن والاستقرار، والعدالة للمجتمع، لما ينطوي عليه من التقلب المستمر، والتغيير السريع..

إن هذا القصور سمة لازمة للنظم البشرية، جعل الطريق غير مأمون على المجتمعات البشرية في ظل تنظيمها لنفسها[1].

الثاني: القصور المكاني:

والانسان محدود بالمكان ـ أيضاً ـ قد يلم بالمكان الذي هو فيه، ويعرف البيئة التي عاش فيها، وما يرتبط بها، ولكنه يجهل غيرها من البيئات الأخرى، لهذا فان نظامه لو صلح لبيئته التي يعيش فيها ـ على سبيل الافتراض ـ فانه لا يصلح للبيئات الأخرى.

اذن لن تتحقق العدالة في النظم، وهي من الأمور الأساس، ولن تتحقق الوحدة، لأن البشرية متحدة في الأصل والفطرة والغاية، وان اختلفت الألوان والألسنة، وتباينت الشعوب والقبائل، فلا بد من تحقق العدالة والوحدة في النظم، لتعيش المجتمعات البشرية في سلام ووئام[2].

الثالث: الميل الى طرف من الأطراف:

وهي سمة تظهر هي الأخرى على الفكر البشري، قديمه وحديثه، والمستقرىء للفكر البشري، يجد المفكر يجنح في تفكيره الى طرف من الأطراف،

---

(١) د. محمد رأفت سعيد، المدخل لدراسة النظم الاسلامية، ص: ٢٥ ط: دار العلم للطباعة والنشر، بجدة، سنة: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٦.

أو الى جهة من الجهات، أو إلى فكرة أو نزعة، ونحو ذلك، وذلك استجابة لتأثير البيئة على المفكر، وتأثير النزعة التي يربى عليها، فمن ربي على نزعة مادية تطرق إليها، وسار نحوها، ومن ربي على نزعة خيالية جنح اليها، وقد يميل المفكر إلى نزعة فردية ضد الجماعة أو على حسابها، وقد يميل آخر إلى نزعة جماعية ضد مصلحة الفرد، كما أن التنظيم البشري لا يخلو من الهوى والعاطفة[1].

ولعل مدينة افلاطون إحدى النماذج لقصور الفكر البشري، فإنه أراد الخير لمجتمعه، ولكن بحكم قصور عقله ومحدودية تفكيره، أفرز نظاماً مدمراً، فقد رأى أن يقتل الأولاد الذين يولدون لأباء شريرين، حتى يقضي على الشر، في مجتمعه الفاضل، أو مدينته الفاضلة، كما رأى قتل المرضى، والضعفاء، وكبار السن، وكان في هذا النظام متأثراً بعقيدة باطلة، تأثر بها من خلال بيئته، التي كانت تعتقد توارث الشر، فترسبت هذه العقيدة في اعماقه، ورسخت في نفسه، وهذه فكرة نصرانية، لأنهم يعدون بتحريفهم وتبديلهم ان الخطيئة التي ارتكبها آدم، ما زال أبناء آدم يتوارثونها ـ فكرة توارث الخطيئة ـ ومال اليها تفكيره، وتلونت بها شخصيته، فجاء نظامه جائراً، وتشريعه ظالماً، وكان من الممكن ان ينجو الفكر البشري من هذه الافكار الخاطئة، والنظم الجائرة، لو اهتدى بهداية الوحي[2].

ومما وقع فيه أفلاطون من الأخطاء ـ بحكم اعتماده على جهده العقلي بعيداً عن هداية الوحي ـ: التطرف الى الجماعية على حساب الفرد، فكان يرى: ان وجود اي منفعة شخصية لفرد، يهدم منفعة الجماعة، ولذا فيجب ان تنهار المصالح الفردية، ويقضي عليها... بحيث لا يجوز ان يكون لأي فرد في الأمة منفعة شخصية تتميز عن منفعة مجموعها[3].

ان افلاطون نموذج من النماذج البشرية التي حاولت ان تنظم لمجتمعها بجهدها العقلي، بعيداً عن هداية الوحي، فكان هذا التطرف الذي لا يحسن

---

(١) المصدر السابق، ص: ٢٧.

(٢) د. محمد رأفت سعيد، المدخل لدراسة النظم الاسلامية، ص: ٢٧.

(٣) د. محمد رأفت سعيد، المدخل لدراسة النظم الاسلامية، ص: ٢٧.

الجمع بين المادية والروحية، او بين الفردية والجماعية، او بين الواقع والخيال.

الرابع: جهل الانسان بحقيقته:

اذا كان الانسان الذي هو محل النظم لا يزال مجهولاً لنفسه، فكيف يضع النظم الكفيلة في المحافظة على الضرورات، والتي تلبي حاجاته ومتطلبات حياته، وكيف نتوقع منه ان يكون مصيباً فيما يخط من نظام دون هداية الوحي المنزل من خالقه...

ان جهل الانسان بحقيقة نفسه، وطبيعة حاله، حقيقة قررها العلماء المعنيون بدراسة الانسان، وعلى سبيل المثال: فان (الكسيس كاريل) وهو عالم مختص في مجال دراسة الانسان، ألف كتاباً اسماه (الانسان ذلك المجهول) أبان في مؤلفه هذا: جهل الجنس البشري بنفسه، وقد ورد في هذا الصدد قوله: «لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً، لكي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء، وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فاننا استطعنا ان نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا ... اننا لا نفهم الانسان ككل»[1]. ويواصل قوله: «اننا نعرفه على انه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة»[2]. ويتابع قوله مؤكداً: أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان، ما زال غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية[3].

هذه لمحة موجزة عن قصور الفكر والعقل البشري في وضع النظام والتشريع العادل الكامل.

أما الاسلام: فانه جاء في اعلى ما يرتقب البشر، من العدل، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس

(١) الكسيس كاريل، الأنسان ذلك المجهول، ص: ١٦.
(٢) المصدر السابق، ص: ١٧.
(٣) الكسيس كاريل، الأنسان ذلك المجهول، ص: ١٨.

بالقسط[1]. . .﴾ فالميزان هو: العدل، وقيام الناس بالقسط، أي: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به[2].

وقال تعالى: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان. . .﴾[3]. فالميزان: العدل، والعدل: يسمى ميزاناً، لأن الميزان آلة الانصاف والعدل، وقيل: الميزان ما بين في الكتب، مما يجب على الانسان ان يعمل به وقال قتادة: الميزان: العدل فيما أمر الله به، ونهى عنه[4].

ولقد بينت السنة المطهرة عدالة الاسلام، وألقت الأضواء على كتاب الله، سيما في مجال العدل، وضرورة الاحتكام إليه، فهو حجة الله الفاصلة. . . عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «ألا أنها ستكون فتن، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته، حتى قالوا: ﴿. . . انا سمعنا قراناً عجباً. يهدى الى الرشد فأمنا به. . .﴾[5]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم»[6].

---

(١) سورة الحديد الآية رقم ٢٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٨، ص: ٥٣، بتصرف.
(٣) سورة الشورى الآية رقم ١٧.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ٦، ص: ٥٨٣٥.
(٥) سورة الجن، الآتيان: ١ ـ ٢.
(٦) رواه الترمذي في جامعة، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن جـ: ١١، ص: ٣٠.
ورواه احمد في سننه، جـ: ١، ص: ٩١.
ورواه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن ج: ٢، ص: ٣١٣.

ضرورة التزام الحاكم بالعدل:

ان الحاكم في الاسلام ـ بحكم وظيفته ـ مسؤول عن الحكم بين الناس وتحكيم العدل بينهم، بتطبيق احكامه الشريعة الاسلامية عليهم، قال تعالى: ﴿ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيراً﴾[1]. فهذا ـ كما ترى ـ: خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق[2].

فالحكم بالعدل بين الناس يطلقه النص هكذا عدلاً شاملاً بين الناس جميعاً لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدل مع أهل الكتاب، دون سائر الناس، وانما هو حق لكل انسان بوصفه انساناً، فهذه الصفة ـ صفة الناس ـ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً، مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداء، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل، متى حكمت في أمرهم، هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط في هذه الصورة، الا على يد الاسلام، والا في يد هذه القيادة[3].

وقد يتبادر الى الذهن أن هذه الآية الكريمة: ﴿ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها...﴾[4]. يقتصر نطاقها على التطبيق في مجال القضاء والحكم في المنازعات، لكن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب اليه جمهور المفسرين، اذ يقررون أن المراد من الحكم: هو ما كان ولاية عامة أو خاصة[5].

والعدل واجب حتى ولو كان أحد المتخاصمين عدوا للحاكم، أو ولياً له،

---

(١) سورة النساء، آية رقم ٥٨.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ: ٢، ص: ١٨٢٦، بتصرف في العبارة.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٢، ص: ٦٨٩.
(٤) سورة النساء، آية رقم ٥٨.
(٥) د. شوكت عليان، الثقافة الاسلامية وتحديات العصر، ص: ٣٣٦.

فالعداوة يجب الا تكون مانعاً من العدل، بل لعلها توجب مزيداً من الحرص في توخي الحق، واتباع العدل، واجتناب الهوى. كما أن القربى والصداقة يجب الا تكون سبباً في الظلم أو التمييز، أو مجانبة العدل والانصاف[1]. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾[3].

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا»[4].

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن أحب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة، وأشدهم عذاباً إمام جائر»[5].

---

(١) د. عوضين الاسلام والأنسان ص ٣٠٢.

(٢) سورة النساء، آية رقم ١٣٥.

(٣) سورة المائدة، آية رقم ٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الأمارة، باب فضيلة الأمير العادل، جـ: ٨، ص: ٢١١.
ورواه النسائي في سننه، كتاب اداب القضاء، باب فضل الحاكم العادل في حكمه جو: ٨، ص: ٢٢١.

(٥) رواه الترمذي في جامعة، أبواب الأحكام، باب ما جاء في الامام العادل، جـ: ٦، ص: ٧٠، وقال حديث ابي سعيد حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه.
ورواه أحمد في مسنده، جـ: ٣، ص:٢٢.
ورواه السيوطي في الجامع الصغير، جـ: ١، ص: ٣٣٢.

ولعلنا ندرك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية: أهمية العدل في الاسلام، حتى يمكن ان يقال دون مبالغة: بأن الاسلام هو دين العدالة في كل شيء.

وبدهي أن العدالة في مجتمع الاسلام، لم تكن مجرد نظريات بعيدة عن مجال التطبيق العملي، لأنها ليست مفروضة على المجتمع من خارجه، ولكنها نابعة من عقيدته، ومنبثقة منها، فهي تمثل خلقاً لا ينفك عن طبيعة هذا ـ المجتمع، ولا ينفصل عن وجوده، ومن ثم اخذت طريقها في واقع الحياة[1].

وان سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وتاريخ سلفنا الصالح فواح بعطر العدالة، وشذى الانصاف، وتحكيم القسط، اذ كانوا مثلاً رائعة ونماذج رائدة في التزامهم بالعدالة، واحكام مسيرتهم على هداه، بحيث لم يستثنوا من تطبيق العدالة شريفاً لشرفه، او قوياً لقوته، أو شخصاً لقرابته، وانما بلغ الأمر ان كانوا في القضاء موازين قسط، واوعية عدل في التنفيذ والتطبيق حازمين وصارمين حتى عطروا تاريخ الحكم والقضاء والعدالة بخالد الذكر. ولقد بلغ بهم أمر الحرص على شريعة الاسلام لتأخذ مجراها، فيحتكم الى عدالتها الناس، فينتصف للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى، ان اعلنوا هذا في كثير من مواقفهم، وفي كثير من خطب الخلافة، وبيانات الولاية.

ان تأكيد الاسلام على معاني العدل، وضرورة الالتزام به، والنهى عن الظلم، وضرورة تجنبه، ترتب عليه نتائج رائعة، ذلك ان المجتمع الذي يشيع فيه العدل، يشعر أفراده بالاطمئنان على حقوقهم، وقد جاء في الحديث: «انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2].

هذا هو العدل المطلق، الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير

(١) د. ابراهيم عوضين، الأسلام والأنسان، ص: ٣٠٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الحدود، باب اقامة الحدود علي الشريف والوضيع، جـ: ١٢، ص: ٨٦.

قواعده المودة والشنآن. العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به افراد الأمة الاسلامية جميعاً. ولا يفرق بينهم حسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه[1].

لقد حقق الاسلام العدالة بين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو الخليفة من بعده، وبين كل أفراد الرعية... فهذا زيد بن سفنة اليهودي، دان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدين، وتأخر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أداء الدين، لعسرة ألمت به، وجاء زيد فأمسك بتلابيبه، وجذبه بقسوة، وقال له: أما آن لك يا محمد ان تسدد ما عليك من دين؟ وارتاع عمر ـ رضي الله عنه ـ لقسوة زيد، فاخرج سيفه وهم بضربه، فصاح به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ضع يا عمر سيفك في جرابه. لقد كان خيراً لك ان تنصحني بحسن الأداء، وتنصحه بحسن الطلب، وذهل اليهودي مما رآه من خلق رائع، وعدالة تامة مع اختلاف المكانة والدين فأعلن اسلامه[2].

وهناك حادثة اخرى، ابتلى بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في المدينة. وكثيراً ما يبتلى بمثلها في كل زمان ومكان العاملون المخلصون والحكام العادلون، على ايدي نفر من الناس، يتقربون اليهم، ويلبسون لهم مسوح التقى والصلاح، ومحبة الصدق والغيرة على الحق بالباطل، ويعملون جهدهم بأساليب ظاهرها الحرص على الحق والعدل، وباطنها الخداع والتمويه ـ في صرفهم عن إحقاق الحق، وإبطال الباطل[3].

وتتلخص هذه الحادثة فيما ذكره النيسابوري في اسباب النزول: من أن هناك

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ١٠٣.
د. ابراهيم عوضين، الاسلام والانسان، ص: ٣٠١.
(٢) هذه القصة: رواها ابن حبان في صحيحه، جـ: ١، ص: ٢٩٩.
ورواها ابن الجوزي في الوفاء باحوال المصطفى، جـ: ٢، ص: ٤٢٥.
تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط: دار الكتب الحديثة، بالقاهرة.
(٣) محمد شلتوت، الأسلام عقيدة وشريعة، ص: ٧٨.

رجلاً من الأنصار، يقال له: طعمة بن ابيرق، احد بني ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له، يقال له: قتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، حتى انتهى الى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف لهم، اي قائلاً: والله ما أخذها وماله به من علم، فقال اصحاب الدرع: بلى والله قد ادلج علينا فاخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق، حتى انتهوا الى منزل اليهودي، فأخذوه، فقال: دفعها الى طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ: انطلقوا بنا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلموه بذلك، فسألوه: ان يجادل عن صاحبهم، وقالوا: ان لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح، وبرىء اليهودي.

فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يفعل، وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي، حتى أنزل الله تعالى: ﴿انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[1].

هذه الحادثة للناس أجمعين، وللمسلمين منهم بخاصة، ليعلم الناس مقدار الغضب الالهي على الظلم، ومعرفة طريق الحق في معاملة الناس والحكم لهم أو عليهم، كيفما كان دينهم، وكيفما كانت علاقتهم بالقاضي والخصوم وليعلموا مرة أخرى: أن الاسلام لا يعرف المجاملة، ولا المحاباة، في حكمه وقضائه، فالأبيض، والأسود، والضعيف، والقوى، والمسلم، وغير المسلم، والحاكم

---

(١) سورة النساء، آية رقم ١٠٥.
وانظر النيسابوري، اسباب النزول، ص: ١٠٣.
وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.
ومحمود شتلوت، الأسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

والمحكوم، أمام حكم الله، وعدله سواء[1].

والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور:

- فهم الدعوى من المدعى، والجواب من المدعى عليه، ليعرف موضوع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

- خلو الحاكم من التحيز والميل الى أحد الخصمين.

- معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله، ليفصل بين الناس، على مثاله من الكتاب او السنة أو إجماع الأمة.

- توليه القادرين على القيام باعباء الأحكام.

وقد أمر الله المسلمين بالعدل في الأحكام، والأقوال، والأفعال، - والأخلاق[2].

فمن الآيات التي تأمر بالعدل بصورة عامة، قوله تعالى: ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط. . .﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قل أمر ربي بالقسط. . .﴾[5].

ومن الآيات التي أمرت بالعدل في مسائل معينة:

---

(١) محمود شتلوت، الأسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٩.
وقصة نزول الآية الكريمة: ﴿انا أنزلنا اليك الكتاب﴾، والتي ذكرنا قصتها من أسباب النزول للواحدي النيسابوري، ص: ١٠٣، ذكرها ابن كثير، في تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٥٨ - ٣٥٩، وذكرها محمود شتلوت في كتابه الأسلام عقيدة وشريعة، ص: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) القاسمي، محاسن التأويل، جـ: ٥، ص: ٧١.

(٣) سورة النحل الآية رقم: ٩٠.

(٤) سورة النساء الآية رقم: ١٢٥.

(٥) سورة الأعراف الآية رقم: ٢٩.

العدل في القول: ﴿... واذا قلتم فاعدلوا...﴾[3].

والعدل في الكتاب: ﴿... وليكتب بينكم كاتب بالعدل...﴾[4].

والعدل في الحكم: ﴿... واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[5]
﴿.. فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا...﴾[6].

والعدل في الكيل والوزن: ﴿... واوفوا الكيل والميزان بالقسط...﴾[7]، ﴿وأقيمو الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان...﴾[8].

وشواهد من القرآن والحديث كثيرة ـ ذكرنا بعضها ـ، وقد قام المجتمع الاسلامي في صدر الاسلام على معاني العدل، والالتزام بها، فما كان هناك ظلم ولا محاباة، ولا اجحاف، وانما كان هناك العدل الصارم، الذي يتساوى أمامه الشريف والوضيع[9].

خطب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خطبته الجامعة، بعد أن بويع بالخلافة فقال: «أيها الناس اني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له ـ ان شاء الله ـ، والقوى فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه ـ ان شاء الله ـ. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم»[1].

وكتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الى أبي موسى الأشعري كتاباً يحدد

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم: ١٥٢.
(٢) سورة البقرة الآية رقم: ٢٨٢.
(٣) سورة النساء الآية رقم: ٥٨.
(٤) سورة الحجرات الآية رقم: ٩.
(٥) سورة الأنعام الآية رقم: ١٥٢.
(٦) سورة الرحمن الآية رقم: ٩.
(٧) د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص: ١٠٣.
(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ: ٦، ص: ٣٠١.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ: ٢، ص: ٢٢٤.

فيه شروط القضاء، قال فيه: «أما بعد: فان القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ لـه، وآس بين الناس في وجهك وعدلك»[1].

ويقول أنس بن مالك: كنا عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال يا أمير المؤمنين: هذا مقام العائذبك... قال: ومالك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال: فرسى ورب الكعبة، فلما دنـا مني عرفته، فقلت: فرسى ورب الكعبة. فقام إلى فضربني بالسوط، وقال: خذها وأنا ابن الأكرمين. فوالله ما زاده عمر على ان قال له: اجلس، ثم كتب الى عمرو: اذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد، فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: فما بال عمر يكتب فيك، فقدم على عمر. فوالله انا عند عمر إذا نحن بعمرو، وقد اقبل في ازار ورداء. فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقـال: أين المصري؟ فقـال: هاأنـذا. قال: دونـك الدرة، فـاضـرب ابن الأكرمين. اضرب ابن الأكرمين. فضربه، حتى أثخنه، ثم قال: أحلها على صلعة عمرو. فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه.

فقال يا أمير المؤمنين: قد ضربت من ضربني ـ قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه... أيا عمرو: متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. ثم التفت الى المصري، فقال: انصرف راشداً، فان رابك ريب فاكتب الى[2].

---

(١) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٧١ ـ ٧٢، ط: الثانية، البابي الحلبي، بمصر.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الاقوال والأفعال، المطبوع على هامش مسند الأمام أحمد، جـ: ٤، ص: ٤٢٠، ط: دار الفكر، بيروت.
ـ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص: ٩٩ ـ ١٠٠، ط: دار احياء علوم الدين، بدمشق، سنة: ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

فالعدالة في المجتمع الاسلامي تبلغ ذروتها، حتى في نظرة القاضي، ونبرات صوته وكلامه معهم... يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لقاضيه أبي موسى الأشعري «سو بين الخصمين في مجلسك، واشارتك، واقبالك»[1].

ولا زال التاريخ يمد الباحث بقضايا العدل عند الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فهناك حادثة حصلت بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وبين يهودي، تمثل العدالة المطلقة التي دعا اليها الاسلام وحث عليها، ورغب فيها، لكونها من الأسس والقيم التي تميز بها هذا الدين عن غيره، فبهر بها الناس، ودخلوا في دين الله أفواجاً... هذه الحادثة جرت بين حاكم المسلمين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وبين شخص من الرعية يهودي... فقد روى أن سيف عمر ضاع، ثم رآه مع يهودي، فادعاه، وادعى اليهودي أن السيف سيفه، فقاضاه عمر - رضي الله عنه - الى قاضيه، فلما ذهبا للقاضي جلس عمر - رضي الله عنه - واليهودي بين يدي القاضي، وسأل القاضي عمر - رضي الله عنه -، فادعى السيف، وسأل اليهودي فأنكر، وطلب القاضي من عمر - رضي الله عنه - البينة، فلم تكن له بينة، فحكم بالسيف لليهودي، وعجب اليهودي، كيف يحقق الاسلام العدالة والمساواة بين الخليفة عظيم الشأن، وبين فرد عادي من أتباع ديانة أخرى، وكيف يجلس معه عمر - رضي الله عنه - بين يدي القاضي، ثم كيف يكون الحكم لصالح اليهودي، ولا يقبل القاضي قول عمر - رضي الله عنه -، ولم يستطع اليهودي المقاومة أمام هذا الموقف الرائع العظيم، فاعترف ان السيف سيف عمر، ودخل الاسلام[2].

وان قضايا العدل والعدالة تفيض بالعطاء الوفير، فهناك قصة أخرى شهيرة عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة، اذ دخل

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، اصول الدعوة، ص: ١٠٣.

(٢) البلاذي، فتوح البلدان، ص: ٢٤١ - ٢٤٢، عنى بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

جبلة الاسلام، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يكرمه ويجله، ولكن حدث مرة ان وطىء أحد العامة ذيل ازار جبلة، وجبلة يطوف بالبيت، فاستدار جبلة وضرب الرجل بقسوة على أنفه.

فذهب الرجل وشكا الى عمر ـ رضي الله عنه ـ فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء، فاعترف جبلة بأنه ضرب الرجل، فحكم عمر بالقصاص.

قال جبلة: أنا ملك، وهذا سوقة تجلسه بجواري، وتقتص له مني؟. فأجابه عمر: لقد سوى الاسلام بينكما[1].

ولم يستطع جبلة أن يفهم هذه العدالة التي جاء بها الاسلام، فاستمهل عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى يرضى خصمه، ويطيب خاطره، فأمهله عمر ـ رضي الله عنه ـ، فهرب جبلة، وارتد عن الاسلام.

لقد خسر الاسلام جبلة، ولكن كم ألفاً من الناس دخلوا الاسلام على أثر هذه الحادثة؟ انهم آلاف والاف دخلوا الاسلام، حباً في هذه العدالة، التي لم يكن لهم بها عهد.

بل يروى أن جبلة نفسه ـ بعد أن صحا من تسرعه، وفكر في أمره ـ أسف لما حدث منه، ومما يروى عنه في ذلك قوله:

تنصرت الأشراف من عار لطمة	وما كان فيها لو صبرت بها ضرر
تكنفني منها لجاج ونخوة	وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني	رجعت الى الأمر الذي قال لي عمر[2]

تلك كانت عدالة الاسلام، تلك النافذة التي هب منها عطر الاسلام، فجذب الناس اليه، من كل جانب، فاعتنقه الملايين باخلاص وايمان[3].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ١٤١ ـ ١٤٢.
ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٢، ص: ٥٦ ـ ٥٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ: ٣، ص: ٦١.

(٣) د. احمد شلبي، موسوعة التاريخ الأسلامي، جـ: ١، ص: ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

وقد افتقد الخليفة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ درعه، فوجدها عند رجل نصراني، فأقبل به يقاضيه إلى شريح القاضي، وقال: انها درعي، ولم أبع، ولم أهب. فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال: ما الدرع الا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتفت شريح الى علي يسأله: يا أمير المؤمنين: هل من بينة؟، فضحك علي ـ رضي الله عنه ـ، وقال: أصاب شريح، مالي بينة.

فقضى بالدرع للنصراني فأخذها، ومشى أمير المؤمنين ينظر، الا أن النصراني لم يخط خطوات، حتى عاد يقول: اما انا فأشهد ان هذه احكام أنبياء... أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه، فيقضي عليه. أشهد أن لا اله الا الله، وأشهد ان محمداً عبده ورسوله... الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق... فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: أما وقد أسلمت فهي لك.

وهذا كله بين لنا: أثر العدالة في ظهور الاسلام، وتبصر الناس به وتعرفهم على مميزاته، وفضله على الانسانية.

ولا يخفى أن الحاكم العادل عامل من العوامل التي تؤدي الى انتشار الاسلام، ودخول الناس في دين الله.

واذا كان ما سبق أن عرضنا له: يكشف لنا عن عدل الحاكم، فان الحاكم الفقير أدهش الناس عندما رأوا لأول مرة حكاماً يفقدون أموالهم، وينزلون من صفوف الأغنياء الى صفوف الفقراء، وكان العهد بالحاكم: ان يجمع الأموال ويزيد في ثروته... فقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان بعض العرب يسمونه: ملك الملوك: يرقع ثوبه، ويخصف نعله ويبيت على الطوى، وكان له مالٌ وغنى بعد أن تزوج خديجة. قال تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾[1]. ولكنه لم يضف شيئاً الى هذا المال، ولم يحتفظ به، بل

(١) سورة الضحى، الآيات: ٦ ـ ٨.

فقده، فلما مات كان مديناً. وكان ابو بكر ـ رضي الله عنه ـ غنياً قبل الاسلام، ثم أنفق أكثر ماله في سبيل الله، ولما ولي الخلافة، حمل تجارته على كتفه، واتجه للسوق، يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده.. وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر، يعيش في بيت صغير، وينام في المسجد، ويرتدي لباس الفقراء، وفقد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ماله، مع أنه كان من اغنى تجار العرب، وأنفقه في سبيل الله... وكان على ـ رضي الله عنه ـ يقدم ما عنده من الطعام الى المحتاجين[1].

وأدرك الفرس والشاميون والمصريون هذه الأحوال المثالية، ووازنوا بين هؤلاء الحكام، وبين الحكام الذين عرفوهم من قبل، هؤلاء الذين كانوا لاهم لهم الا جمع المال، وحرمان الرعية[2].

ولم يكن الحاكم فقط هو الذي انتبه من غفوته وعرف ربه، ولكن المحكوم ـ أيضاً ـ انتبه من غفوته، وعرف حقه... وانهال الناس يدخلون في هذا الدين الذي حقق لهم ما هو أبعد من الأحلام[3].

وتوضح لنا المراجع التاريخية: ان انتشار الاسلام ارتبط بعهود العدالة لا بعهود القسوة والقسر، فكلما جاء خليفة عادل، انتشر الأسلام، ودخل فيه الناس أفواجاً[4].

ويذكر لنا التاريخ: كيف انهال الناس على الاسلام، يعتنقونه في عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، حتى اصبح الاسلام دين الأكثرية الغالبة بين المصريين، والفرس، وأهل الشام، وخراسان، وسكان الشمال الأفريقي وحتى أعلن كثير من ملوك السند، وملوك ما وراء النهر، دخولهم الدين الاسلامي[5].

---

(١) د. احمد شلبي، موسوعة التاريخ الأسلامي، جـ: ١، ص: ٥٥٧.

(٢) المصدر السابق جـ: ١، ص: ٥٥٧.

(٣) المصدر السابق جـ: ١، ص: ٥٥٧.

(٤) المصدر السابق جـ:١، ص: ٥٥٧.

(٥) د. احمد شبلي، موسوعة التاريخ الأسلامي، جـ: ١، ص: ٥٥٧.

العدل فوق العواطف والأهواء:

ان العدل شريعة الله في خلقه، ولا يمكن الوصول الى العدل، الا عند التجرد الخالص من العواطف والأهواء، والابتغاء الخالص لوجه الله - سبحانه -. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا فأن الله كما بما تعملون خبيراً﴾[1] فالله - سبحانه وتعالى - يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يميلوا عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين، متعاضدين، متناصرين فيه[2].

انها أمانة القيام بالقسط على اطلاقه، في كل حال، وفي كل مجال. القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض، والذي يكفل العدل بين الناس. والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين، ففي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين، والأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، والأغنياء، والفقراء[3].

ويذكر بعض المفسرين: أن الله قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة، لوجوه:

الأول: ان أكثر الناس عادتهم: أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فآذا آل الأمر الى أنفسهم تركوه، حتى ان اقبح القبيح اذا صدر عنهم، كان في محل المسامحة، وأحسن الحسن اذا صدر عن غيرهم، كان في محل المنازعة، فالله - سبحانه وتعالى - نبه في هذه الآية الكريمة على سواء هذه الطريقة، وذلك أنه تعالى أمرهم بالقيام بالقسط أولاً، ثم أمرهم بالشهادة على غيرهم ثانياً، تنبيهاً على ان الطريقة

(١) سورة النساء الآية رقم: ١٣٥.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ: ٢، ص: ٣٨٤.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٢، ص: ٧٧٥.

الحسنة ان تكون مضايقة الانسان مع نفسه فوق مضايقته مع غيره.

الثاني: أن القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الآخرين، وهم الذين عليهم الحق، ودفع الضرر عن النفس مقدم عن دفع الضرر عن الآخرين.

الثالث: أن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول[1].
ويقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾[2].

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ: لقد نهى الله الذين آمنوا ان يحملهم الشنآن على الاعتداء، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة. يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن، على أن يميلوا عن العدل، وهي قمة أعلى مرتقى، وأصعب على النفس وأشق، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده، تتجاوزه الى اقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض[3].

العدل مع غير المسلمين:

ان الاسلام دين الحق والمنطق، والشريعة العادلة، والقسطاس المستقيم الذي ان احتكم اليه الناس صانوا حقوقهم، وأدوا واجبهم، قال تعالى: ﴿انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[4]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل القرآن الكريم، لتحقيق الحق وبيانه: لأجل الحكم بين الناس، بما أعلم الله من الأحكام، وعلى المسلم الا يتهاون في تحري الحق، اغتراراً بلحن الخائنين، وقوة جدلهم في الخصومة، حتى لا يكون

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ: ١١، ص: ٧٣، بتصرف.
(٢) سورة المائدة الآية رقم: ٨.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ: ٢، ص: ٨٥٢.
(٤) سورة النساء الآية رقم ١٠٥.

المؤمن خصيماً لهم، ويقع في مشكلة الدفاع عنهم. ويؤيد هذا: حديث أم سلمة: «انما أنا بشر، وانكم تختصمون الى، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار»[1]. وفي هذا من زيادة الحرص على الحق، والتشديد فيه ما لا يخفى، حتى كان مجرد الالتفات الى قول المخادع، يجب الاحتراس منه[2].

كما أن فيه ايماء: الى أن الاعتقاد الشخصي، والميل الفطري والديني لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء[3].

قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين﴾[4].

ان الاسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وان يجتمع الناس تحت لواء الله اخوة متعارفين متحابين، وليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا، الا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله. فاما اذا سالموهم فليس الاسلام براغب في الخصومة، وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس، بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة[5].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ رخص للمسلمين في موادة من لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ورفع عنهم الحرج في ان يبروهم، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم، فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئاً[6].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري في عدة مواضع كتاب الحيل، جـ: ١٢، ص: ٣٣٩.
(٢) القاسمي، محاسن التأويل ، جـ: ٥، ص: ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٣) المصدر السابق جـ ٥، ص: ١٤٨.
(٤) سورة الممتحنة، آية رقم ٨.
(٥) سيد قطب في ظلال القرآن، جـ: ٦، ص: ٣٥٤٤.
(٦) المصدر السابق. جـ: ٦، ص: ٣٥٤٤.

فكانت تلك العدالة سبباً في تمسك غير المسلمين بولاية المسلمين، والاحتماء بهم من ظلم حكام الروم والفرس، حتى «ان اهل حمص اغلقوا أبوابهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين ان ولايتهم، وعدلهم، أحب اليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم»[1].

في العدل رشاد الأمة:

من أوجب الواجبات: الاحتكام الى العدالة، ووجوب الانتصاف للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوي.

عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا تقدس أمة لا يقضي فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع»[2].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «كيف أنتم اذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله ان تكون فيكم أو تدركوهن:

ـ ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية، الا ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في اسلافهم.

ـ وما منع قوم الزكاة، الا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

ـ وما بخس قوم المكيال والميزان، الا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة وجور السلطان.

ـ ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله، الا سلط الله عليهم عدوهم،

---

(١) توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ص: ٧٩، ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، واسماعيل النحاوي، ط: الثالثة، طبع ونشر: مكتبة النهضة المصرية، بالقاهرة، سنة: ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه، أبواب الأحكام، باب لصاحب الحق سلطان، جـ ٢، ص: ٥٩، رواه مطولاً عن ابي سعيد الخدري، وفي آخره: لا تقدس امة.. الحديث».
ورواه الطبراني، في المعجم الكبير، جـ: ١٩، ص: ٣٨٥.

ـ فاستنقذوا بعض ما في أيديهم.
ـ وما عطلوا كتاب الله، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

فأمور الناس وعلاقاتهم، والأواصر التي تربطهم، يجب ان تكون مركوزة على هذه العدالة، مضبوطة بمنطقها، قائمة على الانصاف والموضوعية والمنطق حتى تصان الحقوق فلا تهدر، وتحفظ الواجبات فلا تمتهن، ولا يشارك في ظلم ولا يعان على باطل.

ومما لا يخفى: أن أحب الناس الى الله ـ عز وجل ـ هم أولئك الذين يرعون العدالة، ويحتكمون اليها، ويحملون غيرهم على الأخذ بها، وان صلاح ـ الأمة، وسداد أمرها، ورشاد حاضرها ومستقبلها، لا يتم الا بالعدل، ولا ينهض الا عليه.

لقد جاء الاسلام بالعدالة، ودعا اليها، وجعل شريعته أمثل منهاج لها، وأمر الحاكم، والمحكوم، بضرورة الالتزام بالعدالة، احتكاماً وتطبيقاً والتزاماً.

وهذه العدالة التي عرضنا لها في كثير من مناحي السلوك، دفعت بالناس الى تفهم الاسلام، والايمان به، والدخول فيه أفواجاً، وانتشاره في بقاع الأرض.

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه، أبواب الفتن، باب العقوبات، ج: ٢، ص: ٣٨٥.
ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ص: ٤٥، رقم الحديث: ١٠٩٩٢.
ورواه الحاكم في المستدرك، جـ: ٤، ص: ٥٤٠.

اليسر والسماحة



اليسر والسماحة

الاسلام هو الدين الوحيد الذي احتوى بين دفتيه منهجاً متكاملاً، لديه القدرة الكاملة، والشاملة على اتيان النفوس، من ابوابها الطبيعية، والتغلغل فيها من طريق مؤثراتها الفطرية، التي لا تجد النفس السوية معها مناصاً اذا مستها اشراقات الحق والخير، من التسليم اليها، والاستجابة لها.

لقد كان الاسلام ـ ولا يزال ـ دين الفطرة النقية، والتشريع السمح الذي يتسم بالسهولة واليسر، والبعد عن التشدد والتعقيد، في كل مناحيه، ومقاصده ومراميه.

راعى الله في الاسلام ما تقتضيه النفوس، وما جبل عليه الخلق، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم، بل إنه من أجل ما يحمله من عناصر البقاء والعموم، لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال، التي ضربها على بني اسرائيل، جزاء ظلمهم وعدوانهم، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذلك: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[1].

وذلك اليسر والسهولة في احكامه واضح، لكل من تتبع الشريعة في أصولها وفروعها، وقد زخر كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصوص التي تدل على ذلك وتؤيده قال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا

(١) سورة الاعراف الآية رقم ١٥٧.

شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعلّ عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلّكم تشكرون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً﴾[4].

فهذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تنطق بنفي الحرج في مسائل الدين كلها، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون مبنية على أساس من السعة والتيسير والسماحة[5].

واذا تصفحنا كتب السنة وجدناها تحمل وقائع كثيرة من افعال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة»[6].

وأخرج الامام أحمد: انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ان خير دينكم أيسره»[7]. وأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ سألوه عن أشياء تحرجوا منها، فقال لهم: «ان دين الله ـ عز وجل ـ في يسر ثلاثاً»[8].

وكان في ذروة وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقواد الجند، وأمراء الولايات: أن يعملوا على أساس من اليسر، ودفع الحرج، وتجنب التشديد، وكل ما كان من

---

(١) الحج آية ٧٨.

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٦.

(٣) البقرة الآية ١٨٥.

(٤) سورة النساء الآية رقم ٢٨.

(٥) د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة، صور من سماحة الاسلام ص ١٠ ـ ١١ ط: دار المطبوعات الحديثة بجدة سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

(٦) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الايمان، باب الدين يسر جـ ١ ص ٩٣.

(٧) رواه احمد في مسنده، جـ ٥ ص ٣٢، جـ ٤ ص ٣٣٨ ورواه الطبراني، في المعجم الصغير جـ ٢ ص ١٠٧، ط: الثانية، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٨٦ م.

(٨) رواه احمد في مسنده جـ ٥ ص ٦٩، من حديث عروة الفقيمي.

شأنه اعنات الناس، والتشديد عليهم[1].

وروى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لمعاذ، وابي موسى الأشعري ـ حينما بعثهما الى اليمن ـ: «يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»[2].

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا، فدرجوا في مسالك الكمال، وصعدوا في مراقي العلا، يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعمّهم الحب والتفاهم في تلاقيهم، فقد وجدوا في كنف دينهم السمح حياة هادئة مستقرة، فسعدوا بظلالها الوارفة، ونعموا بأنوارها الهادية.

لقد وجدوا في هذا الدين ضآلتهم المنشودة، وجدوا فيه منهاجاً باراً، حانياً، عطوفاً، يقدم لهم كل ما يطمئنهم ويثلج صدورهم، ويبعد عنهم كل ما يسوءهم ويحزنهم.

اليسر روح الاسلام وشامته:

لقد شرع الله هذا الدين لعباده، فجعله سهلاً سمحاً واسعاً، ولم يجعله ضيقاً حرجاً، لتتفتح النفس البشرية من خلال مناهجه، وتنمو وتزدهر، وقد أشربت حسب عقيدته، وتعاليمه، واحترام مبادئه وآدابه، والالتزام باخلاقه وسلوكياته، بعد أن رأت فيه الوجه الأصيل، للفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، من السهولة ووضوح القصد، والبعد عن كل ما من شأنه تكليف الانسان من أمره عسراً، ووضعه في دائرة الضيق والحرج، اذ يريد الله ـ تعالى ـ بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر، الأمر الذي يبعث النفوس على الامل، ويحفز الهمم للنشاط والعمل.

قال الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما

---

(١) د/ عبد العزيز الربيعة صور من سماحة الاسلام ص ١١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة كي لا ينفروا جـ ١ ص ١٦٣ وفي كتاب الأدب، باب قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم «يسروا ولا تعسروا جـ ٢٠ ص ٥٢٤.
ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووى، باب تأمير الامام الامراء على البعوث جـ ١٢ ص ٤٢.

اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[1].

انه على قدر الجهد يكون العمل، وعلى قدر الوسع والطاقة يكون التكليف، وعلى قدر العمل والانتاج يكون الجزاء، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لطيف بعبادة، ورحيم بمخلوقاته، لم يكلّف البشر فوق طاقتهم، أو يفرض عليهم ما ليس في استطاعتهم، شفقة عليهم، ورأفة بهم، ورفقاً واحساناً، وتفضلاً منه عليهم، كما انه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحاسب العبد الا بناء على الواقع الفعلي، لما اقترفت يداه أو تلفّظ به لسانه، أو ما اكتسبته جوارحه عن حرية واختيار.

أما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس الأمارة بالسوء وهمساتها بالشرور والآثام، وما قد يعزم العبد عليه، دون أن ينفذ ما عزم عليه، فان الله لا يحاسب الانسان على مثل هذه الأشياء تكرماً منه، وشفقة على عباده من حيث انه لم يكلفهم ما لا يطيقون ولم يؤاخذهم بما لا يعلمون، قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[2].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكلف عباده الا ما يستطيعون تأديته، والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزياً بعمله، ان خيرا فخير، وان شرا فشر، فاضرعوا الى الله أيها المؤمنون داعين: ربّنا لا تعاقبنا ان وقعنا في النسيان، لما كلفتنا أيّاه، أو تعرضنا لأسباب يقع عندها الخطأ، ربّنا ولا تشدد علينا في التشريع، كما شدّدت على اليهود، بسبب تعنتهم وظلمهم، ولا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف، واعف عنا بكرمك، واغفر لنا بفضلك، وارحمنا برحمتك الواسعة، انك مولانا،

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٢٨٦.

فانصرنا يا رب من أجل اعلاء كلمتك، ونشر دينك، على القوم الجاحدين[1].

ويقول ابن كثير: ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكلف أحدا فوق طاقته، وهذا من لطفه ـ تعالى ـ بخلقه، ورأفته، واحسانه اليهم[2]... فالله لا يكلف نفساً الا وسعها ولا يحمّلها الا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه[3].

فالاسلام ـ كما ترى ـ دين السماحة واليسر، جاء بالحنيفية السمحة، التي كانت منهجاً لابراهيم ـ عليه السلام ـ وسائر الأنبياء: ﴿دينا قيماملة ابراهيم حنيفا﴾[4]. لم يحرّم الاسلام علينا ما حرّمه أهل الكتاب من الاحبار والرهبان على انفسهم وأممهم، تعنتاً وتشدداً، أو مغالاة، بل أحل الله للمسلمين الطيبات، وحرّم عليهم الخبائث، ووضع عنهم الاصر، الذي كان على الأمم السابقة، ولم يضيق عليهم، كما ضيّقوا به على أنفسهم، ولم يحل للمسلمين الخبائث التي أحلّوها لأنفسهم، لتستقيم الفطرة، قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون﴾[5].

يقول الفخر الرازي: ان شريعة موسى ـ عليه السلام ـ كانت شديدة، وقوله: (والاغلال التي كانت عليهم)... المراد منه: الشدائد التي كانت عبادتهم[6] وقد كان الله ـ تعالى ـ حرّم على بني اسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم، كما قال

---

(١) لجنة علماء التفسير، المنتخب من التفسير ص ٦٩.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١ ص ٥٠٨.
(٣) القاسمي، محاسن التأويل جـ ٣ ص ٧٣٤.
(٤) سورة الانعام، آية ١٦١.
(٥) الاعراف الآية ١٦٠.
(٦) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ ٨ ص ٢٧.

تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم﴾[1]. والحاصل أن بني إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في الأحكام، في التوراة من العبادات، والمعاملات الشخصية، والمدنية، والعقوبات، كالذي يحمل اثقالاً يئن منها، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والاغلال في عنقه ويديه ورجليه... فأخذ بني اسرائيل بالشدة في الأحكام، وان عيسى ـ عليه السلام ـ خفّف عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية، وشدّد عليهم في الاحكام الروحية، لما كان من افراطهم في الاولى وتفريطهم في الأخرى، وكل هذا وذاك قد جعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ تربية موقوتة لبعض عباده، ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة، التي يبعث بها خاتم الرسل، الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل واقوامهم[2].

لقد خلق الله الانسان وعلم ضعفه، ومدى طاقته واحتماله، فشرع له بالقدر الميسر الذي يستطيعه، ولا يشق عليه: (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[3].

قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً﴾[4].

يقول الفخر الرازي: «هذا عام في كل احكام الشرع، وفي جميع ما يسّره لنا، وسهّله علينا، احسانا منه الينا، ولم يثقل التكليف، كما ثقل على بني اسرائيل»[5].

وارادة التخفيف عن المسلمين ـ فيما أخذهم الله به من أحكام: هي من حكمة الله ورحمته، ليس لأحد أن ينازع الله في حكمته، أو يمسك عن عبادة رحمته، لأنه لا متعلق لأحد بهذه الارادة ولا مطلوب فيها لأحد، انها خالصة من الله بعبادة[6].

---

(١) سورة النساء الآية رقم ١٦٠.
(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار جـ ٩ ص ١٩٨.
(٣) سورة الملك الآية رقم ١٤.
(٤) سورة النساء الآية رقم ٢٨.
(٥) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ ٥ ص ٧٠.
(٦) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن جـ ٥ ص ٧٦٥، ط: دار الفكر العربي، بمصر.

ولا يفوت الباحث: أن يعرف ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد هيّأ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعدّه على نحو خاص، يتواكب دائماً مع روح الاسلام ومنهاجه، في اليسر، والسماحة، والتخفيف، ورفع الحرج، فكان خير نبي بعث بخير رسالة، لخير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى﴾[1]. نوفقك للشريعة اليسرى، وهي: الحنيفية السمحة السهلة[2]، التي يسهل على النفوس قبولها، ولا يصعب على العقول فهمها، وقد جعلت الآية الانسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للانسان، من قبل ان الفعل لا يحصل الا اذا وجدت العزيمة الصادقة والارادة النافذة لايجاده، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق، التي توصل اليه[3].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الشريعة التي دعا اليها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا ليكون مصدر اشعاع، ومنار هداية، وموئل رحمة منه ـ سبحانه وتعالى ـ الى عباده، تشع من جوانبه السماحة واليسر، قال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى﴾[4].

فالاسلام دين لا تكلف فيه ولا اعنات، ولا تنطّع، ولا تشدّد، ولقد نعى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المتنطعين، والمتزمتين، ووضح أن عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ تقوم على الالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، وطاعته بالقدر الميسور الملائم لطبيعة البشر، بلا تجاوز أو تقصير في حق الفرد، وحقوق الآخرين عليه.

عن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «ان الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه، فسددوا، وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة[5].

---

(١) سورة الأعلى، الآيات: ٦ ـ ٨.
(٢) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن جـ ٧ ص ١٠٩.
(٣) مصطفى المراغي، تفسير القرآن جـ ٣٠ ص ١٢٤.
(٤) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن جـ ٣٠ ص ١٥٣٢.
(٥) سورة طه، الآيات: ١ ـ ٣.
(٦) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الايمان، باب الدين يسر جـ ١ ص ٩٣.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[1].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ثلاثة رهط الى بيوت ازواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألون عن عبادة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما اخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال احدهم: وأما انا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي، وارقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

لقد نهى الاسلام عن الغلو في الدين، من غير مراعاة لحق النفس، وحقوق الآخرين قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا تغلوا في دينكم، فانما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم»[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن جـ ١٦ ص ٢٢٠.
ورواه احمد في مسنده جـ ١ ص ٣٨٦.
ورواه ابو داود في سننه، باب لزوم السنة، جـ ٥ ص ١٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح جـ ٩ ص ١٠٤.
ورواه مسلم بصحيحه بشرح النووي، كتاب النكاح لمن تاقت نفسه اليه جـ ٩ ص ١٧٥
ورواه النسائي في سننه، كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل جـ ٦ ص ٦٠.

(٣) رواه احمد في مسنده جـ ١ ص ٢١٥، ٣٤٧.
ورواه ابن ماجة في سننه، كتاب المناسك، باب قدر الحصى جـ ٢ ص ١٨٣ رقم الحديث ٣٠٦٤.
ورواه النسائي في سننه، كتاب المناسك، باب التقاط الحصى جـ ٥ ص ٢٦٨.

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «الاسلام متين، فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه».

ومن سماحة الاسلام ويسره: اباحة طعام أهل الكتاب[1]، ومشروعية الرفق بأهل الذمة[2]، والرحمة العامة بالناس كلهم، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]. . . وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[4].

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان لله ـ تعالى ـ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة في الأرض. . . الحديث»[5]. وهذه نصوص صريحة عامة.

لقد بلغ الاسلام في تسامحه انه اذا دخل دار الاسلام حربى مشرك، فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بسوء، بل أن مبادىء الاسلام توجب على ولى الأمر أن يأمر بحماية هذا الحربى المشرك، حتى يبلغ مأمنه، قال الله تعالى: ﴿وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه﴾[6]. وذلك حينما نقض المشركون عهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أمر الله المسلمين اذا انقضت الأشهر الحرم أن يقتلوا كل مشرك، أو يأسروه، أو يحصروه، الا من كان له عهد فعهده الى مدته، ومن تاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة فيخلى سبيله[7].

---

(١) ابن قدامة، المغني جـ ٩ ص ٣٩٠ تحقيق محمود عبد الوهاب فايد، وعبد القادر احمد عطا، ط مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٩هـ /١٩٦٩ م.

(٢) د/ يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ص ٩ ـ ٣٠، ط مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م.

(٣) رواه احمد في مسنده، جـ ٢ ص ١٦٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأدب، باب رحمة الولي وتقبيله ومعانقته جـ ١٠ ص ٤٢٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء جـ ٠پ ص ٤٣١.

(٦) سورة التوبة الآية رقم ٦.

(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن جـ ١٠ ص ١٦٠٢.

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ: ومع هذه الحرب المعلنة على المشركين كافة، بعد انسلاخ الأشهر الأربعة، يظل الاسلام على سماحته وجديته وواقعيته. كذلك فهو لا يعلنها حرب ابادة على كل مشرك، انما يعلنها حملة هداية، كلما أمكن ذلك، فالمشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي يتعرض للاسلام ويتصدى. يكفل لهم الاسلام ـ في دار الاسلام ـ الأمن، ويأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجبرهم حتى يسمعوا كلام الله، ويتم تبليغهم فحوى هذه الدعوة، ثم أن يحرسهم حتى يبلغوا مأمنهم.. هذا كله وهم مشركون[1].

فالاسلام حريص على كل قلب بشري أن يهتدى وأن يتوب، وحتى اذا لم يستجب المشركون، فقد أوجب الله لهم على أهل دار الاسلام ان يحرسوهم بعد اخراجهم حتى يصلوا الى بلد يأمنون فيه على انفسهم[2].

ولا عجب في هذا كله، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مؤسس دولة، عهد اليها الحق ان تحدث حدثاً لا مثيل له في تاريخ البشر، تسقط به دولا، وتقيم به أخرى، وتنشر في الأرض تعاليم الاسلام، بالسماحة والتيسير على الناس.

من يسر الاسلام في الطهارة:

لقد جاء الاسلام حكيماً في توجيهاته، شريفاً في وسائله ومقاصده، نبيلاً في أهدافه وغاياته، كريماً عندما قدّر ضعف الانسان، وراعى ظروفه، لأنه ادرى بالمصلح له من المفسد، فتعامل معه برفق وحنان، كما يتعامل الطبيب الماهر مع مريضه على النحو الذي يكفل له السلامة، ويضمن له الصحة والعافية.

والباحث في صفحات يسر الاسلام وسماحته، يجد جوانب متعددة، وريّا متجددا وزادا لا ينفد.

فالاسلام على يسر في كافة أحوال المسلمين وسائر شؤونهم، ليظفروا بمرضاة الله، ولتزدهر بهم شجرة الحياة، لأن كل ما فوق الوسع والطاقة، لا يكلّف الله به

---

(١) و (٢) المصدر السابق... جـ١ ص ١٦٠٢.

عباده، حتّى لا يتطرق اليهم الملل، ولا يشيع فيهم السأم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا الا وسعها﴾[1].

لقد راعى الله ظروف الانسان العارضة، وقدّر احواله الطارئة التي تخرج عن ارادته، فنظر الى ذلك نظرة اليسر والتسامح والتخفيف، رفعاً للاثم، ودفعاً للحرج، فأباح التيمم لعباده عند المرض، أو السفر الذي يمنع من استعمال الماء، أو عند فقدانه توسعة منه على عباده، ورحمة بهم، وذلك بالصعيد الطيب، فالله ـ تعالى ـ غنى عن عباده ولا يشرع لهم الا ما فيه الخير والنفع لهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين وان كنتم جنباً فاطّهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيّمموا صعيدا طيبا فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[2].

فالاسلام دين السماحة، يريد للمنتسبين اليه اليسر، ولا يريد بهم العسر فلقد رخص الشارع للمريض الذي يضره استعمال الماء، أو المسافر الذي ليس لديه من الماء ما يكفيه لطهارته، أو المنقطع في مكان ليس به ماء: أن يتيمم صعيدا طيباً، تيسيرا من الله ورحمة بعباده. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ما يريد ليجعل على المسلمين فيما شرعه حرجا ما، ولا أدنى ضيق، وأقل مشقة[3].

فلهـذا سهّل الله على المسلمين، ويسـر ولم يعسّر، بـل أباح التيمم عنـد المرض وعند فقد الماء، توسعة عليهم، ورحمة بهم[4].

وكانت الشرائع السابقة لا يجوز فيها قربان الصلاة بدون تطهر بالماء، مهما كانت الظروف والملابسات، ثم انها تشترط في اجرائها ان تفعل في اماكنها الخاصة

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٩٦.
(٢) سورة المائدة الآية رقم ٦.
(٣) مصطفى المراغي، تفسير القرآن جـ٦ ص٦٤.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص ٥٥.

بها، فجاء الاسلام دين اليسر والسماحة فخفف من وطأة تلك الاحكام، وراعى جميع الأحوال التي قد يتعرض لها المسلم، فأباح له أن يتيمم عند فقده للماء، أو خوفه على نفسه باستعماله لبرد أو مرض شديد[1].

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً... الحديث»[2].

من يسر الاسلام في الصلاة:

لقد اراد الله لعباده اليسر والتخفيف، فأمرهم بالصلاة بالقدر الذي يتيسر لهم، وتتحمله قواهم البدنية، حتى لا يسأم الناس، فيملّوا الطاعة، والناس منهم المريض، والمسافر والمجاهد، الذي لا يستطيع ذلك، فخفف الله عن الجميع تفضلاً منه وتيسيراً على عباده.

قال تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فأقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم اجراً واستغفروا الله ان الله غفور رحيم﴾[3]

فالله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل احصاء تاماً، فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم، وكلفتم ما ليس بفرض، وان نقصتم شق هذا عليكم، فتاب عليكم، ورجع بكم من تثقيل الى تخفيف ومن عسر الى يسر، وطلب منكم أن تصلوا ما تيسر بالليل[4].

---

(١) د/ عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الاسلام ص ٣٩.
(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب التيمم، جـ ١.
(٣) سورة المزمل الآية رقم ٢٠.
(٤) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ ٢٩ ص ١٢٠.

فلا تتجاوزوا ما قدّره لكم رحمة بانفسكم[1] ويقول تعالى: ﴿واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾[2].

فالسفر يفرض على صاحبه أن يسير في برنامج غير برنامجه الذي استمرأ سلوكه في حال الاقامة، كما انه يفرض عليه تجشم المصاعب من الادلاج، والسهر، والتعرض للبرد، أو الحر، أو اعواز الماء، وخوف الانقطاع، فهو حينئذ ليس بمطمئن البال، ولا يستريح الجسم، ومن أجل ذلك كان السفر مظنة للمشقة والعناء، فكان جديراً بأن يحظى بنوع من اليسر والسهولة في التكاليف، كي يستطيع المسافر القيام بها، دون ادخال له في الحرج[3]. ولهذا ليس على المسلمين جناح ان يخففوا من كمية الصلاة، بأن نجعل الرباعية ثنائية[4].

ومن يسر الاسلام وسماحته في الصلاة أنه قد يطرأ على الانسان ما يجعله لا يستطيع اداء الصلاة المكتوبة قائماً، كما هو الحال في الظروف العادية المألوفة، كأن يكون في حالة خوف من عدو متربص، أو وحش مترقب، انه في هذه الحالة يصلي كيفما تيسر له، راجلاً أو راكباً، حيثما توجه ولا تسقط بحال. هذا اذا كان منفرداً، أما اذا كانت جماعة: فلها احكام مبسوطة في كتب الفقه.

قال تعالى: ﴿فان خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[5].

يقول القرطبي: فكما أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحال القنوت، وهو: الوقار، والسكينة، وهدوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة،

---

(١) القاسمي، محاسن التأويل جـ ١٦ ص ٥٩٦٣.
(٢) سورة النساء، آية رقم ١٠١.
(٣) د/ عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الاسلام ص ٥٠.
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٣٤٧.
(٥) سورة البقرة، آية رقم ٢٣٩.

ذكر حالة الخوف الطارئة احياناً ويبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد بحال، ورخّص لعباده في الصلاة رجالا على الاقدام، وركبانا على الخيل والابل ونحوهما، إيماء واشارة بالرأس حيثما توجه. هذا قول العلماء وهذه هي صلاة الفذ، الذي قد ضايقه الخوف على نفسه، من سبع يطلبه أو من عدو يتبعه، أو سيل يحمله، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمنته هذه الآية[1].

فان خاف المسلمون أي ضرر من القيام قانتين لله، صلّوا كيفما تيسر لهم راجلين أو راكبين، وفي هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، إلا حال الخوف على النفس أو المال أو العرض مظنة العذر في تركها، كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام، والسبب في عدم سقوطها على المكلف في كل حال، انها عمل مذكر بسلطان الله ـ سبحانه وتعالى ـ المستولي علينا، وعلى العالم كله، وما الأعمال الظاهرة الا مساعدة على العمل القلبي المقصود بالذات، إذ من شأن الانسان انه اذا أراد عملاً قلبياً، يحتاج الى جمع الفكر، وحضور القلب، أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل.

فإذا تعذر بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية، وهي: الاقبال على الله، مع الاشارة الى تلك الأعمال بقدر المستطاع، ويكون ذلك حين قتال العدو، أو الفرار من أسد، فيصلي المكلف راجلاً أو راكباً ان حانت الصلاة، لا يمنعه من ذلك الكرّ والفرّ، والطعن والضرب، ويأتي من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطاع من ركوع وسجود، ولا يلتزم التوجه للقبلة[2].

فالصلاة لمّا كانت خير ذكر، قصر أمر الله بها المؤمن، وكلفه بأدائها على أي وجه استطاعه، والمؤمن من يجب عليه أن يذكر الله في كل أحيانه، كما كان يفعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب، وبالتفكير في ملكوته وآلائه يرسخ الايمان، والصلاة من الذكر، فان صلى الانسان وكان مريضاً يشق عليه

---

(١) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن جـ ١ ص ١٠٣١.

(٢) مصطفى المراغي، تفسير القرآن: جـ ٢ ص ٢١٣.

القيام، صلّى قاعداً، فان لم يستطع فعلى جنبه، يومىء إيماء، فما جعل الله على المسلمين في الدين من حرج.

قال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[١]. واذا كانت الآية في الصلاة ففقهها: ان الانسان يصلي قائماً، فان لم يستطع فقاعداً فان لم يستطع فعلى جنبه[٢].

ما أعظم رحمة الله بعباده، وما أجلها من رحمة، وما أيسر تشريعاته التي شملت الدين كله، فقد جمع الله في تشريعاته السمحة بين خيري الدنيا والآخرة، فأمر عباده بالضرب في الأرض، اما سعياً على العيش الحلال، واما جهاداً لنشر دينه واعلاء كلمته، مع تيسير العبادة لهم في السفر صلاة وصوماً حسب حالهم وطاقتهم.

والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مثالاً يحتذى لأمته في عدم التضييق والتشديد، فلقد كانت صلاته وخطبه ومواعظه، لا بالقصيرة المخلة، ولا بالطويلة المملة، وكذلك تعلم منه، واقتدى به اتباعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ. عن عمران بن الحصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «صل قائماً، فان لم تستطع فقاعداً، فان لم تستطع فعلى جنب»[٣].

وعن المغيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «صل بصلاة اضعف القوم»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها: ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها

---

(١) سورة آل عمران، آية رقم ١٩١.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص١٥٥٣.
(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة، باب اذا لم تطق قاعداً فعلى جنب جـ٢ ص٥٨٧.
(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري ـ كتاب الآذان، باب من شكى امامه اذا طول جـ٢ ص٢٠٠.

وعندها امرأة، قال: «من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مه عليكم بما تطيقون... فوالله لا يمل[1] حتى تملوا»[2].

فالاسلام ـ كما ترى ـ: هو المنبع الصافي، الذي يستقى منه المسلم ما يصلح حاله في الدنيا والآخرة، مع التيسير عليه، حتى يتمكن من أداء ما كلف به على خير وجه.

من يسر الاسلام في الصيام:

لقد راعى الاسلام السهولة واليسر، والبعد عن الغلو، والتشدد، فراعى ظروف كل انسان في تشريعاته الرحيمة، قوة وضعفاً، صحة ومرضاً، فصار بلا ريب دين الفطرة، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من مضمون، ومدلول، فعندما شرع الصوم راعى ظروف المسافر والمريض، الذي يشق عليه الصوم، والمرأة اذا كانت حاملاً أم مرضعاً، والشيخ الهرم، والذين يقومون بأعمال شاقة، فخفّف عنهم، وجعل لهم من الأحكام الميسرة السمحة، ما يجعلهم يشعرون بالطمأنينة والرضا، فيقبلون على طاعة الله بقلوب راضية ونفوس مطمئنة.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وان تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[3].

فالمريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر[4].

---

(١) (لا يمل) أي يعطى الثواب، ولا يعجز، ولا يعرض عن العبد، ولا يقطع عنه الاقبال عليه بالرحمة والاحسان. (حتى تملوا) أي تقصروا في طاعة الله، وتعرضوا عن عبادته بعد الدخول فيها، لملالة النفس. ابن حجر، فتح الباري، كتاب الايمان، باب أحب الدين الى الله أدومه جـ ١ ص ١٠٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الايمان، باب أحب الدين الى الله جـ ١ ص٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٢٠٦.

وصوم رمضان في أصل مشروعيته رحمة وتيسير، وفضل واحسان، فحينما ننظر الى هذه العبادة في مراحلها المختلفة، وجوانبها المتعددة، نجد اليسر والسماحة صفة بارزة فيها، فالأيام التي يجب صيامها قليلة جداً، بالنسبة لايام السنة، قال تعالى: ﴿اياماً معدودات﴾[1].

إن الاسلام يتسم باليسر والسماحة، مما دفع الكثير من الناس الى الدخول في هذا الدين، الذي جاء بالتكاليف، التي تتجاوب معها الفطرة، اذ ليس في العقائد التي اعتنقتها البشرية على مدى تاريخها الطويل، كعقيدة الاسلام السمحة، التي انتظمت شؤون الخلق ديناً ودنياً، على أحسن نظام، وأكمل منهج، لقد راعى الاسلام في جميع تشريعاته الضعفاء والمرضى واصحاب الاعذار، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، بل شرع ما يناسبهم من الرخصة والتيسير والتخفيف، قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾[2].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر، اذ أنه قد أوجبه في مدة قليلة من السنة، ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض، ولا على المسافر، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة[3].

وجاء في تفسير المنار، في قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر...﴾[4].. هذا تعليل لما قبله، أي يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٨٤، وانظر د/ عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الاسلام ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٨٥.

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير جـ٣ ص ٩٨.

(٤) سورة البقرة الآية رقم ١٨٥.

الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الاحكام ان يكون دينكم يسرا تاماً، لا عسر فيه، وفي هذا التعبير ضرب من التحريض والترغيب في اتيان الرخصة، ولا غرو، فالله يحب أن تؤتى رخصه، كما تؤتى عزائمه، وذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس باحكامه، وانما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم[1].

يسر الاسلام في تشريعاته:

لقد بنى الاسلام تشريعاته كلها على اليسر والسماحة والرحمة، ولم يقصد بتكاليفه ـ على وجه عام ـ عنتا ولا ارهاقاً، ولم يأمر بشيء فوق طاقة البشر، وانما جعل لهم رخصاً، اذا عجزوا عن القيام بالتكاليف.

واذا كانت آية الله قد أوضحت أن الغرض من التشريع الاسلامي هو التيسير فان سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد واكبت دعوة القرآن الكريم، مما دفع الناس الى النظر في الاسلام، والبحث عنه، والدخول فيه.

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه، الا ان الله فرض فرائض وسن سنناً، وحد حدوداً وأحل حلالاً، وحرّم حراماً، وشرع الدين، فجعله سهلاً، سمحاً، واسعاً، ولم يجعله ضيّقاً»[2].

وكل ما سبق من غير شك فرائض حتمية، لها ايحاءاتها الحيوية، والمهمة، والواجبة، التي لا سبيل الى غيرها، مما دعا الناس الى التفكر في الاسلام، والدخول في عتبته.

على أن دين الاسلام رفق كله، لا حرج فيه، ولا عنت، ولا اصر، ولا مشقة ولا تزمت، ولا جمود، وانما يسر وتخفيف، وبرّ ورحمة، واستصحاب لمصلحة الخلق، واعتبار لمعاذيرهم، ورعاية لأحوالهم، في استيعاب وشمول، وليس على المسلم الحق من شيء بعد بذل طاقته، وأداء وسعه، ولا تكليف له مطلقاً، ولا

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار جـ ٢ ص ١٣٢.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، جـ ١١ ص ٢١٣.

التزام فوق هذا الوسع، وهذه الطاقة.

وهذا في ذاته من خير ما يوحى بمرونة الاسلام، وفطريته، ويسره وسماحته وانسانيته، وعدله، وقسطاسه، وقصده.

قال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً﴾[2].

يقول ابن كثير: «يريد الله أن يخفف عنكم في شرائعه، وأوامره، ونواهيه وما يقدّره لكم»[3].

قال الامام احمد بسنده الى عروة، قال: كنا ننتظر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلمّا قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا... فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان دين الله في يسر، ثلاثاً يقولها».

فالاسلام يفرض على المسلم ـ وهو يمارس شعائره ـ الا يتجاوز وسطيته، فيشق على نفسه، ويكلفها فوق طاقتها، اذ أن هذا الدين متين واسع الأطراف.

وقد يؤتى المتزمت المتشدد من قبل نفسه، فتعجز عن عونه ومساعدته، وتنقطع به وسط الطريق على صورة قد لا تتفق ودين الله ـ عز وجل ـ. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فان المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»[4].

وأن الباحث ليقف على سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأسوة الحسنة، فيجدها في سلوكه، وعاداته، وعباداته، ومعاملاته، اذ كان اليسر والتيسير والسماحة دأبه، وديدنه، الذي يلتزم به، ويوصي به أمته وأصحابه ويحذرهم من أن

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١ ـ ٣.

(٢) النساء الآية ٢٨.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٢ ص٢٣٣.

(٤) رواه البخاري، في التاريخ الكبير، جـ١، ق١، ص١٠٣ ط دار الكتب العلمية، بيروت.

يتجاوزوه، ويبين لهم أن خير دينهم أيسره، وأن يكون التيسير والتبشير، وتسكين النفوس، وطمأنتها، وتهدئه خواطرها، وعدم فتنها وافزاعها واقلاقها، هدفاً اصيلاً من اهدافها، التي تدعو الى انتشار الاسلام.

التيسير والسماحة في الدعوة:

اذا كان ـ كما عرفنا ـ ان الاسلام خير كله، ويسر كله، وأن خير الدين أيسره، فان خير الحياة أيضاً ـ أيسرها واقربها الى الفطرة، واذا كان الله ـ تعالى ـ قد حرّم على الناس أشياء، فقد حرمها لخبثها، بينما أحل أكل الطيبات.

فلا ينبغي للانسان أن يشق على نفسه، ويجنح بها الى التضييق، والحرج، والعنت، والمشقة، ويمنعها من المباح، (يحبس عنها الطيبات التي احل الله﴾.

ان نفس الانسان مطيتـه، اذا أحسن استحدامهـا، وأخذهـا باليسـر، وعدم اعناتها، والمشقة عليها، سلمت وبقيت له تؤدي مهامها، المنوطة بها، والغايات المتوخاة منها.

ما أجل الاسلام وما اعظمه من دين، وهو يوجّـه الدعـاة والمصلحين، أن يحتكموا في عملهم، ومهمتهم الى أدب الدعوة، ومنهجها من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، وأن يشكل الرفق والهواد واللين، إطاراً يدور هذا المنهج الرباني في فلكه، ويلتزم به.

قال تعالى: ﴿أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

فهذه الآية نزلت بمكة المكرمة، في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو الى دين الله بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكـذا ينبغي أن يوعظ المسلمون الى يوم القيامة[2].

---

(١) سورة النحل، آية رقم ١٢٥.

(٢) الجامع لاحكام القرآن جـ ٤ ص ٣٨١٦.

فالله سبحانه وتعالى ـ كما ترى، يأمر نبيه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن تكون دعوته قائمة على المنهج، الذي يمثل الكمال كله، في غرس المعارف وتربية النفوس، ومن الدعوة بالحكمة: مراعاة مقتضى الحال، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون، وأخذهم بالرفق، والتيسير، والسماحة، والتلطف. واختيار الوقت المناسب، للموعظة التي يراد وعظهم بها، حتى تتقبلها النفوس، وتنتفع بما فيها من خير... إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طبيب يحمل الدواء الى العقول والقلوب والأرواح. ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة، يحتاج معها الى بصيرة نافذة، تتدسس إلى خفايا النفس الانسانية، وتضع يدها على موضع الداء، ثم تختار من الدواء ما يشفى العلة، ويذهب الداء[1].

وإذا كان منهج الدعوة ليس الا من صنيع الحق ـ تبارك وتعالى ـ ومن تنزيله، فلقد كان الوحي يوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى احكم آدابه، وأمثل اساليبه مع المدعوين، وذلك بأن يفتحوا لهذا الدين قلوبهم، ويجيلوا فيه عقولهم، ويستلهموها صواب الفكر، ورشاد الموقف، وحيدة النفس، في روية وأناة، من غير إنغلاق، ولا تحجر، قال تعالى: ﴿قل أنما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾[2].

وإنما طلب منهم التفكير، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، لأن في الأزدحام تهويش الخاطر، والمنع من أطالة التفكير وتخليط الكلام، وقلة الأنصاف[3].

والآية الكريمة تكشف عن اسلوب الدعوة الأسلامية، القائم على مواجهة العقل ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، واعطائه حقه في طلب الدليل المقنع، والبرهان الواضح ثم الأعتراف له بما يقتضي به بعد النظر السليم، المجرد من

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، جـ ١٤ ص ٣٩٨.
(٢) سورة سبأ الآية رقم ٤٦.
(٣) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ ٣٢ ص ٩٦.

الهوى، المبرأ من التحدي والعناد.

فهذه رسالة الأسلام في الأنسانية، أنها تريد أولاً وقبل كل شيء: أن تحرر العقل من العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة، التي استولت عليه، وشلّت ارادة التفكير فيه، فإذا تحرر العقل من هذه الآفات، وتخلص من القيود، فقد كسب نصف المعركة في صراعه مع الباطل، ثم كان عليه بعد هذا: أن يكسب النصف الآخر، حتى يتخلص من الضلال ويخرج من عالم الظلام على عالم الهدى والنور وهو ان يدير عقله على هذا الوجود، وإن ينظر فيه بعقله المتحرر، فأنه ان فعل، فلا بد أن يهتدي الى الله، ويتعرف اليه، ويؤمن به[1].

قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن الا الذين ظلمـوا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم وإلهنـا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[2].

والمعنى ـ كما يقول الآلوسي ـ: ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الا بالتي هي احسن، أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، والتسرع بالأناة[3] فلا تجادلوا من اراد الاستبصار في الدين، الا باللين والرفق[4].

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على تبليغ الأسلام، واحناهم على تبليغ الدعوة، ببذل قصارى جهده في الدعوة الى الله، ونشر دينه في الآفاق، رغبة في هدايتهم وايمانهم، وكان يتوسل الى ذلك بشتى صنوف القول، الذي يتفجر بالرفق، ويفيض باللين، ويشع بالحرض ويتألق بالرغبة الأكيدة في هدايتهم.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، جـ ٢١ ص ٨٣٨.
(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٦.
(٣) الآلوسي، روح المعاني، جـ ٦ ص ٤١٦، ط، دار الفكر العربي ببيروت مصطفى المراغي، تفسير القرآن جـ ٢١ ص ٥.
(٤) مصطفى المراغي، تفسير القرآن جـ ٢١ ص ٥.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما أنزل الله ـ عزوجل ـ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1]. أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: يا صباحاه[2]. فأجتمع الناس اليه بين رجل يجيء اليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي: أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ «قالوا: نعم. قال: «فأني نذير لكم بين عذاب شديد»[3].

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثاقب النظرة، بعيد الأفق وهو يرسل أول مبعوث في الأسلام، وأول داعية له، وسفير الى المدينة المنورة، عقيب اسلام أول طلائعها، إذ تحرى أن يكون هذا الموقف على مستوى الدعوة، وكان مصعب بن عمير خير من وقع عليه هذا الأختيار النبوي الأمثل، الذي صادف أهله وقام بمهمته في الدعوة خير قيام، متوسلاً اليها برفقه، وتحمله، وأناته.

قال ابن هشام: قال ابن اسحاق: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب ابن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، فجلس في الحائط واجتمع اليهما رجال ممن اسلموا، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ـ وكلاهما مشرك على دين قومه ـ فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا، ليسفها ضعفاءنا، فاز جرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فأنه لولا أن سعد بن

---

(١) سورة الشعراء، آية رقم ٢١٤.

(٢) ياصباحاه: كلمة تقولها العرب اذا صاحوا للغارة، لأنهم اكثر ما يغيرون عند الصباح، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح، كما يقولونها عند وقوع أمر عظيم، ليجتمعوا وتأهبوا له.
شرح النووي على صحيح مسلم، جـ ٣ ص ٨٢.
ابن منظور، لسان العرب، جـ ٢ ص ٥٠٥ مادة (صبح).

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب التفسير، باب: «وانذر عشيرتك الاقربين» جـ ٨ ص ٥٠١.

زرارة، منى حيثما قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً. فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل اليهما، فلمّا رآه سعد بن زرارة، قال لمصعب: أن يجلس أكلمه، فوقف عليهما، فقال: ما جاء بكما الينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، ان كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فأن رضيت أمرا قبلته، وأن كرهته كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما فكلمه مصعب بالاسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الأسلام قبل أن يتكلم، في اشراقه، وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطّهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام وأغتسل، وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: ان ورائي رجلاً ان تبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله اليكما الآن: سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته، انصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا الى سعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك انهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، فقام سعد مغضباً، مبادراً، تخوفا للذي ذكره له من بني حارثه، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج اليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً أنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لسعد بن زرارة: يا ابا أمامة: أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، اتغشانا في ديارنا بما مكره؟ ـ وقد قال سعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراؤه من قومه أن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ـ فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فأن رضيت أمراً ورغبت فيه، قبلته، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس، فعرض عليه الأسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم، لا شراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبه، وتشهد شهادة

الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً الى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله: لقد رجع اليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم، قالوا: سيدنا وأوصلنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا تقيبة قال: فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما امسى في دار بني عبد الأشهل رجل وأمرأة الا مسلماً ومسلمة ورجع سعد ومصعب الى منزل سعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس الى الأسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1].

وهكذا يفعل الدين الأسلامي إذا تغلغل في الأورواح، ونفذ سلطانه في أعماق النفوس، وامتلك القلوب[2].

ومن هذا يتبين لنا سرّ سرعة انتشار الأسلام ودخول الناس فيه، فقد وضح ما ذكره ابن هشام في سيرته: ان الناس كانوا يأتمرون بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فأستجاب لهم الناس، وتفتحت قلوبهم لهذا الدين القيم، الذي جاء من عند الله.

التيسير في التقوى:

علّم الأسلام الناس: أن من حق النفس على صاحبها: ألا يرهقها، ولا يكلفها من امرها عسراً، والا يضطرها الى الشطط، والتجاوز والخروج عن الجادة بتكليفها ما لا تطيق وما ليس في وسعها.

ومن الصعب الباهر: ان الأسلام يلتقي بتشريعاته، وتكاليفه مع هذا الحق، فرغب في تلبيته، وحذّر من مخالفته، ونهى عن كل ما لا يستجيب له، ولو كان هذا في نطاق الطاعة والعبادة.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٣ ص٤٣ ـ ٤٦.
(٢) عائض القرني، شباب عادوا الى الله ص١٣ ط الاولى، مطبعة سفير، بالرياض سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ الناشر: مؤسسة الجريسي.

فالاسلام دين اليسر والسماحة، لا يمكن ان تلمس معه حرجاً، أو مشقة في أي جانب من جوانبه، عقيدة وشريعة، وعبادات، ومعاملات. قال تعالى: ﴿فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

فأتقوا الله في حدود ما تحمل أنفسكم، وما تتسع طاقتكم له، لأن هذا الدين سهل سمح، لا ينتفع به، الا إذا أخذ سمحاً سهلاً، تتقبله النفوس، وتنشرح له الصدور، شأنه في هذا شأن الطعام، لايفيد منه الجسم، الا اذا طابت له النفس، وأشتهته، واستساغت طعمه، واستطابت مضغه وبلعه[2].

فالأسلام دين واقع، ودين رحمة، وعدل وأحسان وتيسير وسماحة، لا يرى الا انهم بشر تتحكم فيهم نوازع وعواطف، وتعرض لهم عوارض الضعف ويلحقهم ما يلحق الكائن الحي.

فقوله تعالى: ﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾ هو الميزان الذي يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله، وان يتقى هذه الفتن التي تهب عليه من كل جهة يتقيها بقدر ما يملك من قوة، وما يتحمل من جهد، لأن كل نفس لها طاقة من الأحتمال، ولها قدر من القوة، وانه على طاقتها وقوتها تحاسب، فتجزي بما كسبت، وعلى ما أكتسبت[3].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما خيّر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أمرين الا أخذ أيسرهمّا ما لم يكن أثماً، كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[4]

يقول ابن حجر شرح الحديث: فيه الحث على ترك الأخذ بالشيء المعسر

---

(١) سوره التغابن الآية رقم ١٦.

(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن جـ١٧ ص١١٠٥.

(٣) المصدر السابق، جـ٢٨ ص٩٩٢.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ٦ ص ٥٦٦.

والأقتناع بالميّسر، وترك الألحاح فيما لا يضطر اليه، ويؤخذ من ذلك الندب الى الأخذ بالرخص، ما لم يظهر الخطأ[1].

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه، القدوة في التوجيه والتربية، على القصد، والتيسير، والتوسط، والأعتدال، فما أعرض عن أمر الا لحكمة، تتمثل في رغبته في أن يرفق وييسر على أمته في كل أمورهم.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «دعوني ما تركتم، فأن ما أهلك من كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على انبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وما امرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[2].

قال ابن حجر: قال النووي: هذا من جوامع الكلم، وقواعد الأسلام، ويدخل فيه كثير من الاحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط، فياتي بالمقدور، وكذلك الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، وأخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل.

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيراً ما يركز على أن خير الطاعة، وأكثرها قبولاً، ما كانت يسيرة، سهلة، سمحة، لا حرج فيها، ولا مشقة، ولا تزمت وان القصد والتوسط ينبغي أن يكون هدف المسلم، وغايته. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن خير دينكم أيسره» . .

وبعد هذا الذي عرضنا له في ايجاز: نجد ان مجالات السماحة واليسر في الأسلام تتصل بكل أمورنا، وفي جميع ما يتصل بنا: في الدين، والدعوة والعادة والعبادة، والحكم والعمل، والنفس، والأسرة، والمجتمع، والسلم، والحرب، وغير ذلك مما له بنا اتصال.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، جـ ٦ ص ٥٦٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ١٣ ص ٢٥١.

حقاً ان الأسلام دين السماحة واليسر، لا يشق على الناس، ولا يكلفهم من أمرهم عسراً، في مطعمهم ومشربهم، وعباداتهم، وسائر أساليب حيـاتهم.. أنه ـ دائماً ـ يضفي على الداخلين فيه هالة، قوامها النبل، والسمّو والترفع، والعطاء، والتسامح، واليسر والرحمة.. وان تكون نفوسهم في الذرا، وأيديهم في العليا يوثقون عراهم بمجتمعهم، وينقلون على متون سلوكهم وواقعيتهم موارث دينهم، وتبعات تكاليفهم، ومقاليد ما بين ايديهم من أمانة الحق، الى من خلفهم حتى تظل كلمة الله موصولة في البشر.

* * *

الوضوح

الوضوح

الوضوح سمة من سمات الأسلام، دفعت الناس الى إدراك مزايا هذا الدين، الذي جاء بالمنهاج الرباني، الذي أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ليبلغه للناس أجمعين، وليبينه لهم، ولتختم به الرسالات.

وهذا المنهاج هو من عند الله وحده، وهو إما وحي يتنزل على الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعنى والنص، أو الهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ونبيه بالمعنى، يصوغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المعنى بأسلوبه النبوي.

وبذلك يكون المنهاج الرباني هو القرآن الكريم، وما صح من حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وهذا المنهاج ـ على هذه الصفة ـ يتميز عن كل ما يمكن أن يضعه البشر من مناهج، وضعية بصفات تبرز علوه وربانيته[1].

ومن هنا كان الوضوح في هذا المنهاج صفة أساسية في هذا المنهاج، الذي جاء به الخالق لاصلاح حال الخلق. ولهذا سمي الله ـ عزوجل ـ القرآن الكريم: تبيانا وبينات لأن في القرآن العزيز الهدى والشفاء والبيان البين الجلي.

في القرآن بيان لكل ما يحتاجه بنو الأنسان، في حياتهم الأجتماعية، بأروع عبارة، وأجمل أسلوب، وأبين بيان.

---

(١) عدنان النحوي، دور المنهج الرباني في الدعوة الاسلامية، ص ٢٧ ط/ دار الاصلاح السعودية.

وفي القرآن بيان كل شيء من البداية الى النهاية، حتى يستقر أهل الجنة بنعيمهم، وأهل النار في جحيمهم[1].

فمعرفة الله، ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يجب له ـ تعالى ـ، وما لا يجب. والعقيدة الاسلامية، وأحكام العبادات والمعاملات، وجميع الشؤون الأجتماعية، والأحوال الشخصية، وكل ما تحتاجه المجموعة البشرية، في كل زمان ومكان، وأحكام المعاد والبعث، والنشور، والحساب والجزاء، والعقاب وغير ذلك هو موضع ومبين في كتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2].

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الأيات البينات، والمبينة، مما يشير صراحة وضمنا، وجملة وتفصيلاً إلى أهمية الوضوح، ودوره في الأسلام بين الناس.

ويقال: بأن، وأستبان، وتبين، وقد بينته. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿... وقد تبين لكم من مساكنهم...﴾[3].

﴿... ولتستبين سبيل المجرمين...)[4].

﴿... قد تبين الرشد من الغى...﴾[5].

﴿... قد بينا لكم الآيات...﴾[6].

---

(١) صالح بن ابراهيم البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، جـ١ ص/٢٠٠، ط/المطابع الاهلية بالرياض.

(٢) المرجع السابق، نفس الجزء ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٣٨.

(٤) سورة الانعام الآية ٥٥.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٦) سورة آل عمران الآية ١١٨.

﴿... وتبين لكم كيف فعلنا بهم..﴾[1].

﴿... وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما انزل اليهم...﴾[2].

﴿... ليبين لهم الذي يختلفون فيه...﴾[3].

﴿... فيه آيات بينات...﴾[4].

﴿... هدى للناس وبينات...﴾[5].

﴿... ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه...﴾[6].

ويقال: آية مبيَّنة - بتشديد الياء مع فتحها - وآية مبيِّنة - بتشديد الياء مع كسرها - وآيات مبينات، ومبينات. والبينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسومة. والبيان: الكشف عن الشيء، وهو أعم من النطق، مختص بالأنسان، ويسمى ما بين به بياناً[7].

قال بعضهم: البيان يكون على ضربين:

أحدهما: بالتنجيز، وهو الأشياء التي تدل على حال من الأحوال، من آثار صنعه.

وثانيهما: بالأختيار، وذلك اما أن يكون منطقاً، أو كتابة، أو إشارة[8].

وتستعمل البينة فيما يبين الشيء ويوضحه، حسياً كان الشيء أم عقلياً، والمبين تارة من (أبان) اللازم، بمعنى: الظاهر الواضح، وذلك في كل ما هو صالح لأن يوصف بالظهور والوضوح في نفسه. وتارة من (أبان) المتعدي، بمعنى مظهر

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٥.
(٢) سورة النحل آية ٤٤.
(٣) سورة النحل الآية ٣٩.
(٤) سورة آل عمران الآية ٩٧.
(٥) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٦) سورة الزخرف الآية ٦٣.
(٧) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن ص ٦٨ - ٦٩.

وموضح، وذلك في كل ما يصلح أن يوصف بأنه مظهر لغيره، وموضع له[1].

وسمي الكلام بياناً، لكشفه عن المعنى المقصود اظهاره نحو قوله تعالى: ﴿... هذا بيان للناس...﴾[2].

وسمي ما يشرح به المجمل والمبهم من الكلام بياناً، نحو قوله تعالى: ﴿ثم علينا بيانه﴾[3].

ويقال بينته وأبنته: إذا جعلت له بياناً تكشفه[4]. نحو قوله تعالى: ﴿... لتبين للناس ما نزل اليهم...﴾[5].

ومادة (بان) بأشتقاقاتها، وتصريفاتها، وأسمائها، وأفعالها، تمتد فتشمل الكثير من الآيات البينات[6]، مما يبين لنا أن الوضوح خصيصة من الخصائص العامة للأسلام، وفي امكان الباحث أن يتبين الوضوح في كل ما جاء به الأسلام، ومن شأن الأنسان أن يدركه.

ومن هنا: كان علينا أن نعرض للوضوح في الأصول، والقواعد، والمصادر والمنابع، والمناهج، والوسائل، والأهداف، والغايات، وتلك أمور تغطي حاجة الأنسان وحركته في الحياة.

وضوح الأصول والقواعد:

أن أصول الأسلام ودعائمه الكبرى واضحة بينة لكل الناس، وقد تضمن القرآن الكريم حقائق أساسية كبرى، عرضها الناس، وأيدها بالادلة والشواهد ودعا

---

(١) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، جـ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٣ ط/دار المعارف بمصر.
(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٣٨.
(٣) سورة القيامة الآية ١٩.
(٤) الراغب الاصفهاني المفردات في غريب القرآن ص ٦٩ باختصار.
(٥) سورة النحل الآية ٤٤.
(٦) محمد فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ص ١٤١ ـ ١٤٥.

الى تصديقها، والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة[1].

وضوح التوحيد:

توحيد الله - تعالى - وهو أصل الأصول، لا يجهله مسلم، أيا كان جنسه أو لونه، أو طبقته، أو حظه من التعليم، فقد عرف من كلمة التوحيد، وأولى الشهادتين، أن لا مكان في الأسلام لتأليه بشر أو حجر، أو شيء في الأرض أو في السماء، بل لله من في السموات ومن في الأرض، وما في السموات وما في الأرض[2].

ولهذه كانت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - الى ملوك الأرض وزعمائها: ﴿. . . تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. . .﴾[3].

ان قضية التثنية في الألوهية: آله الخير، وآله الشر والظلمة، وقضية التثليث في الوثنيات القديمة، أو في المسيحية المتأثرة بها، لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها[4]. وأنظر وتأمل قول أحد علماء النصرانية: «تجمع عقيدتنا المسيحية بين التثليث والتوحيد، ولذلك فأننا نؤمن بوحدانية ذات الله وأنه تعالى ثلاثة أقانيم»[5].

«نعم يحار المسيحيون في هذا السر العظيم عند محاولتهم ادراكه، ولكنهم بنعمة الايمان يخضعون عقولهم المحدودة، لاعلاناته السامية، ولا يجرؤون على اخضاع السر نفسه لمستوى العقل الضعيف، وليس هذا بغريب، فقد قال أحد

---

(١) محمد المبارك، العقيدة في القرآن الكريم ص ٩ ط/دار الفكر العربي ببيروت سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م.
(٢) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٧٧.
(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤.
(٤) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٨٧ باختصار.
(٥) القس صموئيل مشرفي، الالهيات، ص ٨٤، ط. الثانية، الكنيسة المركزية بمصر، سنة ١٩٨٧ م.

علماء المسيحية: لماذا أقلق من جهة أسرار المسيحية؟ ونحن محاطون بالأسرار، وكل واحد منا يؤمن بأمور كثيرة لا يفهمها، فالتثليث والتجسيد والصليب والقيامة، بل العناية الالهية والأبدية نفسها، كل هذا من أعمق الأسرار ولا يتعبني مطلقاً عدم اقتداري حل هذه الغوامض»[1].

أرأيت الغموض الذي يلف عقائد النصرانية، أنه غموض يتنافى مع أبسط مبادىء العقل، وهذا بخلاف قضية التوحيد، فهي في الاسلام تستند الى العقل، وتعتمد على البرهان، قال تعالى: ﴿. . . أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾[2]. ﴿. . . وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[3]. ﴿. . . لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا. . .﴾[4]. ﴿قل لو كان معه ألهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا. . .﴾[5].

والاسلام جاء بالتوحيد، الذي هو أسمى العقائد الالهية وأجدرها ادراكاً من قبل الانسان المتمتع بأرفع حالاته العقلية، وكان على الاسلام حين ظهوره: أن يصحح أفكاراً كثيرة عن الذات الالهية، ناجمة عن أخلاط شتى من مؤثرات العبادات الوثنية والكتابية، وما رافقها من تأويل، فتضمنت آياته تصحيح العقول وتوجيهها الوجهة السليمة، لتقرير ما ينبغي للذات الالهية من كمال موزون بقسطاس الايمان، وقسطاس النظر والقياس[6].

لقد جاء القرآن الكريم فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ما سبقه من الكتب

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٢) سورة النحل الآية ٦٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية رقم ٩١.
(٤) سورة الانبياء الآية ٢٢.
(٥) سورة الاسراء، الآية رقم ٤٢.
(٦) مؤيد الكيلاني، كيف انتشر الاسلام؟ ص ٢٧٦.

المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه، ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه[1].

فالتوحيد ـ في حد ذاته ـ قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها ـ أيضاً ـ واضح في فكره، كما أن أثر هذه واضح في حياته[2].

لذا جاءت عقيدة الاسلام ـ كما بينها القرآن الكريم ـ واضحة بينة مما دعا الناس الى تفهمها بوضوح، لقد دعا القرآن الكريم، الانسان الى الايمان بـالله، منطلقاً من الانسان وبيئته بـالمعنى الواسـع، أي: من الطبيعـة التي يعيش فيها، والكون الذي يحيط به، وعلى هذا احتوى القرآن الكريم على آيات كثيرة جداً في كثير من سوره، تضمنت صوراً من الطبيعة، ومشاهد الكون ليطرح قضيتين كبيرتين:

القضية الاولى: قضية بداية الخلق، أو الخلق الاول، أو النشأة الاولى وقد عبر القرآن الكريم بكل هذه التعابير، وطرح هذه القضية في مواطن كثيرة.

القضيـة الثانيـة: قضية التـنظيم والتقديـر، أي: ربط أجزاء الكـون بعضها ببعض، وتسييرها وفقاً لخطط مقدرة، وسنن مطردة[3].

ومن مظاهر وضوح الاصول والقواعد في الاسلام: أن أركان الاسلام العملية وشعائره التعبدية، واضحة للخاص والعام، وذلك أن الاسلام يسلك بالناس أسهل السبل وأهداها، وأدناها، الى فطرة الانسان وأقربها الى طبيعته وأحواله.

فالصلاة ـ وهي الفريضة اليومية ـ معروفة بعددها، ومواقيتها، وأعداد ركعاتها، وأركانها، وشروطها، ومجمـل هيئاتهـا، من بدء افتتـاحها بـالتكبير الى اختتـامها بالتسليم، ثم ما وراء هذه الفرائض من نوافل، ومكملات في الليل والنهار، وما شرع لها من آذان وجماعة، يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها، لتعمر بها بيوت أذن الله

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨١ بتصرف.

(٣) محمد المبارك، العقيدة في القرآن الكريم ص ١١.

أن ترفع، ويذكر فيها اسمه[1].

وكما فرض الاسلام الصلاة، كصلة متكررة دائمة، كذلك نظم الاسلام فريضة الزكاة، كصلة بالله، وجعلها عبادة مادية، روحية، يؤديها المسلم من ماله الخاص، وقال تعالى: ﴿والذين في أمولهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [3].

وفريضة الزكاة واضحة بينه لدى كل من دخل الاسلام.

وصيام رمضان ـ وهو الفريضة السنوية الدورية ـ معلوم لكل المسلمين، فهو شهر قمري، محدود البداية والنهاية، ووقت الصيام كل يوم معلوم من بين الفجر الى غروب الشمس[4]. والصوم هو الامساك عن الطعام والشراب، والمعاني الجنسية [5]. ومع مظهر الصيام المادي الذي يبدو في الامساك عن الطعام والشراب والشهوات، هو: عبادة روحية لها آثارها المعنوية[6]، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات. . . ﴾ [7].

---

(١) محمد المبارك، العقيدة في القرآن الكريم ص ١٨. وفي كلام المؤلف: ما يشير الى قول الله ـ عز وجل ـ في سورة النور، الآية ٣٦ (في بيوت أذن إلله أن ترفع ويذكر فيها اسمه). ولم يذكر المؤلف نص الآية على المنهج البلاغي التضمين والاقتباس في الآيات والاحاديث والحكم، دون تنصيص عليها وهناك من يسميه: ترصيع الاسلوب.
ابن الاثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، جـ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٥ قدم له وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، ط/نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

(٢) سورة المعارج الآيتان ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) سورة الذاريات الآية رقم ١٩.

(٤) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام ص ١٨١.

(٥) محمود شلتوت، من توجيهات الاسلام ص ٣٤٧.

(٦) نفس المصدر ص ٣٥٩.

(٧) سورة البقرة، الآيتان ١٨٣ ـ ١٨٤.

وفريضة الحج واضحة، معلومة شعائرها للمسلمين: من التجرد من المخيط، والمفصل، والطواف ببيت الله الحرام، ورمى الجمار، وذبح الهدايا[1].

فالعبادات من صلاة وزكاة وحج وصوم، وان اختلفت صورها ومقاديرها وأوقاتها، تلتقي عند غاية واحدة، وهي تحقيق معنى العبودية لله[2]... وهي جميعها واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز واجمال[3].

ومن مظاهر الوضوح في الاسلام: أن له مصادر محدودة بينة، كانت منبع الهداية والارشاد، ومصدر التشريع والاحكام، في العقائد والاخلاق والاداب والفضائل.

والمصدر الأول: هو كتاب الله القرآن الكريم، الذي ﴿... فصلت آياته قرأنا عربياً لقوم يعلمون﴾ [4].

ومن سمات هذا القرآن: أنه فصلت آياته، وأنه مفصل.

«والتفصيل هو التوضيح والتبيين. فالقرآن سور محكمات، والسور آيات، والايات حروف وكلمات، والجميع مفصل، فصله الله - جل شأنه. آيات القرآن فصلها - تعالى - تفصيلاً متقناً، بينا، واضحاً، جليا، فلا غموض ولا خفاء، ولا لبس فيها، آيات بينات الدلالة، واضحات المعاني، فليس بألغاز، ولا رموز ولا أحاجي، آيات مفصلات، هي مصادر الحكم والاحكام، وينبوع العلوم والعرفان»[5].

قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمت البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ [6].

---

(١) محمود شلتوت، من توجيهات الاسلام ص ٣٨٥.
(٢) نفس المصدر ص ٣٨٧.
(٣) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام ص ١٨٢.
(٤) سورة فصلت الآية رقم ٣.
(٥) صالح بن ابراهيم البليهي، الهدى والبيان جـ ١ ص ٢٠٦.
(٦) سورة الانعام الآية ٩٧.

وقال تعالى: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس وحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتـاب فصلناه على علم هـدى ورحمة لقـوم يؤمنون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿. . . ونفصل الأيات لقوم يعلمون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾[4].

ومن سمات القرآن الكريم: أنه نور «ينير الطريق للسالكين» نور يهتدى به كل تـائه وحيـران، أشعته متـرامية فـوق دنيا البشـر، نور وهـاج يضمحل بـه اللجاج والحجاج»[5].

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنـا اليكم نوراً مبيناً﴾[6]. يقول القرطبي: ﴿النور المنزل هو القرآن، وسماه نـورا، لأن به تتبين الأحكام، ويهتدي به من الضلالة، فهو نور مبين، أي: واضح بين[7] ومن سمات القرآن: أنه برهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهن من ربكم. . .﴾[8]. والبرهان: ما يبرهن به عن المطلوب، وهي الحجة الواضحة الصحيحة[9] وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم: أن البرهان الحجة الفاصلة البينة[10] ويقول العلماء: أن البرهـان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة[11].

---

(١) سورة الانعام الآية ٩٨.
(٢) سورة الاعراف الآية ٥٢.
(٣) سورة التوبة الآية رقم ١١.
(٤) سورة الاعراف الآية ١٧٤.
(٥) صالح البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، جـ١ ص ٢١٦.
(٦) سورة النساء الآية ١٧٤.
(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ٢ ص ٢٠٢٣.
(٨) سورة النساء الآية ١٧٤.
(٩) صالح البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، جـ٢ ص ٦٠.
(١٠) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ١، ص ٩٤.
(١١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٤٥.

ومن سمات القرآن الكريم: أنه مبين، وبينة، وتبيان، وما ذلك الا لشـدة وضوحه، قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شيء وهدى ورحمة وبشري للمسلمين﴾[1].

ومن سمات القرآن الكريم: أنه فرقان، لأنه ـ جلا وعلا ـ فرق به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الغى والرشاد، وبين الحلال والحرام، وبين الخير والشر، وبين السعادة والشقاوة، وبين المؤمنين والكـافرين وبين الصـادقين والكاذبين، وبين العادلين والظالمين، بأدلة القرآن وحججه وبراهينه[2].

والمصدر الثاني من المصادر البينة الواضحة: هو السنة النبوية والسنة هي: ما أضيف الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف[3]، وهي مبينة للقرآن الكريم وشارحة له، تفصل مجمله وتوضح مشكله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتبسط ما فيه من ايجاز[4].

قال تعالى: ﴿. . . وأنزلنا اليك الذكـر لتبين للناس مـا نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[6]. فالبيان خاص به ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بهما[7].

ومن خصائص الاسلام: وضوح مناهجه ووسائله وطرقه التي توصل الى غاياته المثلى، وأهدافه العليا، ولهذا كانت عبادة الله فوق ما تقوم به من صقل النفس،

---

(١) سورة النحل، الآية رقم ٨٩.
(٢) صالح البليهي، الهدى والبيان في أسماء القرآن، جـ ٢ ص ٣٧.
(٣) محمد علي أحمدين، مقدمة ضوء القمر على نخبة الفكر لابن حجر، ص ١٤ ط. وزارة المعارف بمصر، سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م.
(٤) د. محمد أبو شهبه، دفاع عن السنة، ص ١١، ط. الأزهر.
(٥) سورة النحل، الآية رقم ٤٤.
(٦) سورة النحل الآية ٦٤.
(٧) د. محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، ص ١١.

فانها تعمل على التأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها، وعملها، وسعيها مع الله. كل ذلك في اطار ما يحتوي الـطاعة من منهـج يومي وقويم، بصفة دائمة من غبش الفجر، الى غسق الليل، قال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات، في أول النهار وآخره، بكرة وأصيلا، وفي ساعات الليل المتداخلة في النهار، وساعات النهار المتداخلة في الليل[٢].

وقال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾[٣]، صدقة بمقدار معين في الزكاة المفروضة، أو بمقدار معين في زكاة التطوع، تطهرهم من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء والبائسين[٤].

فالعبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، تزكى النفس، وتربي الارادة، وتوحد الاتجاه، وتدرب الانسـان على كمال العبـودية لـربه الأعلى، الـذي خلق فسوى، وهي عبادات محددة، لا تقبل الابتداع، ميسرة لا تقبل التزمت، معتدلة لا تقبل التطرف، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر، وقد نوع الاسلام فيها، فبعضها بدني،، كالصلاة والصيام، وبعضها مالي كالزكاة، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعمرة[٥].

ومن هذه العبادات: ما يتكرر كل يوم، كالصلاة، ومنها ما يتكرر كل سنة كالصيام والزكاة، ومنها ما لا يفرض في العمر الا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات: ما هو فعل ايجابي، كالصلاة، والزكاة، والحج ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع مثل الصيام[٦].

---

(١) سورة هود، الآية رقم ١١٤.

(٢) محمد القاسمي، محاسن التأويل، جـ ٩، ص ٤٣٩٤، ط. الأولى، عيسى البابي الحلبي بمصر، سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٨ م.

(٤) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، جـ ١١، ص ١٦، بتصرف، ط. مصطفى الحلبي بمصر، القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

(٥) و(٦) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٩٥.

وفي ميدان المبادىء والأخلاق نجد أن المنهج الاسلامي واضح في أن الأخلاق السامية، والمبادىء القويمة التي جاء بها الاسلام، وأمر المسلمين أن يتخلقوا بها، كلها تعمل من قريب أو من بعيد على وحدة المسلمين وتنمية مشاعر الأخوة بينهم، قال تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الألبب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾[1] ومن هنا كانت القيم الاسلامية هي: مجموعة الأخلاق، التي تصنع نسيج الشخصية الاسلامية، وتجعلها متكاملة، قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه، وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة[2].

ولقد أفادتنا البحوث أن القيم الاسلامية في مجموعها نوعان:

١ ـ القيم السلبية، أو قيم التخلي، وتتجلى في هجر ما نهى الله عنه من شرور وموبقات.

٢ ـ القيم الايجابية: وهي: القيم التي كلف المسلم بالتحلي بها، وأخذ نفسه بمقتضياتها مثل: الصدق، والأمانة، والرحمة، وصلة الرحم، والمروءة والنخوة، والكرم، وحسن الجوار[3].

وفي ميدان الآداب والتقاليد: نجد أن هناك في المنهج الاسلامي آداب تصحب المسلم في حياته كلها، في مأكلة ومشربه وملبسه ومركبه ويقظته ونومه وسفره وحضره، وخلوته وجلسته، وهي آداب تحرص على ربط المسلم بالله ـ تعالى ـ في كل أحواله، وكل أحيانه، فهو ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله ويبدأ الأكل باسم الله، ويختم بحمد الله، وكذلك لبسه الثوب، وركوبه الدابة

---

(١) سورة الرعد، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٢) د. جابر قميحة، المدخل الى القيم الاسلامية، ص ٤١، ط. دار الكتاب اللبناني بمصر وبيروت، سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤ م.

(٣) المصدر السابق ص ٤١.

وسفره وعودته، وهو اذا هنأ أو عزى أو شمت عاطساً أو رد على مشمت أو سافر أو ودع مسافراً، أو غير ذلك لم ينس الله ـ سبحانه وتعالى ـ بل لسانه رطب بذكر الله حامداً أو داعياً، أو مسمياً أو مثنياً عليه بما هو أهل له[1].

ومن مظاهر الوضوح في نظام الاسلام: وضوح الأهداف والغايات، اذ أن غايات الاسلام وأهدافه: إخراج الناس من الظلمات الى النور. قال تعالى: ﴿. . . كتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد﴾[2].

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ: لتخرج البشرية من الظلمات ظلمات الجهل، والوهم، والخرافة، وظلمات الأوضاع، والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين. . . لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها الى النور، النور الذي يكشف هذه الظلمات يكشفها في عالم الضمير، وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد[3].

والايمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري والايمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق، ترى الطريق واضحة الى الله، لا يشوبها غبش، ولا يحجبها ضباب. عبش الأوهام، وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات، وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر، ولا تضطرب، ولا تتردد، ولا تحتار[4].

قال تعالى: ﴿. . . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾[5].

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للاسلام، ص ١٩٦.
(٢) سورة ابراهيم الآية رقم ١.
(٣) و (٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ٤ ص ٢٠٨٥.
(٥) سورة المائدة، الآيتان ١٥، ١٦.

يقول المفسرون: وكتاب مبين: يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولا يأتيه ما كان خافياً على الناس من الحق[1].

وفي تفسير المنار: أن الله ـ عز وجل ـ ذكر للنور ثلاث فوائد:

الأولى: أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، أي أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالايمان، يهديه الطريق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يرديه ويشقيه، فيقوم في الدنيا بحقوق الله ـ تعالى ـ وحقوق نفسه الروحية والجسدية، وحقوق الناس، فيكون متمتعاً بالطيبات متجنباً للخبائث، تقياً مخلصاً، صالحاً، مصلحاً، ويكون في الآخرة سعيداً منعماً جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي، والنعيم الروحي القلبي والعقلي.

الثانية: الاخراج من ظلمات الجهل والوثنية الى نور التوحيد الخالص اذ يصبح الانسان حراً كريماً بين الخلق، عبداً خاضعاً بين يدي الخالق وحده.

الثالثة: الهداية الى الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصل الى القصد والغاية من الدين في أقرب وقت، لأنه طريق لا عوج فيه ولا انحراف[2].

وكان هدف الرسل جميعاً ﴿... ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة...﴾[3]. أي: يهلك الهالكون عن حجة بينة بالمشاهدة وهي: هزيمة الكثرة الكافرة، ويحيا المؤمنون عن حجة بينة، وهي: نصر الله للقلة المؤمنة[4]، فالتزام الرسل بالوضوح أبعدهم عن مهادنة الخرافات ومسالمة الأفاكين.

ومن غايات الاسلام وأهدافه: ترسيخ معنى العبودية لله، وافراده بالربوبية، وتوحيده دون شرك، وهدف التربية والبناء في الدعوة الاسلامية هو ترسيخ هذه

---

(١) القاسمي، محاسن التأويل، جـ ٦ ص ١٩٢١.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٣) سورة الانفال الآية رقم ٤٢.

(٤) لجنة القرآن، المنتخب من التفسير، ص ٢٤٩، ط. الحادي عشرة ط. المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة، شهر محرم، سنة ١٤٠٦ الموافق نوفمبر سنة ١٩٨٣ م.

القاعدة في ضمير الانسان، لتصبح حقيقة ويقينا في القلب، وعقيدة وتصوراً في الفكر، ونشاطاً وحركة في الحياة، لتشمل الحياة كلها، فتصدر عنها العبادات والأحكام والتشريع، ولتنطلق منها التصورات فتعطي المنهج والتخطيط[1].

قال تعالى: ﴿قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2].

فهذه الغايات والأهداف وغيرها مما جاءنا به القرآن الكريم واضحة بينة لا غموض فيها ولا ابهام.

ومن الوضوح في الاسلام: أن الدعوة كانت تنزل منجمة، حتى يفهم السائل ويقتنع المجادل، وتنمحي الشبه، وتستقر الدعوة، على أسس ثابتة مؤكدة[3]. قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾[4]. فالقرآن جاء ليربي أمة، وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج الى زمن، والى تأثر وانفعال بالكلمة، والى حركة تترجم التأثر والانفعال الى واقع والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد انما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقبة رويداً رويداً وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم الثاني أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها، والتذاذاً بها، ولقد جاء القرآن الكريم بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية لذلك جاء منجماً، وفق الحاجات الحية للجماعة

---

(١) عدنان النحوي، دور المنهج الرباني في الدعوة الاسلامية، ص ١١٩ ـ ١٢٠، بتصرف، ط. دار الاصلاح بالدمام.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) د. أحمد غلوش، الدعوة الاسلامية، ص ١٥١.

(٤) سورة الفرقان الآية رقم ٣٢.

المسلمة[1].

فالحكمة من نزول القرآن مفرقاً: أن يتقوى بتفريقه فؤاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يعيه ويحفظه، لأن المتلقن انما يتقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل[2] به وتعيا بحفظه، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى ـ عليهم السلام ـ اذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه القرآن منجماً في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين سنة، وأيضاً: فقد كان ينزل حسب الحوادث، وجواباً للسائلين، ولأن بعضه منسوخ، وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك الا فيما أنزل مفرقاً[3].

وقد ختمت الآية بقوله: ﴿... ورتلناه ترتيلاً﴾ والترتيل ـ كما يقول الزمخشري ـ: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة، ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته... وذلك مثل قوله تعالى: ﴿... ورتل القرآن ترتيلا﴾[4]. أي: اقرأه بترتل وتثبت[5]، ومنه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في صفة قراءاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها»[6].

فالأمر بالقراءة أمر بيان. قال تعالى: ﴿وقرآنا فرقنه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾[7]. فالقرآن هدى وشفاء تشريع وتكليف، نزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقود على هديه البشر ويداوي به أمراضهم الاجتماعية،

---

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ٥ ص ٢٥٦٢.
(2) بعل الرجل: أي دهش.
حاشية المرزوقي على الكشاف، جـ٣ ص ٩٦، ط. دار المعرفة.
(3) الزمخشري، الكشاف جـ٣، ص ٩٦.
(4) المزمل الآية رقم ٤.
(5) الزمخشري الكشاف، جـ ٣ ص ٩٧، بتصرف.
(6) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ٦، ص ٥٦٧.
(7) سورة الاسراء الآية رقم ١٠٦.

ويمدهم بطاقة روحية ومادية، وهو ليس بالقصير الذي يمكن قراءته في جلسة، أو حفظه في يوم، ولهذا كان من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نزل القرآن الكريم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفرقاً، حتى يتمكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته من حفظه[1]. . . ويرى كثير من العلماء: أن لنزول القرآن الكريم منجماً حكماً جليلة، وأسراراً عديدة، عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي:

أولاً: تثبيت قلب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام أذى المشركين.

ثانياً: التلطف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند نزول الوحي.

ثالثاً: التدرج في تشريع الأحكام السماوية.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن الكريم، وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها في حينها.

سادساً: الارشاد الى مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل الحكيم الحميد[2].

لقد تضمن القرآن الكريم حقائق أساسية كبرى، عرضها على الناس، وأيدها بالادلة والشواهد، ودعا الى تصديقها، والايمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة وهي التي تؤلف جو القرآن العام، والاساس الذي تتفرع منه قواعده الاخلاقية، وأحكامه التشريعية، لا تنفصل عنه أبداً، وهي القاعدة الفكرية النفسية، التي أراد الله أن يقيم عليها بناء الانسان وتكوينه[3].

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله ـ تعالى ـ في ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الادلة على أن للكون خالقاً واحداً، متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه، من الصفات، كالعلم والارادة، والقدرة، وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه، وأنه لا نسبة بينه وبينهم، الا أنه موجدهم[4].

---

(١) د. عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص٨٢، ط. الثانية، دار الكتاب اللبناني ببيروت، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

(٢) الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٣) محمد المبارك، العقيدة في القرآن الكريم، ص ٩ بتصرف.

(٤) محمد عبده، رسالة التوحيد ص ٢٠٤.

فالاسلام ـ كما ترى ـ جاء بالحق في العقائد، وأقام الحجج والادلة عليه بما يتفق هو والفطرة البشرية. والحق اذا قامت الادلة عليه، وظهر انقادت له العقول، وكانت له السيطرة على النفوس، وتصرف في الضمائر، وتحكم في السرائر[1].

ولقد شاءت حكمة الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ: أن يمد الانسان بما يساعده على تحقيق الغاية التي خلق من أجلها، وهي: معرفته وعبادته والانتظام في سلك عبادته. من هنا فلقد أنعم الله على الانسان بالعقل أداة فهم وآلة معرفة، ولكن العقل لا يستطيع العمل في فراغ دون شاهد أو دليل[2].

والوجود كله شاهد حق، ودليل صدق على وجود الله ـ جل جلاله ـ الوجود كله شاهد حق، ينطق بكل لسان، ويفهم بأوضح بيان، ويخاطب الحس والجنان.

يخاطب العين بلغتها، والاذن بلغتها، والذوق واللمس بلغته يخاطب العين بلغة البصر، فتبصر في الالوان قدرة الله، وتبصر في المخلوقات، وشؤون تصريفها عظمة الله، وتبصر في الوجود كله حكمة الله[3].

ومن يتتبع قضية الوضوح في الاسلام، يجدها في كليات الاسلام وجزئياته وفي بيانه لوحدة الاصل الانساني، ووحدة العقيدة الاسلامية، ووحدة المصدر وفي ميدان التعاليم، وفي ميدان العبادات، وفي ميدان الاخلاق والمبادىء وفي كل شيء.

---

(١) محمد أحمد عرفة، السر في انتشار الاسلام ص ٦ ط/نهضة مصر.

(٢) د. محمود مزروعة، أضواء على المنهج النقدي عند ابن رشد، ص ٢٠٠، ط/ دار الطباعة المحمدية بمصر سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠١.



الكمــال



الكمـــال

الكمال هو: التمام الذي تجزأ منه أجزاؤه. وقيل: كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه[1].

والكمال عامل هام من العوامل الذاتية في الاسلام، التي ساعدت وعملت في قوة على انتشار الاسلام، والاسلام لا بد وأن يكون كاملاً، لأنه خاتم الشرائع ومكمل الرسالات، والمعبر عن لطف الله سبحانه وتعالى، ورحمته بخلقه... وقد شاء الله ـ سبحانه ـ أن يكون الاسلام هو الدين الذي يلازم البشرية في مسيرتها، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو في حياتها، لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الانسان، وقيادته نحو الخير والصلاح.

ومن يراجع أحكام الشريعة الاسلامية: يجد أنها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة لأمور الأفراد، والجماعات والدول، اذ صيغت نصوص الشريعة، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن، ولا تبلى جدتها، ولا يقتضي تغيير قواعدها العامة، ونظرياتها الأساسية، فجاءت نصوصها من العموم والمرونة، بحيث تحكم كل حالة[2].

لقد جاءت الشريعة الاسلامية وافية بحاجات الناس، لا نقص فيها ولا قصور، ففي السنة العاشرة من الهجرة، حج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز جـ ٤ ص ٣٨٨.

(٢) محمد صالح عثمان، وجوب تطبيق الشريعة الاسلامية ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سنة: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

حجة الوداع، وبينما هو قائم يدعو ربه، يوم عرفة، والمسلمون حوله يؤمنون على دعائه، ويدعون معه في كثرة وعزة، نزل قوله تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾[1]. أي: اليوم وقد قضيتم على مظاهر الشرك، وبلغتم ما انتم فيه، من عزة وكثرة، واجتمعتم في مناسك الحج، ليس معكم مشرك بالله ـ تعالى ـ. الآن يئس الذين كفروا من الوقوف أمام دعوتكم إلى الله ـ تعالى ـ، ومن إلحاق الأذى بكم، فلا تخشوهم واخشون، وفي هذا اليوم الذي بلغتم فيه ما بلغتم، أكملت لكم ما أردت أن أشرعه لكم من أحكام الحلال والحرام، وبيّنت لكم الطريق في جميع ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، فلا زيادة في شيء من ذلك بعد اليوم[2].

وجاء في تفسير المنار: اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضي عليكم، وحدودي وأمري اياكم، ونهيي، وحلالي، وحرامي، وتنزيلي. من ذلك ما أنزلت منه في كتابي، وتبياني ما بيّنت لكم منه بوحي على لسان رسولي، والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة اليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد اليوم[3].

وقال أصحاب الآثار: أنه لمّا نزلت هذه الآية على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعمّر بعد نزولها الا واحداً وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ، ولا تبديل البتة[4].

وروى ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخبر

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٣.

(٢) د/ السيد عبد اللطيف كساب، نظرات في عموم الشريعة الاسلامية، ص ٢٧٠ من مجلة (هذه سبيلي) العدد الخامس، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م.

(٣) محمد رشيد رضا تفسير المنار جـ ٦ ص ١٢٩.

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير جـ ٦ ص ١٤٢.

الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الايمان، فلا يحتاجون الى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً.

اكمال الدين: خلص البيت الحرام للمسلمين، واجلاء المشركين عنه، حتى حجه المسلمون وهم لا يخالطهم المشركون، ولا يمكّن الكافر من دخول حرم مكة سواء مساجدها أو غيرها[1].

واكمال الدين: الاظهار، واستيعاب عظم الفرائض، والتحليل والتحريم[2].

واكمال الدين: يكون بشمول الشريعة لحاجات من شرعت له، وتحقيقها لمصالحه، التي تقتضيها حياته، والذي جاءت الشريعة لتحقيق مصالحه، ورفع شأنه[3].

فالله سبحانه وتعالى ـ أكرم الانسان، وفضّله على كثير مما خلق، وميّزه بالعقل، والارادة، والاستعداد لاكتساب العلوم والمعارف، وخلق له ما ظهر على وجه الأرض وما بطن، وجعله خليفة فيها، ومكّنه من ارتياد أرجائها، والسير في برّها وبحرها، وأمره بالنظر في الكون والكشف عن أسراره، والانتفاع بخيراته[4].

قال تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[5].

والانسان الذي كرّمه الله ـ تعالى ـ وفضله على كثير من خلقه، مستعد بفطرته للخير والشر، وفي طبيعته البشرية، حب النفس والميل مع الهوى، وهذا قد يؤدي

---

(١) الزركشي: اعلام المساجد باحكام المساجد ص ١٧٣ ط المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م.

(٢) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ ٥ ص ٢٩ ط المغرب سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

(٣) د ـ السيد عبد اللطيف كساب، نظرات في عموم الشريعة الاسلامية ص ٢٧١.

(٤) المصدر السابق ص ٢٧١.

(٥) سورة الاسراء، الآية رقم ٧٠.

به إلى طغيان المادية، الذي يقطع الروابط الانسانية اللازمة للحياة الانسانية الكريمة فلا يستقيم أمره، الا بوازع ذاتي، يقوم على قاعدة من الايمان، بوجود خالق الكون، ومدبّر أمره، والايمان بأنه كما احكم نظام الكون أكمل نقص الانسان، وتعرضه للانحراف عن الصراط المستقيم، وذلك بارسال الرسل، وانزال الشرائع، ولهذا اهتمت الشريعة الاسلامية بوضع الأساس الصحيح في هذه الناحية، فعرّفت الناس بخالق الكون، ومدبر أمره، ودعتهم الى التقرب اليه، باخلاص النية له، وأداء أعمال تصلح من النفوس وتقوّى روابط الألفة والمحبة بين الجميع[1].

واكمال الدين: يكون بالاظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرع، وقوانين الاجتهاد[2].

وعلى هذا تكون كلمة الدين شاملة لما يدخل في باب العقيدة، وما يدخل في باب العمل[3].

قال الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[4].
وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا اليك﴾[5].
فالدين عند الله الاسلام، بكل ما اشتمل عليه من أحكام تنظم حياة الناس، وتحقق مصالحهم في غير فرق بين ما يتصل بالعقيدة، وما يتصل بالعمل، فالناس ملزمون بامتثال اوامر الله ـ تعالى ـ واجتناب نواهيه في كل الجوانب[6].

إن المؤمن يقف أولاً أمام اكمال هذا الدين، يستعرض موكب الايمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول بعث ـ وهو آدم عليه السلام ـ الى هذه الرسالة الأخيرة رسالة النبي الأمي محمد ـ صلى الله

---

(١) د ـ السيد عطية كساب، نظرات في عموم الشريعة الاسلامية ص ٢٧٢.
(٢) البيضاوي، انوار التنزيل واسا التأويل ص ١١٢ ط البابي الحلبي سنة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.
(٣) د ـ السيد عطية كساب قطرات في عموم الشريعة الاسلامية ص ٢٧٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية رقم ١٩.
(٥) سورة الشوري، الآية رقم ١٣.
(٦) د ـ عطية كساب، نظرات في عموم الشريعة الاسلامية ص ٢٧١.

عليه وسلم ـ الى البشر أجمعين[1]. الذي أرسل الى النـاس كافـة، رسولاً خـاتم النبيين، برسالة للانسان، لا لمجموعة من الأناسي في بيئة مخصوصة، في زمن خاص، في ظروف مخصوصة، رسالة تخاطب الانسان من وراء الظروف والبيئات، والأزمنة، لانها تخاطب فطرة الانسان التي لا تتبدل، ولا تتحوّر، ولا ينالها التغيير: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾[2]. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الانسان من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع له المبادىء الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطوّر فيها، ويتحوّر بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية، والنظم الجزئية فيما لا يتطوّر ولا يتحوّر بتغير الزمان والمكان، وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية، وأحكامها التفصيلية، محتوية كل ما تحتاج إليـه حياة الانسـان من تلك الرسـالة الى آخـر الزمان[3].

ولا شك أن هذه الوقفة التي يقفها المؤمن، تكشف له عن كمال الاسلام في وضوح، واذا كنا عرضنا لهذه في ايجاز، فانما نمضي مع الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في الوقفة الثانية، فنجده يقول: ويقف المؤمن ثانياً: امام اتمام نعمة الله على المؤمنين باكمال هذا الدين، وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة، النعمة التي تمثل مولد الانسان في الحقيقة كما تمثل نشأته واكتماله. . . فالانسان لا وجود له قبل أن يعرف إلهه، كما يعرفه هذا الدين له، وقبل ان يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه هذا الدين، وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود، وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه. . . والانسان لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد، بعبادة الله وحده، وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه، لا من صنع أحد، ولا بسلطانه[4].

وكمال الدين: مراعاة طبيعة الانسان، اذ ناسب الاسلام الانسان، واتفق مع

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٨٤٢.
(٢) سورة الروم، الآية رقم ٣٠.
(٣) و (٤) سيد قطب، في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٨٤٢ ـ ٨٤٣.

فطرته، وذلك ان الانسان كائن يحس بما حوله، ويرغب في الاتصال به، والتعاون معه، وهو في احساسه هذا يشعر بقوى غيبية، لا يدركها، فيتسنى أن يحيط بها. ومن هنا تأتي الدعوة الاسلامية محققة كافة مطالب الانسان ورغباته، فتوضح له هذه القوى الغيبية، وتركزها في عقيدة تعرف بالله وعبادته، وتدعو الى الايمان بالرسل، والملائكة، والكتب، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وتصنع شريعة تمكن من الاتصال بالناس، والتعاون معهم، وتتم مكارم الأخلاق التي تبين الحسن في كل شيء، وتحتمه. وهكذا ناسبت الدعوة الاسلامية حقيقة الانسان في سائر تعاليمها[1].

وان الباحث ـ وهو يتابع كمال الدين الاسلامي ـ سوف يتضح له هذا الكمال في كل ما يتصل بالانسان، أو يمس جانباً من حياته، كانسان يعيش في هذه الحياة الدنيا لرسالة يؤديها.

* * *

---

(١) انور الجندي، الثقافة العربية، اسلامية أصولها وانتماؤها ص ٧٠، ط : دار الكتاب اللبناني، بيروت سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣ م.

الفهرست

